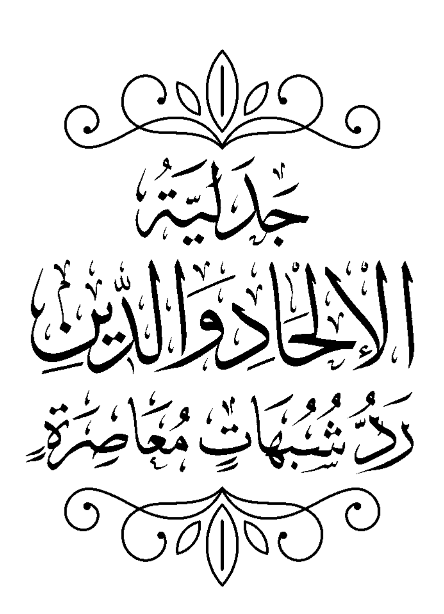

جدلية الإلحاد والدين
رد شبهات معاصرة
علي آل محسن


جدلية
الإلحاد والدين
رد شبهات معاصرة



ایران. قم. پاساژ قدس. محل رقم ٣٦
تلفون ٣٧٧٣٢٧٣١ نقال ٠٩١٢٤٥١٢٥٦٣
www.zein.ir





جدلية الالحاد والدين

رد شبهات معاصرة

تأليف

علي آل محسن

● الطبعة: الأولى ١٣٩٦ هـ.ش ٢٠١٨م
● الكمية: ٥٠٠ نسخة
● عدد الصفحات: ٤٠٤ صفحة
● تصميم الغلاف: السيد مسلم السيد زين العابدين

سازمان اسناد و کتابخانهٔ ملی جمهوری اسلامی ایران

سرشناسه: آل محسن، علی، ١٣٣۴-
عنوان و نام پدیدآورنده: **جدلية الالحاد والدين: رد شبهات معاصرة/ تاليف علي ال‌محسن.**
مشخصات نشر: قم: دار زین‌العابدین، ١۴٣٩ هـ = ٢٠١٨ م = ١٣٩۶.
مشخصات ظاهری: ۴٠۴ ص.
شابک: ٣۵٠٠٠٠ ریال : **978 - 600 - 98461 - 7 - 7**
وضعیت فهرست نویسی: فیپا.
یادداشت: عربی.
یادداشت: کتابنامه: ص. [٣٨٩] - ٣٩٨؛ همچنین به صورت زیرنویس.
موضوع: اسلام -- عقاید -- دفاعیه‌ها و ردیه‌ها
موضوع: Islam -- Doctrines -- Apologetic works
موضوع: اسلام -- مطالب گونه‌گون -- پرسش‌ها و پاسخ‌ها
موضوع: Islam -- Miscellanea -- Questions and answers
رده کنگره: BP ٢٠۶/٨/آ٧ ج۴ ١٣٩۶
رده دیویی: ٢٩٧ / ۴١
شماره کتابشناسی ملی: ۴٩١٩١٩٣

جدلية

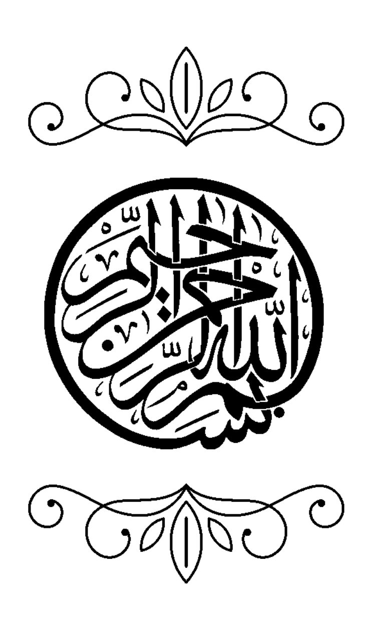
الإلحاد والدين

ردُّ شبهاتٍ معاصرة

تأليف

علي آل محسن

دار زين العابدين



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيِّبين الطاهرين، وبعد:

فقد وردت إليَّ مسائل متعدّدة، هي في حقيقتها إثارات - لا مسائل - حول وجود الله تعالى، وبعض صفاته التي يعتقد بها المسلمون، وخصوصاً ما يرتبط بعدله سبحانه، وغير ذلك ممّا يتعلّق بأفعاله تبارك وتعالى، كما أنّ جملة من تلك المسائل تتعلّق بالدِّين عامّة وبالإسلام خاصّة، وهي من الإثارات التي يثيرها غالباً في هذا الزمان المنكرون لوجود الخالق سبحانه من الذين لا يتديّنون بدين، أو الذين يحاربون الأديان عامّة، ويسفّهون أتباعها.

وبما أنّ مثل هذه المسائل صارت تُطرح في مواقع الإنترنت، وخصوصاً في مواقع التواصل الاجتماعي، من أجل التأثير على الشباب المسلم الذين ليس عندهم إلمام كافٍ بأمور الدين، ويسهل تشكيكهم في دينهم بسبب عدم ثقافتهم الدينية، فقد رأيت لزاماً عليَّ أن أجيب على هذه المسائل بإجابات وافية وموسّعة، حيث قمت بالإجابة عن كلّ سؤال بعدّة إجابات مختلفة، من أجل إحكام الجواب من جميع جوانبه، وسدّ كلّ ثغرة يمكن أن يتسلّل من خلالها الشك في أذهان القرّاء الأعزاء.

وسيلاحظ القارئ الكريم أنّ جواباتي على تلك المسائل والتشكيكات موجّهة إلى كلّ من الفئة المشكّكة والفئة المتشكّكة، حيث أجبت بإجابات عقلية صرفة، ولم أنقل من النّصوص القرآنية والأحاديث الشريفة إلا ما أبيّن به أنّ ما قلته هو المعتقد الذي يعتقده المسلمون أو الشيعة بالخصوص، ممّا دلّت عليه آيات الكتاب أو الأحاديث الصحيحة المرويّة عندهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن أهل بيته عليهم السلام، مع لفت النظر إلى أنّي لم أنقل شيئاً من الآيات والأحاديث كأدلّة أحتجّ بها على صاحب الشبهة؛ لعلمي بأنّي أخصّ بالخطاب من لا يعتقد بحُجّيتها، ولا يرى لها أيّ قيمة عنده.

ولأجل ذلك نقلت ما أدعّم به كلامي من مصادر محايدة مختلفة، إمّا علمية، أو ممّا كتبه علماء غربيّون لا يمتّون إلى الإسلام أو الدين بصلة.

ولا بدّ من التنبيه هنا على أنّي اعتمدت في هذا الكتاب الرأي المعروف في المذهب الشيعي من بين الآراء التي تختلف فيها المذاهب الإسلامية، ولم أعوّل على الآراء المخالفة في أيّ نسخة أخرى من نُسَخ الإسلام.

وممّا ينبغي التنبيه عليه أيضاً هو أنّي ربّما كرّرت في بعض المواضع ما ذكرته في جوابات أخرى، بغرض جعل كلّ جواب وافياً بنفسه، غير محتاج في فهم المراد منه إلى الرجوع إلى جواب آخر.

وآمل من كلّ متخصّص يطّلع على كتابي هذا أن يزوّدني بملاحظاته العلميّة والفنّية، وأنا له من الشاكرين.

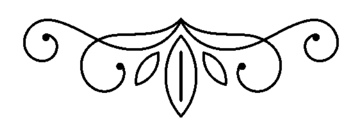
وأسأله سبحانه أن ينفع بهذا الكتاب كلّ حائر في أمره شاكٍّ في دينه، وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، إنّه سميع مجيب، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على نبيّه محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

في ١٧ رجب ١٤٣٨هـ

علي آل محسن

إثارات حول

وجود الله سبحانه



من هو الله؟

السؤال (١): من هو الله؟

الجواب: أنّ الله تعالى هو الواحد في ذاته، والمتّصف بصفات الكمال، والمُنزَّه عن صفات النقص، ومن صفاته إنّه خالق هذا الكون بكامله، لا خالق معه غيره.

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وبيان، فأقول:

١ - الواحد في ذاته:

أي أنّ الله سبحانه وتعالى واحد غير مركَّب من أجزاء، لا أجزاء ذهنية ولا أجزاء خارجية.

والمراد بالأجزاء الذهنية: الأجزاء الذاتيّة الداخلة في نفس الماهية.

مثال ذلك: عُرِّف الإنسان في علم المنطق بأنّه: حيوان ناطق، فالحيوانية تسمّى جنساً، والناطقية تسمّى فصلاً، وهما جزءا ماهية الإنسان وحقيقته، وحقيقة الإنسان ترتفع بارتفاع أحدهما أو كلاهما، وهذان الجزآن ليس لهما وجود في الخارج، ووجودهما إنّما هو في الذهن فقط.

والله سبحانه ليست له أجزاء ذهنية، كما أنّه سبحانه وتعالى ليست له أجزاء خارجية كالوجه واليد والساق وغيرها، فهو سبحانه وتعالى واحد بسيط (أي غير مركَّب) في ذاته.

والدليل على أنّ الله تعالى ليست له أجزاء ذهنية هو: أنّ الأجزاء الذهنية إمّا أن تكون جنساً أو فصلاً، والجنس: هو ما تندرج تحته أفراد مختلفة الحقائق، مثل: (الحيوان) الذي هو جنس للإنسان، حيث تندرج تحته الأنواع المختلفة

الحقائق كالأسد والفرس والفيل وغيرها.

والله سبحانه وتعالى ليس له جنس يندرج تحته هو وغيره مما يختلف معه في نوعه، ويشترك معه في جنسه.

وأمّا الفصل فهو جزء الذات الذي يميّز الذات عن غيرها من الأنواع المشتركة معها في الجنس، مثل: (الناطق) الذي هو فصل للإنسان، وهو جزء من حقيقة الإنسان يميِّز الإنسان عن غيره من الأنواع المندرجة معه تحت الحيوان.

ولما ثبت أنّ الله تعالى ليس له جنس يشترك فيه مع غيره، يثبت أنّه تعالى ليس له فصل يميّزه عن الأفراد الأخرى المندرجة معه تحت جنس معيّن.

وكما أنّ الله تعالى ليست له أجزاء ذهنية كذلك ليست له أجزاء خارجية، فهو ليس مركّباً من أعضاء كما يزعم المجسِّمة؛ لأنّه لو كان كذلك لكان محتاجاً إلى أجزائه، وجزء الشيء مغاير للشيء نفسه، كاليد التي هي جزء للإنسان، فإنّها مغايرة للإنسان نفسه، والمحتاج إلى جزئه محتاجٌ إلى غيره، والمحتاج إلى غيره لا يصلح للألوهية.

٢- المتّصف بصفات الكمال:

أي أنّه سبحانه وتعالى: حيٌّ، عالم، قادر، قديم لا أوّل له، وباقٍ لا نهاية له، وغيرها من الصفات التي ترجع إمّا إلى العلم أو إلى القدرة، مثل كونه تعالى مريداً، مُدرِكاً، مُتكلّماً، صادقاً.

أمّا أنّه عالم فلأنّه سبحانه فعل الأفعال المحكمة الواضحة في خلق السماوات والأرضين، وكلّ من فعل الأفعال المحكمة لا بدّ أن يكون عالماً؛ لاستحالة صدور الفعل المحكم المتقَن من غير العالم مرّة بعد مرّة.

وأمّا أنّه قادر فلأنّه سبحانه خلق هذا الكون كما سيأتي بيانه قريباً، فلا بدّ

أن يكون قادراً، ولو لم يكن قادراً لما تمكّن من خلق شيء.

وأمّا أنّه قديم لا بداية له، فلأنّه لو كانت له بداية لكان معدوماً، فأوجده موجِد، فيكون ممكناً مخلوقاً، وقد بيَّنّا أنه ليس بمخلوق، وإذا لم يكن مخلوقاً مسبوقاً بالعدم فهذا يدلّ على أنّه واجب الوجود؛ لأنّ الموجودات لا تخلو إمّا أن تكون ممكنة الوجود أو واجبة الوجود، فلمّا انتفى الأوّل ثبت الثاني، فيثبت أنّه تعالى باقٍ لا نهاية له؛ لأنّ واجب الوجود يستحيل عليه العدم.

وأمّا أنّه مُرِيد فلأنّه خلق هذا الكون، وأوجد كثيراً من مخلوقاته في وقت دون وقت، مثل إيجادنا في هذا العصر، دون العصور السابقة أو اللاحقة، كما أنّه تعالى أوجد بعض مخلوقاته بأوصاف دون أوصاف، فخلق هذا ذكراً، وخلق تلك أنثى، وخلق هذا إنساناً، وخلق ذاك أسداً أو فرساً أو غير ذلك، وحيث إنّ الأوقات متساوية بالنسبة إلى الفاعل - وهو الخالق - وبالنسبة إلى القابل - وهو المخلوق -، فوجودها في هذا الوقت أو بهذه الصِّفة لا بدّ له من مخصِّص جعلها توجد فيه وبهذه الصفة، ولا يوجد أيّ مخصِّص إلا الإرادة، فإنّه تعالى أراد إيجاد هذا المخلوق في هذا العصر وبهذه الصّفة، فأوجده كما أراد.

وأمّا أنّه تعالى مُدْرِك فلأنّ الإدراك يرجع إلى العلم، وإدراكه للمرئيات كالأشكال والألوان، والمسموعات، والمطعومات، والمشمومات، والملموسات وغيرها، معناه علمه بها، أي أنّه تعالى لا يرى بعين، ولا يسمع بأذن، ولا يُدرِك المشمومات بشامّة، وهكذا، وإدراكه لها يراد به علمه بها.

وأمّا أنّه سبحانه متكلِّم فلأنّه خالق، وصفة الكلام ترجع إلى صفة الخلق؛ لأنّ المراد بالكلام الحروف والألفاظ، وهي ليست قائمة بذاته، أو تخرج من فم كما هو حال المخلوقات؛ لأنّ الله تعالى منزّه عن ذلك، وإنّما يخلق الله سبحانه الكلام، ويجعله ينبعث من شيء، كما جعل سبحانه كلامه مع موسى عليه السلام ينبعث من شجرة.

وأمّا أنّه تعالى صادق، أي أنّه لا يُخبر بالكذب ولا يَعِدُ به، فلأنّ الله تعالى إذا جاز عليه أن يكذب فإنّه لا يحصل الوثوق بأنّه يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين، ويلزم من ذلك بطلان كلّ الشرايع والأديان السماوية، وهو باطل.

٣- المنزّه عن صفات النقص:

سواء كانت صفات النقص في ذاته أم في أفعاله.

أمّا في ذاته فالله تعالى ليس بجاهل؛ لأنّه عالم بكلّ شيء، ولا عاجز؛ لأنّه قادر على كلّ شيء، ولا محتاج إلى غيره؛ لأنّه لو احتاج إلى غيره لكان ممكناً، ولما كان صالحاً للألوهية.

وأمّا تنزّهه عن صفات النقص في أفعاله فلأنّه سبحانه لا يفعل القبيح، ولا يقصد فعله.

أمّا أنّه لا يفعل القبيح فلأنّ الداعي إلى فعل القبيح إمّا الجهل بقبحه، فلا يدري أنّه قبيح فيفعله، وهذا محال على الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه عالم بكلّ شيء.

وإمّا أنّه تعالى عالم بقبح القبيح ولكنّه مجبور على فعله، وعاجز عن تركه، وهذا باطل؛ لأنّه سبحانه على كلّ شيء قدير.

وإمّا أنّه تعالى عالم بقبحه وقادر على تركه، ولكنّه محتاج إلى فعله، وهذا محال على الله؛ لأنّ الاحتياج علامة الممكن، والله تعالى غنيٌّ عن العالمين.

وأمّا أنّه سبحانه لا يقصد فعل القبيح فلأنّ قصد فعل القبيحِ قبيحٌ، ونحن بيّنّا آنفاً أنّه تعالى لا يفعل القبيح.

٤- أنّ الله تعالى خالق هذا الكون:

فإنّ الكون مُحدَث مخلوق، أي أنّه لم يكن موجوداً ثمّ كان، وكلّ مخلوق خرج من العدم إلى الوجود لا بدّ له من خالق؛ لأنّه من غير المعقول أن يوجد هذا العالم الكبير المتقَن هكذا صدفة من غير موجِد.

ولو نظرنا إلى هذا الكون العظيم، وما اشتمل عليه من عجائب المخلوقات الكثيرة المتنوِّعة التي هي فوق حدّ الإحصاء، سواء كانت من الحيوانات المختلفة أو النباتات المتنوِّعة، أو الجبال الشاهقة، والوديان السحيقة، والبحار الواسعة، والبراري الجرداء المقفرة، والأجرام السماوية المنتظمة بصورة مذهلة، لحصل لنا القطع الجازم بأنّها من المستحيل أن توجد هكذا صدفة من غير موجِد قادر عالم حكيم مدبِّر، وهو الله تعالى.

وبتعبير آخر أقول: إنّ وجود الأثر دليل عقلي على وجود المؤثِّر، وبالتالي فوجود هذا الكون المذهل دليل على أنّ وراءه خالق عظيم، ولهذا لما سُئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن الدليل على وجود الخالق، قال: البَعْرة تدلّ على البعير، والرَّوْثة تدلّ على الحمير، وآثار القَدَم تدلّ على المسير، فهيكل عُلْويّ بهذه اللطافة، ومركز سُفْلي بهذه الكثافة، كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!(١).

وسأل رجلٌ الإمامَ علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الدليل على الله، فقال عليه السلام: إني لما نظرتُ جسدي، فلم يمكنّي زيادة ولا نقصان في العَرْض، والطُّول، ودفع المكاره عنه، وجرّ المنفعة إليه(٢)، علمتُ أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررتُ به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمتُ أنّ لهذا مُقدِّراً ومُنْشِئاً(٣).

---

(١) بحار الأنوار ٣/ ٥٥.

(٢) المراد بالمكاره التي لا يمكن دفعها ما لا يقدر الإنسان على دفعه من الأمراض والشيخوخة والموت ونحو ذلك، والمراد بالمنفعة التي لا يمكن جرّها دوام الصحة والشباب الدائم، وبقاء الحياة وما شاكل ذلك.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/ ١٢٠.

٥- الذي لا خالق معه غيره:

فإنّ الباحث المتأمِّل في هذا الكون بعد أن قطع بأنّ الكون لم يوجد صدفة، وإنّما له خالق موجِد، وهو الله تعالى، يجزم بأنّه لا خالق مع الله سواه، ويدلّ على ذلك أمور:

١- عدم وجود الأثر: فإنّه لو كان هناك خالق آخر لرأينا آثاره الدالّة عليه، وحيث إنّا لم نجد له أيّ أثر فهذا دليل على عدمه، وهذا هو استدلال أمير المؤمنين عليه السلام، حيث قال في وصيّته لابنه الإمام الحسن الزكي عليه السلام: واعلم يا بُنيّ أنّه لو كان لربّك شريك لأتتْك رُسُله، ولرأيت آثار مُلْكه وسلطانه، ولعرفتَ أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً ولم يزل[1].

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه:

يمكن أن يُستدلّ بهذا الكلام على نفي [الإله] الثاني من وجهين:

أحدهما: أنّه لو كان في الوجود ثانٍ للبارئ تعالى لما كان القول بالوحدانية حقًّا، بل كان الحقّ هو القول بالتثنية، ومحال ألّا يكون ذلك الثاني حكيماً، ولو كان الحقّ هو إثبات ثانٍ حكيم لوجب أن يبعث رسولاً يدعو المكلّفين إلى التثنية؛ لأنّ الأنبياء كلّهم دعوا إلى التوحيد، لكنّ التوحيد على هذا الفرض ضلال، فيجب على الثاني الحكيم أن يبعث من ينبّه المكلّفين على ذلك الضلال، ويرشدهم إلى الحقّ، وهو إثبات الثاني، وإلا كان منسوباً في إهمال ذلك إلى السفه واستفساد المكلّفين، وذلك لا يجوز، ولكنّا ما أتانا رسول يدعو إلى إثبات ثانٍ في الإلهية، فبطل كون القول بالتوحيد ضلالاً، وإذا لم يكن ضلالاً كان حقًّا، فنقيضه - وهو القول بإثبات الثاني - باطل.

---

(١) نهج البلاغة: ٤٢١.

الوجه الثاني: أنّه لو كان في الوجود ثانٍ للقديم تعالى لوجب أن يكون لنا طريق إلى إثباته، إمّا من مجرّد أفعاله، أو من صفات أفعاله، أو من صفات نفسه، أو لا من هذا ولا من هذا، فمن التوقيف[١].

وهذه هي الأقسام التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن قوله: «أتتك رسله» هو التوقيف، وقوله: «ولرأيت آثار ملكه وسلطانه» هي صفات أفعاله، وقوله: «ولعرفت أفعاله وصفاته» هما القسمان الآخران.

أمّا إثبات الثاني من مجرّد الفعل فباطل؛ لأنّ الفعل إنّما يدلّ على فاعل، ولا يدلّ على التعدّد، وأمّا صفات أفعاله وهي كون أفعاله محكمة متقنة، فإنّ الإحكام الذي نشاهده إنّما يدلّ على عالِم، ولا يدلّ على التعدّد، وأمّا صفات ذات البارئ فالعِلْم بها فرع على العِلْم بذاته، فلو أثبتنا ذاته بها لزم الدور.

وأمّا التوقيف فلم يأتنا رسول ذو معجزة صحيحة يدعونا إلى الثاني، وإذا بطلت الأقسام كلّها، وقد ثبت أنّ ما لا طريق إلى إثباته لا يجوز إثباته، بطل القول بإثبات الثاني[٢].

٢- وحدة المخلوق تدلّ على وحدة الخالق: فإنّ كلّ ما في الكون، من المجرّة العظمى إلى الذّرّة الصغرى كلّها مخلوقة بنفس النظام، فهي تتكوّن من أجزاء، والأجزاء تتكوّن من جزيئات، والجزيئات تتكوّن من ذرّات، والذّرّات تتكوّن من نواة وبروتونات ونيوترونات، ولو كان للكون أكثر من خالق لرأيت ما خلقه كلّ إله مختلفاً عمّا خلقه الآخر.

قال الشاعر الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس:

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ   إِلَىٰ آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ

---

(١) التوقيف: هو النص من الشارع.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٦/ ٧٧.

عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيْكُ
عَلَىٰ قَبَضِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بَأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيْكُ[1]

وقال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَىٰ الإلَـ ... ـهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَللهِ فِيْ كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ ... وَفِيْ كُلِّ تَسْكِيْنَةٍ شَاهِدُ
وَفِيْ كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ[2]

٣- استقامة نظام الكون وعدم فساده: وهذا دليل على أنّ للكون خالقاً واحداً فقط، ولو كان له أكثر من خالق لاختلّ نظامه، وهذا هو استدلال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه حيث قال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وفي رواية رواها الشيخ الكليني قدس سره أنّ الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال لواحد من الزنادقة: وإن قلت: «إنّهما اثنان» لم يخلُ من أن يكونا متّفقين من كلّ جهة، أو مفترقين من كلّ جهة، فلمّا رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلَّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبِّر واحد[3].

وهناك أدلّة أخرى مذكورة في كتب العقائد، من أرادها فليراجعها.

---

(١) لم أجد هذه الأبيات في ديوانه المطبوع، وهي مذكورة في كتب أخرى منسوبة إليه، مثل تفسير القرآن العظيم ١/ ٥٩ وغيره.

(٢) ديوان أبي العتاهية: ١٢٢.

(٣) الكافي ١/ ٨١.

وهذه الجولة السريعة إنّما تعطي تعريفاً لله تعالى بنحو إجمالي مختصر، وفي كلّ ما ذكرناه مباحث موسَّعة، من أرادها فليطلبها من الكتب المعدّة لذلك، مثل: كتاب (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) للعلّامة الحلّي: الحسن بن يوسف بن المطهَّر الحلّي، وكتاب (شرح الباب الحادي عشر) للمقداد السيوري، وكتاب (عقائد الإمامية) للشيخ محمد رضا المظفر قدَّس الله أسرارهم.

كيف وُجد اللّه؟

السؤال (٢): في البداية كيف وُجد الله؟ وماذا كان يفعل قبل أن يَخلق هذا الكون؟

والجواب: أنّ الله تعالى هو خالق الوجود، ومفيض الوجود والحياة على كلّ الموجودات والأحياء في هذا الكون، وهو سبحانه لم يكن معدوماً ثمّ وُجد حتى يمكن أن يقال: كيف وُجد؟ أو مَنْ أوجده؟ أو متى وُجد؟ أو أين وجد؟ أو نحو ذلك، وإنّما هو أزلي الوجود، لم يُسبق بعدم، ولم يُفِض أحدٌ عليه الوجود.

وكثير من الناس الذين يتساءلون عن وجود الله كيف حصل؟ يفترضون أوّلاً بهذا السؤال أنّه سبحانه كان معدوماً، ثمّ صار موجوداً بسببٍ ما، وهذا خطأ واضح، ناشئ من أنّ أذهان الناس عادة ما تكون مأنوسة فقط بما يرونه حولهم من المخلوقات المسبوقة بالعدم، ولهذا فإنّهم يتصوّرون أنّ كلّ ما في الوجود أيضاً مسبوق بالعدم، ويطبِّقون ذلك على الله سبحانه وتعالى، والحال أنّه قد ثبت بالدليل أنّ الله تعالى ليس مسبوقاً بالعدم، ولو كان مسبوقاً بالعدم ثمّ وُجد، لكان له خالق موجد له، فننقل الكلام إلى هذا الخالق الآخر الذي نفترض فيه أيضاً أنّه كان معدوماً فوُجد، فنبحث له عن الموجِد الذي أوجده، فإذا عثرنا على موجِد له ننقل الكلام إلى هذا الموجد الثاني، الذي نفترض فيه أيضاً ما افترضناه في الموجد الأوّل، وهو أنّه كان معدوماً فوُجد، وهذا يستلزم أيضاً أن يكون له موجد ثالث، وهكذا يتسلسل إلى ما لا نهاية، فلا بدّ أن تنتهي هذه السلسلة إلى موجِد غير مسبوق بالعدم، لم يخلقه غيره، أوجد جميع أفراد سلسلة الخلائق، وهذا الموجِد هو الله تعالى الذي خلق جميع المخلوقات بعده،

وهذا دليل واضح يدلّ على أنّ الله تعالى هو خالق جميع ما عداه ومن عداه، ويُعرف هذا الدليل في كتب العقائد بدليل بطلان التسلسل.

ولعلّ بعضهم يسأل أيضاً، فيقول: لماذا كان الله تعالى غير مسبوق بالعدم، ولا يحتاج إلى موجد، وهو ما يوصف في اصطلاح المتكلّمين بأنّه واجب الوجود، بينما نجد أنّ باقي الموجودات كلّها مسبوقة بالعدم، وتحتاج إلى موجد يوجدها، وهي التي تسمّى بممكنة الوجود؟

والجواب: أنّ عدم السبق بالعدم - وهو وجوب الوجود - أمر ذاتي لله تعالى، كما أنّ السبق بالعدم أمر ذاتي لممكن الوجود كالإنسان، والذاتي لا يُعلَّل كما يقول الفلاسفة، أي لا يُبحَث عن علّته.

ولتوضيح ذلك نقول: إنّ الفرق بين الذاتي والعَرَضي، هو أنّ الذاتي أمر مقوِّم للذات، لا ينفكّ عنها، وترتفع الذات بارتفاعه، كالحيوانية بالنسبة إلى الإنسان، فإنّها جنس قريب[1]، وهي أمر ذاتي، لا تنفكّ عن الإنسان، فإنّه يستحيل وجود إنسان لا يكون حيواناً (أي جسماً نامياً حسّاساً متحرِّكاً بالإرادة).

وأمّا العَرَضي فهو الذي لا ترتفع الذات بارتفاعه، فتبقى الذات حتى مع زوال ذلك العرضي، مثل بياض الثوب، فإنّه عرضيٌّ بالنسبة إلى الثوب، والثوب يبقى ثوباً حتى مع صبغه بلون آخر كالأسود، وزوال لونه الأبيض.

نعم، صفة البياض بالنسبة إلى الأبيض أمر ذاتي، فلو زالت صفة البياض

---

(١) **الجنس**: هو الحقيقة المشتركة بين أفراد مختلفة الحقائق، مثل الحيوان، فإنّه جنس للإنسان والأسد والفيل والحصان وغيرها، وكل واحد من هذه الحيوانات يسمّى نوعاً. وجنس الحيوان هو الجسم النامي، فإنّه مشترك بين: الحيوان والنبات، وجنس الجسم النامي هو الجسم، فإنه مشترك بين النامي وغير النامي، والحيوان جنس قريب للإنسان، وأبعد منه الجنس الذي فوق الحيوان، وهو الجسم النامي، وأبعد منه الجسم، وهكذا.

فإنّ الأبيض لا شكّ في أنّه يرتفع.

إذا عُلم ذلك نقول: إنّ الذاتي أمر لا يمكن تعليله، فلا يصحّ أن نقول: ما هي العلّة التي جعلت التفاحة نباتاً؟ لأنّ هذا السؤال يفترض أنّ التفاحة وُجدت تفاحةً أوّلاً من دون أن تكون نباتاً (أي جسماً نامياً حسّاساً غير متحرِّك بالإرادة)، ثمّ تحوّلت بعد ذلك إلى تفاحة هي نبات، فنبحث عن العلّة التي صيَّرت هذه التفاحة نباتاً بعد أن لم تكن كذلك، وهذا خطأ بيِّن؛ لأنّ كونها تفاحة يعني أنّها مكوَّنة من النباتية والتفاحية، فلا تتحقّق التفاحية من دون تحقّق النباتية، ولا تنفكّ التفاحية عن النباتية بنحوٍ من الأنحاء.

وهكذا الحال بالنسبة إلى وجوب الوجود، وإمكان الوجود، وامتناع الوجود، فإنّها أمور ذاتية للأشياء غير قابلة للتعليل؛ فإنّ وجوب الوجود صفة مقوّمة لواجب الوجود، فلا يمكن ارتفاع هذه الصفة وبقاء واجب الوجود موصوفاً بهذه الصفة من دونها؛ لأنّ ذلك يستلزم بقاء الصفة وارتفاعها في آنٍ واحد، وهو باطل جزماً.

ولإيضاح ذلك نمثّل بمثال قريب إلى الأذهان، وهو ممتنع الوجود، كاجتماع النقيضين، مثل السواد وعدم السواد، فإنّهما لا يجتمعان في شيء واحد بأيّ نحو، فاجتماع النقيضين ممتنع وجوده في الخارج، فلا يمكن أن يكون الثوب أسود ولا أسود في نفس الوقت.

ولو سألَنا سائل: ما هي العلّة التي جعلت السواد وعدم السواد لا يجتمعان في شيء واحد؟ لقلنا له: إنّ ذلك أمر ذاتي للنقيضين غير قابل للتعليل، وأكثر ما يمكن قوله هو شرح ذلك بأن نقول: هذا الثوب ليس فيه قابلية لأَنْ يتّصف بالسواد وعدم السواد في نفس الوقت، وهذا هو معنى ممتنع الوجود، لا أنّه بيان علّة كونه ممتنع الوجود.

وهكذ الحال في واجب الوجود، فإنّه غير قابل للعدم في أيّ وقت من

الأوقات، وهذا أمر ذاتي له، لا يمكن تعليله بشيء.

وأمّا جواب قوله: ماذا كان الله تعالى يفعل قبل خلق الكون؟ فهو أنّ هذا أمر لا نعلمه، ولا نقول في شيء كلاماً بغير علم؛ لأنّ هذا سؤال حول ما حدث قبل خلقنا، أي في الفترة التي لا وجود فيها للإنسان، فإنّ العلم بذلك لا بدّ أن يكون عن طريق الله تعالى، ولا طريق لنا إلى معرفة ذلك إلا من خلال أنبياء الله عليهم السلام، مع أنّه أمر لا يهمّنا في شيء، ولا يتوقّف عليه إثبات الخالق أو نفيه، ولا يترتّب عليه شيء آخر مهمّ في الشريعة أو في الحياة التي نحياها الآن.

الفرق بين وجود الخالق ووجود المخلوق

السؤال (٣): هل يوجد وجودان: وجود الخالق ووجود المخلوق؟ ألا يُعَدُّ ذلك شِرْكاً؟

والجواب: أنّ الخالق سبحانه وتعالى له وجود خاصّ به منسوب إليه، والمخلوق أيضاً له وجود آخر خاصّ به منسوب إليه، ولهذا صار هذا خالقاً وذاك مخلوقاً، ووجودهما ليس وجوداً واحداً، وإنّما هما وجودان مختلفان، كلّ وجود منهما له صفاته الخاصّة به، التي لا يشاركه فيها الوجود الآخر.

ومن الفروق الواضحة بين صفات وجود الله تعالى وصفات وجود المخلوق عدّة أمور:

١ - أنّ وجود الله تعالى واجب، وأمّا وجود المخلوق فهو ممكن.

بمعنى أنّ وجود الخالق غير مسبوق بالعدم، وغير ملحوق به، أي أنّه سبحانه يستحيل عليه العدم سابقاً ولاحقاً، وأمّا وجود المخلوق فهو مسبوق بالعدم، وملحوق به.

٢ - أنّ وجود الله تعالى ذاتي، وأمّا وجود المخلوق فهو غيري.

بمعنى أنّ وجود المخلوق قد أفاضه عليه الخالق، ولولا الخالق سبحانه لما وُجد المخلوق، وأمّا الخالق فلم يُفض عليه أحدٌ وجوده، بل هو موجود بذاته سبحانه.

٣- أنّ المخلوق يحتاج إلى سبب يجعل وجوده مستمرًّا؛ لكي لا يفنى من جديد، وليكون وجوده مستمرًّا، فكما أنّ وجوده لم يحصل إلا بسبب أفاض عليه الوجود، فإنّ استمرار وجوده لا بدّ له من سبب أيضاً.

وأمّا واجب الوجود فكما أنّه لا يحتاج في ابتداء وجوده إلى سبب، فإنّه لا يحتاج في استمرار وجوده إلى سبب أيضاً.

٤- أنّ واجب الوجود يستحيل عليه أن يكون مركَّباً من أجزاء؛ لأنّه لو كان مركَّباً من أجزاء لكان مفتقراً إلى أجزائه، وكلّ مفتقِر ممكنٌ كما مرّ، وأمّا من كان وجوده غيريًّا، وقد أفيض عليه الوجود من الغير، فإنّه لا محذور في أن يكون مركَّباً؛ لأنّ الحاجة والافتقار من صفاته الملازمة له.

٥- أنّ واجب الوجود لا يكون جزءاً من غيره؛ لأنّه لو كان جزءاً من غيره لكان محتاجاً إلى ذلك الغير، والاحتياج كما قلنا علامة الممكن المخلوق، وأمّا الذي وجوده غيري فلا يمتنع أن يكون جزءاً من غيره؛ لما ذكرناه فيما تقدّم.

٦- أنّ واجب الوجود تكون صفاته عين ذاته؛ لأنّها لو كانت مغايرة لذاته، لكان واجب الوجود مركَّباً من ذات وصفات، وتركّبه من ذات وصفات يستلزم افتقار الذات إلى الصفات وحاجتها إليها، والافتقار والحاجة علامة الممكن، كما أنّ ذلك يستلزم أيضاً تعدّد القدماء؛ لكون الذات قديمة والصفات كذلك، وكلّ ما يُتصوَّر من صفاته سبحانه إنّما هي لحاظات يلحظها الإنسان، لا أنّها صفات زائدة على الذات أو مغايرة لها.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: أوّل الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قَرَنَه، ومن قَرَنَه فقد ثَنَّاه، ومن ثَنَّاه فقد جَزَّأه، ومن جَزَّأه فقد جهله، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقد حدَّه، ومن حدَّه فقد عدَّه...[1].

---

(١) نهج البلاغة: ٤١.

وأمّا صفات المخلوق الذي وجوده عرضي فهي مغايرة لذاته؛ لأنّه لا يمتنع عليه التركيب المستلزم للحاجة والافتقار.

فإذا اتّضح أنّ وجود الخالق يختلف عن وجود المخلوق اختلافاً كبيراً جدًّا، فإنّ تشابه الخالق والمخلوق حينئذ في أصل الوجود، وفي وصف كلّ منهما بأنّه موجود، لا يستلزم التسوية بينهما في شيء؛ والمشتركات اللفظية بين الخالق والمخلوق موجودة، حيث يصحّ وصف كلٍّ من الخالق والمخلوق بأنّه حيٌّ، قادر، عالم، سميع، بصير، ونحو ذلك، لكنّها مشتركات في الوصف اللفظي دون حقيقة الصفة.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أنّ الله تعالى وصف نبيّه الكريم بصفات منها أنّه رؤوف رحيم بالمؤمنين، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

مع أنّ هاتين الصفتين من صفات الله تعالى أيضاً، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وهاتان الصفتان وإن تشابهتا في اللفظ، إلا أنّ الفرق بين صفتي الله تعالى، وصفتي النبي ﷺ كالفرق بين الخالق والمخلوق؛ فإنّ صفتي الله تعالى مطلقتان غير محدودتين بحدّ، وأمّا صفتي النبي ﷺ فليستا كذلك.

مضافاً إلى أن صفتي الله تعالى ذاتيتان غير مكتسبتين من غيره سبحانه، وأمّا صفتي النبي ﷺ فهما مكتسبتان من الله تعالى.

وهكذا الحال في باقي الصفات التي يتّصف بها الخالق تبارك وتعالى، فإنّها تختلف عن الصفات التي يتّصف بها المخلوق اختلافاً كبيراً جدًّا، سواء كان

ذلك المخلوق نبيًّا أم غير نبي، فلا وجه للمقايسة بينها.

والاشتراك بين هذه الصفات وتلك في اللفظ بهذا النحو لا يضرّ، ولا يستلزم الشِّرْك؛ لأنّ الشِّرْك هو وصف المخلوق ببعض صفات الألوهية المختصّة بالله سبحانه، كالخالقية، وعلم الغيب بذاته، ووجوب الوجود، ونحو ذلك.

وكذا يُعَدّ من الشِّرك وصف المخلوق بصفة الرؤوف أو الرحيم أو غيرهما من الصفات المشتركة بين الخالق والمخلوق، مع قصد إثبات نفس صفات الخالق للمخلوق من غير فرق، أي أنّ الواصف كما أنّه يصف الله تعالى بهذه الصفات قاصداً أنّها صفات غير مكتسبة وأنّها لا حدّ لها، فإنّه يصف المخلوق بتلك الصفات بنفس ذلك القصد، فلا شك في أنّ هذا شرك محرّم؛ لأنّه تسوية بين الخالق والمخلوق، ووصف المخلوق بصفات الخالق.

وأمّا وصف المخلوق بالرؤوف بمعنى كثير الرأفة والشفقة، وبالرحيم بمعنى كثير الرحمة، من دون أن يراد بهما الصفتان اللتان يوصف بهما الخالق سبحانه، وهما الرأفة والرحمة غير المحدودتين بحدّ، وغير المكتسبتين من الغير، فلا إشكال في ذلك بأيّ نحو من الأنحاء، ولا يستلزم أيّ محذور؛ لأنّه في الحقيقة اشتراك لفظي، لا اشتراك معنوي ولا مصداقي، فإنّ معناهما مختلف، والمصداق الخارجي لهما متفاوت.

إثارات حول

صفات اللّه سبحانه



هل خالق الكون هو: الله أو الطبيعة؟

السؤال (٤): لقد خلقتنا الطبيعة، فلماذا لا تؤمنون بأنّ كلًّا من الطبيعة والوجود أزلي؟ وإذا لم يكن الوجود أزليًّا فكيف يكون الله أزليًّا؟

والجواب:

١- أنّ زعم السائل أنّ الطبيعة هي التي خلقتنا دعوى مجرّدة عن الدليل، وتحتاج إلى إثبات بدليل علمي صحيح، ولا يوجد أيّ دليل يدلّ على ذلك، بل إنّ الدليل التامّ قد قام على أنّ الطبيعة مخلوقة وليست بخالقة، وأنّها حادثة وليست مُحدِثة، وأنّ وجودها ليس أزليًّا.

٢- أنّ الملاحدة يزعمون أنّ خالق هذا الكون هو الطبيعة، أي أنّ الطبيعة خلقت نفسها بنفسها، وأمّا أهل الإيمان فيقولون: «إنّ خالق هذا الكون هو الله سبحانه»، وبالبداهة نجد أنّ كلام أهل الإيمان أقرب إلى القبول من قول الملاحدة؛ لأنّهم يقولون: «إنّ شيئاً خلق شيئاً آخر»، وهذا أمر ممكن لا يتنافى مع العقل في شيء، وأمّا الملاحدة فيزعمون أنّ شيئاً خلق نفسه، وهو غير منطقي أصلاً، ولا يمكن قبوله بحال.

كما أنّ قول أهل الإيمان منطقي من ناحية أخرى، وهي أنّهم يقولون: «إنّ الخالق الذي نعتقد أنّه خالقٌ لهذا الكون قد أخبرنا بذلك بواسطة أنبيائه الذين ثبت عندنا بالأدلّة القطعيّة والمعجزات الكثيرة أنّهم أنبياء مُرسَلون من قِبَل الله تعالى».

وأمّا الملاحدة فلم تخبرهم الطبيعة بأنّها هي خالق الكون، وإنّما قالوا ذلك بحسب اجتهاداتهم التي ربّما تكون خاطئة، ولا سيّما إنّهم يقرّون بأنّ الطبيعة

عاجزة عن إخبارهم بكلمة واحدة، ومع ذلك يزعمون أنّ لديها القدرة على خلق هذا الكون العظيم!

وبإيضاح أكثر أقول: إنّ الملاحدة الذين يقولون: «إنّ الطبيعة هي خالق هذا الكون»، يُقرّون بأنّ هذه الطبيعة عاجزة عن أبسط الأشياء، وهو الكلام، ولهذا لم تخبر عن نفسها بأنّها هي الخالق.

وأمّا أهل الإيمان الذين يقولون: «إنّ خالق هذا الكون هو الله»، فلا يقولون بعجزه عن شيء، كلاماً كان أو غيره، ولهذا أخبر الناس بأنّه هو الخالق دون غيره.

٣- لكي نؤمن بأنّ الطبيعة هي التي خلقتنا لا بدّ أن تُحلّ عندنا إشكالات كثيرة حول هذه النظرية، فإنّه يحقّ لكلّ شخص أن يتساءل، فيقول:

السؤال الأول: ما هي هذه الطبيعة التي خلقتْنا؟ هل هي السماوات والنُّجوم والكواكب والجبال والسهول والأودية والأنهار، والأشجار والحيوانات؟ أم هي قوّة هائلة كامنة في الأرض، أو منتشرة في السماء؟ أم أنّها شيء آخر؟

لا بدّ أن نعرف حقيقة هذه الطبيعة لكي نحكم عليها بأنّها قادرة على الخلق أم لا.

وسواء كانت الطبيعة هي هذه السماوات والكواكب والنّجوم والجبال والأنهار والأشجار والحيوانات وغيرها، أم كانت قوّة هائلة كامنة في مكان ما، فإنّنا نتساءل: لماذا توقّفت هذه الطبيعة التي كانت خلّاقة مبدعة عن أن تخلق خلقاً جديداً، وأن تبدع مزيداً من الإبداع المستمرّ؟ فإنّه قد مضى آلاف السنين ولم يجد الإنسان أيّ مخلوقات جديدة تُخلق في الأرض أو في السماء.

فهل انطفأت هذه القوّة الهائلة وخبَتْ، أم لا تزال موجودة؟ وأين هي؟

فإن قلت: إنّ هذا الأمر ينطبق أيضاً على الله تعالى وتقدّس، فإنّا لا نجد مخلوقات جديدة تُخلق في الأرض أو في السماء، فهل فني الله تعالى بعد أن خلق الخلق، أو صار عاجزاً عن أيّ الخلق؟

قلنا: إنّ الله تعالى خالق مختار، ولعلّ حكمته قد اقتضت ألّا يخلق خلقاً جديداً في الأرض أو في السماء، وهذا بخلاف الطبيعة فإنّها موجبة أي لا اختيار لها، ولو سلّمنا بأنّها خلقت الكون فإنّ الخلق يصدر عنها بلا اختيار ولا تدبير، كصدور الحرارة عن النّار، وعدم خلقها شيئاً جديداً يكشف عن أنّها لم تكن هي خالق الكون، وإلّا لما توقّفت عن الخلق.

السؤال الثاني: كيف وُجدت هذه الطبيعة؟ هل وُجدت صدفة؟ أم أوجدها موجد؟

إن كان قد أوجدها موجد فمن هو؟ فإنّا لم نجد من أخبر أنّه قد أوجد هذا الكون إلا الله تعالى.

وإن كانت وُجدت صدفة، فهل يمكن لأتفه الأشياء أن تقع صدفة من دون فاعل حقيقي؟

لا شكّ في أنّ كلّ عاقل لا يصدِّق أنّ حبَّة تراب صغيرة قد تحرّكت من مكانها إلى مكان آخر من دون وجود ما يحرِّكها، فكيف يصدّق أنّ هذا الكون العظيم بنظامه الدقيق ومخلوقاته العجيبة كلّها وُجدت صدفة من دون موجد؟!

السؤال الثالث: كيف حصل للطبيعة كلّ هذه القدرة العظيمة على خلق كلّ شيء بدقّة وإبداع وإحكام ونظام متقن، مع أنّها طبيعة عمياء صمّاء بكماء، غير عاقلة، فاقدة للمشاعر والأحاسيس؟!

أي أنّ هذه الطبيعة كيف اكتسبت هذه القدرة؟ ومن أين؟ وكيف تمكّنت من الحصول عليها واكتسابها وهي طبيعة جامدة لا تدرك ولا تعقل؟!

السؤال الرابع: كيف تمكّنت هذه الطبيعة العمياء الصمّاء البكماء غير العاقلة من أن تخلق الإنسان السميع البصير المفكّر العاقل المبدع، وتخلق معه ملايين الكائنات الحيّة التي تسمع وتبصر وتدرك وتشعر، مع أنّه من البديهيات التي لا يختلف فيها العقلاء أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والطبيعة الفاقدة للبصر والسمع والعقل والإحساس، كيف تعطي السمع والبصر والإحساس والمشاعر لأكثر الحيوانات، وتعطي الإنسان مع ذلك: العقلَ المفكّر المبدع؟

السؤال الخامس: إذا كانت الطبيعة لها هذه القدرة الهائلة فلماذا تعجز مع كامل قدرتها عن أن تخبرنا بأنّها خلقت هذا الكون بكامله؟ ولماذا لا تستطيع أن تُكَذِّب ما يزعمه أكثر الخلق من أنّ خالق هذا الكون المتفرّد هو غيرها، وهو الله سبحانه وتعالى؟

كيف يمكن أن تكون قادرة على خلق هذا الكون العظيم بما فيه من عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وتعجز عن أبسط الأشياء، وهو بضع كلمات تبيِّن لنا بها أنّها هي التي خلقت هذا الكون دون غيرها؟!

إذا كانت عاجزة لهذه الدرجة فكيف نتعقّل أنّها كانت قادرة على خلق هذا الكون العظيم بنظامه الدقيق المتناهي في الدقّة؟!

٤- أنّ آخر النظريات العلمية التي استقرّت عليها آراء أعظم علماء الكونيات هي أنّ الكون ليس أزليًّا، وإنّما له بداية.

قال الدكتور عمرو شريف:

> قبل انصرام القرن العشرين أصبح علماء الكونيّات يمتلكون أربعة أدلّة قاطعة على أنّ للكون بداية، وأصبح ذلك المفهوم بمثابة الحقيقة العلمية البديهية[١].

(١) بداية الخلق: ٣٩.

إلى أن قال:

إنّ ولادة الكون بالانفجار العظيم نظرية وضعها الفلكيّون والفيزيائيّون الرياضيّون لتفسير نشأة الكون، وتُعَدّ الآن «نظرية عيارية راسخة - Established Referral theory» في الأوساط العلمية، إذ أيّدتها البراهين العلمية القوية، كما نجحت في الإجابة عمّا طُرح عليها من تساؤلات.

وترى النظرية أنّ الكون نشأ عن انفجار هائل حدث في نقطة لا متناهية في الصغر أُطلق عليها اسم «المُفْرَدة Singularity»، وسنعرض هنا (تبعاً لآخر ما توصّل إليه العلم في أوائل القرن الحادي والعشرين) التسلسل المدهش الذي سارت فيه الأحداث حتّى تمّ خلق الكون وحتّى وصل لصورته الحالية[(١)].

٥- أنّ الأدلّة الدالّة على أنّ خالق هذا الكون هو الله سبحانه كثيرة، والتوسّع فيها يخرجنا عن موضوع الكتاب، ولكنّا سنذكر بعضها.

منها: الاستدلال بآثار الله تعالى ومخلوقاته الدالّة عليه، وهو دليل يدركه الإنسان بفطرته السليمة، فإنّ وجود الآثار دليل على وجود المؤثِّر الموجِد لها، ولهذا لما سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن إثبات الصانع، قال: البَعْرَة تدلّ على البعير، والرَّوْثَة تدلّ على الحمير، وآثار القَدَم تدلّ على المسير، فهيكل عُلْويٌّ بهذه اللطافة، ومركز سُفْلي بهذه الكثافة، كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟[(٢)].

وجملة من الآيات القرآنية جاءت لتقرِّر هذه الحقيقة، وتبيِّن أن آثار الله سبحانه وتعالى هي من أوضح ما يمكن بها معرفته سبحانه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ

(١) نفس المصدر: ٤١.
(٢) بحار الأنوار ٣/ ٥٥.

ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وجاءت آيات أخر توبّخ المشركين، الجاحدين للخالق، المنكرين له سبحانه، مع وضوح الدلائل الدالّة عليه، فقال عزَّ شأنه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

وروى الشيخ الكليني ﷺ في كتاب (الكافي) أنّ زنديقاً اسمه الديصاني دخل على الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فقال له: يا جعفر بن محمد، دلّني على معبودي؟ فقال له أبو عبد الله عليه السلام: اجلس. وإذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ناولني يا غلام البيضة. فناوله إياها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: يا ديصاني، هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة، فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا يُدرىٰ للذَّكَر خُلِقَتْ أم للأنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطواويس، أترى لها مدبِّراً؟ قال: فأطرق مليًّا، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّك إمام وحجّة من الله على خلقه، وأنا تائب ممّا كنت فيه[1].

وسأل رجل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام عن الدليل على الله، فقال عليه السلام: إنّي لما نظرتُ جسدي، فلم يمكنّي زيادة ولا نقصان في العَرْض، والطول، ودفع المكاره عنه، وجرّ المنفعة إليه، علمتُ أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررتُ به، مع

(١) الكافي ١/ ٨٠.

ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس، والقمر، والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المتقنات، علمتُ أنّ لهذا مُقدِّراً ومُنْشِئاً[1].

وآياته سبحانه الدالّة على وجوده كثيرة جدًّا، بل كلّ شيء من مخلوقاته فيه من تمام الخلق ودقّة الصُّنع ما يدلّ على أنّ له خالقاً مبدعاً حكيماً.

بل إنّ ظهور وجود الله سبحانه وجلاءه أوضح من غيره، ولهذا قال الإمام الحسين عليه السلام في دعائه يوم عرفة: كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهِر لك؟! متى غبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟![2].

ومنها: ما استدل به الحكماء والمتكلّمون، وهو أنّا إذا قلنا: «إنّ لهذا الكون خالقاً، وهو الله سبحانه» فقد ثبت المطلوب، وإلا لزم التسلسل أو الدور، وكلاهما باطل.

وذلك لأنّ العالم من حولنا كلّه حادث مخلوق، بدليل أنّ ما نراه من الإنسان والحيوان والنبات وغيرها، كلّه لم يكن موجوداً ثمّ كان، وهذا دليل واضح على أنّه مخلوق، فإذا كان مخلوقاً فلا بدّ له من خالق، فلو فرضنا أنّ خالقه هو (أ)، وكان واجب الوجود الذي لم يُسبَق بالعدم، والذي تنتهي إليه سلسلة العِلَل، فقد ثبت المطلوب؛ لأنه يثبت حينئذ أنّ (أ) هو خالق الكون الذي لم يخلقه غيره.

وأمّا إذا كان (أ) حادثاً فلا بدّ له من مُحدِث آخر، ولنفترضه (ب)، فإن

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١/ ١٢٠.

(٢) إقبال الأعمال: ٦٦٠.

كان (ب) واجب الوجود فقد ثبت المطلوب، وإلا فلا بدّ له من مُحدِث ثالث وهو (ج) وهكذا يتسلسل، والتسلسل باطل؛ لأنّ سلسلة الموجودات لا بدّ أن تنتهي إلى علّة واجبة لذاتها تكون هي الطرف الأخير للسلسلة، تنتهي إليها آحاد تلك السلسلة.

أمّا إذا قلنا: إنّ (أ) كان موجوداً يوم السبت، وهو أوجد (ب) يوم الأحد، و(ب) أوجد (ج) يوم الإثنين، و(ج) أوجد (د) يوم الثلاثاء، و(د) أوجد (أ) يوم الأربعاء، فهذا دور باطل، لأنّه يستلزم وجود الشيء وانعدامه في آنٍ واحد، ففي يوم السبت كان (أ) موجوداً، ولذلك أوجد (ب)، وفي نفس الوقت هو معدوم؛ لأنّه لم يوجد إلا يوم الأربعاء لما أوجده (د)، وهذا باطل.

فإذن لا بدّ أن تنتهي المخلوقات والموجودات إلى علّة العلل، التي أوجدت كلّ ما عداها، وهي الله سبحانه وتعالى، فيثبت المطلوب.

وأمّا أنّ الله تعالى أزلي - أي أنّه غير مسبوق بالعدم - فلأنّه لم يخلقه غيره، ومن يدَّعي أنّ لله تعالى خالقاً فعليه الإثبات، وأمّا الطبيعة فمن الواضح أنّها ليست أزلية؛ لأنّها مسبوقة بالعدم، أي أنّها ما كانت موجودة ثمّ وُجدت، وكلّ مخلوق مسبوق بالعدم فهو غير أزلي، وإنّما هو مخلوق لغيره.

هل كان الله وحيداً قبل خلق الخلق؟

السؤال (٥): هل كان الله وحيداً قبل خلق الخلق؟

والجواب:

١- أنّ الله تعالى قبل أن يخلق الخلق لم يكن سواه في الوجود؛ لأنّه تعالى خالق جميع الموجودات، وكلُّ من عداه وما عداه مخلوق من مخلوقاته، ولو كان معه أحد لكان ذلك الموجود مساوياً له سبحانه في أنّه لا خالق له، ولكان واجب الوجود أيضاً، وهذا خلاف ما دلّ عليه الدليل، وقد ذكرنا الأدلّة على ذلك فيما تقدّم، فراجعها[١].

وقد ذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الاستدلال على نفي إله آخر مع الله تعالى أنّه لو كان معه إله غيره لأخبر ذلك الإله عن نفسه، ولرأينا آثار خلقه وملكه، ولجاءتنا رسله تخبر عنه، فقال:

واعلم يا بُنيّ أنّه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً، ولم يزل، أوّلٌ قبل الأشياء بلا أوّلية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية[٢].

٢- أنّ وحدة الله تعالى قبل خلق الخلق ليست نقصاً فيه، وإنّما هو كمال مطلق؛ لأنّها تدلّ على أنّه خالق جميع الخلق كما قلنا.

وأما الشعور بالوحدة الذي هو نوع من الألم النفساني فالله تعالى منزّه

---

(١) في صفحة: ١٤.

(٢) نهج البلاغة: ٤٢١.

عنه، فلا يحتاج لرفع هذا الإحساس باتّخاذ زوجة أو أبناء أو أصحاب أو غير ذلك، فإنه سبحانه لا يحتاج إلى شيء من ذلك كما قال سبحانه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

والله تعالى لم يخلق الخلق للحاجة إلى رفع هذا الشعور عنه، وإنّما خلقهم لكي ينفعهم، ولو كان سبحانه وتعالى قد خلقهم لكي ينتفع منهم لكان محتاجاً لهم، وإذا كان محتاجاً لغيره فإنّه لا يصلح للألوهية.

وإلى هذا وردت الإشارة في الحديث الذي رواه الديلمي في (إرشاد القلوب) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: قُلْ لعبادي لم أخلقكم لأربح عليكم، ولكن لتربحوا علي[1].

والله تعالى لم يأمر الناس بعبادته لحاجته إليهم أو لعبادتهم، فإنّه سبحانه غنيٌّ مطلق لا يحتاج إلى أحد من خلقه، والناس هم الفقراء المحتاجون إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

وأمّا ما يظهر من بعض آيات القرآن من أنّ الله تعالى خلق الناس ليعبدوه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالمراد بالآية أنّه سبحانه بيَّن أنّه خلقهم لينفعهم النفع العظيم الدائم المسبَّب عن العبادة، لا لينتفع منهم؛ لأنه سبحانه - كما قلنا - غنيّ عنهم وعن عبادتهم.

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧، ٥٨]، والرِّزق: عنوان عام شامل لجميع المنافع الماديّة والمعنويّة، والعبادة في نفسها من المنافع المعنوية،

(١) إرشاد القلوب: ١١٠.

ومنفعتها عائدة إلى الخلق لا إلى الخالق سبحانه.

ولتوضيح ذلك أقول: إنّ العبادة ليست هي الغاية الأساس للخلق؛ بل هي وسيلة لشيء آخر غيرها، وهو تعريض الخلق للنفع العظيم الدائم المقرون بالتبجيل والإكرام، والعبادة هي السبب المؤدّي للحصول على ذلك النفع، فهذا من باب ذكر السبب وهو العبادة، وإرادة المسبَّب وهو النفع العظيم الدائم.

والمراد بتعريض الخلق للنفع الدائم هو تعريضهم لأسبابه المؤدّية إليه، وهي عبادته سبحانه، التي بلّغها رُسُل الله إلى الناس، حيث بيّنوا لهم تكاليفهم العقدية، وتفاصيل العبادات والمعاملات، وحدودها وشرائطها، وكلّ ما يتعلّق بها.

قال الشيخ الطبرسي قدس سره في (مجمع البيان):

> إنّ الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلا بأداء العبادة، فصار كأنّه سبحانه خلقهم للعبادة. ثمّ إنّه إذا لم يعبده قوم لم يبطل الغرض، ويكون كمن هيّأ طعاماً لقوم، ودعاهم ليأكلوه، فحضروا ولم يأكله بعضهم، فإنّه لا يُنسب إلى السفه، ويصحّ غرضه، فإنّ الأكل موقوف على اختيار الغير، وكذلك المسألة، فإنّ الله إذا أزاح علل المكلّفين من القدرة والآلة والألطاف، وأمرهم بعبادته، فمن خالف فقد أُتي من قبل نفسه، لا من قبله سبحانه[1].

ولعلّ بعضهم يقول: إنّه إذا كان الغرض الأساس من خلق الخلق هو نفعهم بالنفع العظيم الدائم المقرون بالتعظيم، فإنّه لا حاجة حينئذ لأن يأمرهم بالعبادة، أو يمتحنهم، ويكلّفهم بالتكاليف الشاقّة عليهم، حتى إذا فشلوا عذّبهم.

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٦١.

والجواب: أنّ خلق هذا الكون العظيم، وبعث الأنبياء والرسل والحجج عليهم السلام لا يحسن من أجل نفع قليل مؤقّت مشوب بالأكدار والآلام والأحزان، وإنّما يحسن من أجل نفع دائم عظيم مقرون بالإجلال والتعظيم، والإجلال والتعظيم لا يَحْسُنان إلا لمن يستحقّ، ولهذا فإنّ زيداً لو رأى رجلاً مجهولاً، فقام إليه وقدّم له غاية الاحترام والتبجيل، وعظَّمه أشدّ التعظيم، ثمّ بعد انصراف ذلك الرجل المجهول سأل الناس زيداً: من هذا الرجل الذي عظّمتَه بهذا النحو؟ فقال: لا أعرفه. فسألوه ثانية: لماذا عظّمته هذا التعظيم؟ قال: ليس هناك ما يدعوني إلى ذلك، وإنّما أردت أن أعظّمه هكذا. فلا شكّ أنّ الناس يستهجنون عمله، ويستقبحونه، ويذمّون زيداً على هذا الفعل، بل ربّما يسفّهون عقله.

وعليه، فإن الله تعالى لما أراد أن ينفع خلقه بالنفع الذي وصفناه، كلّفهم ليتبيّن من يستحقّ هذا الثواب المقرون بالتعظيم ممّن لا يستحقّ.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

ولمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع ما سيأتي تحت عنوان: لماذا خلق الله الخلق وهو لا يحتاج إليهم؟[(١)].

٣- أنّ بعضهم ربّما يتوهّم أنّ وحدة الله سبحانه وتعالى قبل خلق الخلق تستلزم كون وجوده في ذلك الوقت لا فائدة فيه، وهذا توهّم فاسد، ولدفعه وبيان فساده نقول:

إن كان مراد هذا المتوهّم هو أنّ الخلق لا يستفيدون من الله تعالى في ذلك الوقت، فهذا أمر بديهي وواضح؛ لأنّ الخلق في ذلك الوقت لا وجود لهم،

(١) في صفحة: ٩١.

فكيف تحصل لهم فائدة وهم في طور العدم؟!

وإن كان مراده هو أنّ الله تعالى لا يستفيد من وجوده شيئاً؛ لأنّه لا يعمل شيئاً، ولا أحد في الوجود غيره حتى يمكنه الاستفادة منه، فهو واضح البطلان؛ لأنّ المتوهّم قاس الخالق سبحانه على سائر المخلوقات الذين يحتاجون إلى غيرهم، وهذا قياس باطل؛ لأنّ الله تعالى غنيٌّ عن العالمين، لا يحتاج إلى الخلق في شيء، ولا يستفيد منهم بشيء، سواء خلق الخلق أم لم يخلقهم، فالأمران سيّان. بخلاف المخلوق الذي كلّه حاجة وافتقار إلى غيره، ولا يمكنه أن يستمرّ في البقاء من دون الانتفاع بغيره.

ثمّ إنّ فائدة الحياة عظيمة لكلّ حيّ، سواء كان ذلك الحيّ هو الله تعالى أم غيره، وهي فائدة كافية لوجوده سبحانه.

وربّما يتوهّم بعضهم أنّ انتفاع الله تعالى بحياته يعني انتفاعه بغيره؛ لأنّ حياة كلّ شيء مغايرة لذاته، وهو دليل الحاجة والافتقار الذي يتنافى مع الألوهية.

ولكن لا يخفى بطلان هذا التوهّم؛ لما بيّنّاه فيما تقدّم من أنّ صفات الله تعالى عين ذاته(١)، وانتفاعه بحياته مساوق لانتفاعه بذاته الذي لا محذور فيه، فلا يكون منتفعاً بغيره، وهو واضح.

أضف إلى ذلك أنّا لا نعلم شيئاً عن عالم ما قبل وجود الخلق، ولا نعلم شيئاً عن الأمور المرتبطة بالذات الإلهية في ذلك العالم كي نحكم بأنّ الله تعالى لا يَنتفع بوجوده المقدّس فيه.

---

(١) في صفحة: ٢٤.

الدليل المادي القطعي على ألوهية الله

السؤال (٦): لماذا لا يوجد أيّ دليل مادّيّ قاطع على ألوهيّة الله؟

الجواب: أنّ الإله: هو المستحقّ للعبادة، والألوهية: هي استحقاق العبادة.

وإنّما ينشأ استحقاق العبادة من إفاضة الحياة والقدرة والشهوة وعظائم النِّعَم.

والأدلّة المادّية القطعية التي دلَّت على أنّ الله تعالى هو خالق هذا الكون، وأنّه هو المستحقّ للعبادة كثيرة جدًّا، وعلماء المسلمين ذكروا إثباتات كثيرة على ألوهيّة الله تعالى في كتبهم الكلامية، ويجدر بالسائل أن يطّلع على ما كتبه المسلمون أوّلاً قبل أن يتسرّع فينكر وجود أدلّة على ألوهية الله تعالى.

ومن تلك الأدلّة:

١- **دليل دقّة الصُّنع:** فإنّنا إذا نظرنا إلى ما حولنا، رأينا هذه المخلوقات الكثيرة المتقنة، التي لو تأمّلنا فيها حقّ التأمّل لرأينا فيها من عجائب الصنع ودقّة الخلق ما يحيِّر العقول، وهي مع تمام إتقانها فإنّها كثيرة جدًّا ومتنوّعة، بل لا يمكن حصرها أو إحصاؤها.

وكلّ واحد من هذه المخلوقات متناسق الخلقة بنحو مدهش، سواء كان التناسق في أجزائها أم ألوانها أم أشكالها، ولو أردنا أن نُحْدِث فيها من التغيير ما يجعلها أجمل وأحسن ممّا هي عليه الآن، لما أمكننا ذلك، أي أنّه «ليس في الإمكان أبدع مما كان».

وفي الحديث أنّ زنديقاً سأل أبا الحسن الرضا عليه السلام، فقال: فما الدليل

عليه؟ [أي على الخالق سبحانه] فقال أبو الحسن عليه السلام: إنّي لما نظرتُ إلى جسدي، ولم يمكنّي فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول، ودفع المكاره عنه، وجرّ المنفعة إليه، علمتُ أنّ لهذا البنيان بانياً، فأقررت به، مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته، وإنشاء السحاب، وتصريف الرياح، ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المبيّنات، علمتُ أنّ لهذا مقدِّراً ومُنشئاً[1].

وفي حديث طويل رواه الشيخ الكليني قدس سره ورد فيه أنّ أبا عبد الله الصادق عليه السلام سأل زنديقاً اسمه عبد الكريم بن أبي العوجاء: أمصنوع أنت أو غير مصنوع؟ فقال ابن أبي العوجاء: بل أنا غير مصنوع. فقال له عليه السلام: فصف لي لو كنتَ مصنوعاً كيف كنتَ تكون؟ فبقي عبد الكريم مليًّا لا يحير جواباً[2].

إذن جميع هذه المخلوقات تدلّ على أنّ لها صانعاً حكيماً مبدعاً، قد أوجدها بعد أن لم تكن موجودة.

فإذا ثبت ذلك نقول: إنّ خالق هذا الكون هو الله سبحانه وتعالى دون غيره؛ لأنه أرسل رسلاً إلى الناس، يبلّغونهم بأنّه سبحانه هو خالقهم ورازقهم والمنعم عليهم، وأنّه هو خالق جميع السماوات والأرضين وما فيها ومن فيها.

ولو كان لهذا الكون خالق غير الله تعالى لرأينا له آثاراً تدلّ عليه، ولأخبرنا عن نفسه بأنّه هو الخالق دون غيره، فلما لم نرَ له أيّ أثر، ولم يأتِ من قِبَله رسول يخبر عنه بشيء، علمنا أنّه لا خالق إلا الله وحده.

وهذا هو استدلال أمير المؤمنين عليه السلام - وقد مرَّ سابقاً - حيث قال في وصيّته لابنه الإمام الحسن الزكي عليه السلام: واعلم يا بُنيّ أنّه لو كان لربّك شريك

---

(١) الكافي ١/ ٧٨.

(٢) نفس المصدر ١/ ٧٦.

لأتتْك رُسُله، ولرأيت آثار مُلْكه وسلطانه، ولعرفتَ أفعاله وصفاته، ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه، لا يضادّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً ولم يزل[1].

ولوضوح خالقية الله تعالى لهذا الكون جاءت آيات في القرآن الكريم توبِّخ المشركين الجاحدين للخالق، المنكرين له سبحانه، مع وضوح الدلائل الدالّة عليه، حيث قال عزَّ شأنه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأمّا من يزعم أنّ خالق هذا الكون هو الطبيعة أو الصدفة فإنّه لم يأتِ بأيّ دليل يدلّ على صحّة كلامه، وكلّ ما يُذكر في ذلك ما هو إلا أوهام واحتمالات وظنون لا تغني عن الحقّ شيئاً، وقد أشبعنا الكلام فيه فيما سبق، فراجع جواب السؤال الرابع تحت عنوان: هل خالق الكون: الله أو الطبيعة؟

وممّا ينبغي التنبيه عليه في هذا المقام هو أنّ الخلق من الأسرار الإلهية التي لا يمكن للإنسان أن يتوصّل إليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ولو كانت عملية الخلق ممكنة بالأسباب الطبيعية التي تيسَّرت للطبيعة العمياء لاستطاع الإنسان في هذا العصر أن يهيِّئ مثل تلك الأسباب، فيتمكّن من خلق كثير من الحيوانات والنباتات، ولكنّ الإنسان رغم قدراته الحالية في المجال العلمي والتقني، وقدرته على توفير ظروف طبيعية لتجاربه مشابهة للظروف التي حصلت قبل ملايين السنين، فإنّه لا يزال عاجزاً عن أن يخلق أبسط مخلوق من مخلوقات الله تعالى بنظره، كالنملة أو الذبابة أو البعوضة، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ

(١) نهج البلاغة: ٤٢١.

مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾[الحج: ٧٣].

كما أنّ هذا الإنسان بكامل قدراته العلمية والتكنولوجية لا يزال لحدّ الآن عاجزاً عن أن يعيد الحياة إلى النملة أو الذبابة الميتة، ولو كانت الروح قوّة أو طاقة يمكن توليدها أو تصنيعها بالأسباب الطبيعية التي تقع صدفة من غير تخطيط، لأمكن للإنسان أن يصنعها بتخطيط وتدبير، من دون حاجة للاعتماد على الصُّدَف أو الطفرات، فيكون من السهل عليه خلق الأرواح وإعادتها إلى الأجسام الميتة.

ولكنّ الإنسان اعترف بعجزه حيال ذلك، ولم يستطع تكذيب ما قاله الله عزَّ وجلّ من أنّه سبحانه هو خالق الموت والحياة، وأنّه هو الذي يحيي الموتى دون غيره، كما قال سبحانه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢]، وقال عزَّ اسمه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[الحج: ٦].

٢- دليل نظام الكون: فإنّ هذا الكون الذي نعيش فيه منظَّم بنظام دقيق غاية في الدقّة، لدرجة أنّ أيّ تغيير فيه مهما كان طفيفاً يجعله لا يستقيم، وكلّ خلل فيه يسبب مشكلة لا يمكن تلافيها، ويكفي أنّ الفصول الأربعة تسير على وفق نظام دقيق لا يتغيّر، وكذا الليل والنّهار، وحركات الأرض والنّجوم والكواكب وغيرها، وعلى هذا الأساس وضع الفلكيّون حساباتهم الدقيقة التي يعرفون بها حصول كثير من الظواهر الفلكية كالكسوف والخسوف، وهبوب الرياح، وسقوط الأمطار، وغير ذلك.

ومن الواضح جدًّا أنّ كلّ هذا النظام الدقيق لا يمكن أن يقع صدفة من دون خالق مبدع حكيم؛ لأنّا لو سلّمنا أنّ الطبيعة العمياء البكماء الجامدة أوجدت كوكباً واحداً منظّماً، فلا يمكن أن نسلّم أنّها أوجدت بالصدفة كلّ هذه المنظومة الكاملة المتشابكة من ملايين الكواكب والنّجوم التي تتحرّك بنظام

مذهل لا يتغيّر ولا يتبدّل، فإنّ مثل ذلك لا يمكن أن يقوله من يحترم عقله.

إذن لا بدّ من القول بأنّ هذا النظام الدقيق للكون وضعه مصمِّم مبدع ذكي، وهو الله سبحانه؛ لأنّ غيره لم يَدَّعِ ذلك، وما ادُّعي له ذلك - وهو الطبيعة والصدفة - لا يمكن أن يكون خالقاً كما أوضحنا.

٣- أنّ فاقد الشيء لا يعطيه: فإنّا إذا نظرنا إلى الإنسان مثلاً، فإنّنا نجده متّصفاً بصفات عديدة مهمّة، كالسمع والبصر، والشَّمّ، والتذوّق، والتفكير، والكلام، ونرى أنّه أيضاً يفيض بالمشاعر الرقيقة والأحاسيس الراقية، وغيرها من الصفات الكثيرة التي اتّصف بها هذا المخلوق العجيب.

فإذا قلنا: «إنّ خالقه هو الله تعالى المتّصف بالحياة والقدرة والإدراك وغيرها» كما هو الحقّ، فقد ثبت المطلوب؛ لأنّ الله تعالى إذا كان قد خلق الإنسان وخلق غيره من المخلوقات فهذا دليل على أنّه إله مستحقٌّ للألوهيّة.

وأمّا إذا قلنا: «إنّ خالق الإنسان هو الطبيعة» كما يقول بعض المنكرين لوجود الله، فإنّا لا نتعقّل أنّ الإنسان الذي هو بهذه الصفات العالية كيف يمكن للطبيعة العمياء الصمّاء الخرساء الجامدة التي لا تدرك شيئاً، ولا تفكّر، ولا تحسّ بشيء، أن تهب له جميع هذه الصفات التي لا تتّصف بها؟ فإنّ من البديهيات التي يدركها جميع العقلاء أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والطبيعة الصمّاء لا يمكن أن تهب مخلوقاتها هذه الصفات العالية التي عجزت هي نفسها عن اكتسابها لنفسها!!

ومن الواضح جدًّا أنّ اتّصاف أكثر الحيوانات - إن لم تكن كلّها - بالسمع والبصر والإحساس والشمّ والتذوّق دليل على أنّ خالقها يدرك المسموعات، والمبصَرات، والمشمومات، والمذوقات، والمحسوسات، وهو الله تعالى، دون الطبيعة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتذوّق ولا تشمّ، وليس فيها

شيء من الإدراك.

إذا تبيَّن كلّ ما قلناه يتّضح أنّ الله تعالى هو المتّصف بالألوهية، أي أنّه سبحانه هو المستحقّ للعبادة دون غيره، لأنّه هو خالق الناس المنعم عليهم بالنعم العظيمة الكثيرة، وكلّ ما عداه مخلوق ضعيف محتاج إلى غيره، يعرض عليه الموت والفناء والاضمحلال، فلا يكون صالحاً للألوهية ولا مستحقًّا لها.

إثبات كمال الله تعالى

السؤال (٧): يدَّعي المسلمون أنّ الله كامل، ولكنّه يأمرك بالفروض، مثل الصلاة والصوم والعبادة والطاعة والحمد والشكر، وهذا يناقض صفة الكمال. وادّعاء أنّ فائدة هذه الأشياء تعود لنا لا له خالٍ من المنطق، إذ أنّه لا يعطي سبباً مقنعاً لأن يعذّبك للأبد بسبب هذا، ولو كان الله كاملاً لما طلب منك صلاة أو أيّ فروض أخرى، بل سيطلب منك فقط أن تحبّ أخاك الإنسان، وتتعلّم أن تتعايش مع الآخرين بمودّة ورحمة وتسامح، لأنّ الإله الحقيقي الكامل لا يُنقصه من لا يؤمن به، ولا يأمرك بأشياء تخالف عقلك ومنطقك وفطرتك، وإن خالفتها يتوعّدك بالجحيم الأبدي، إنّ الإله الحقيقي لا يخلق البشر إلا لكي يسعدهم، ويراهم سعداء، لا لكي يهدّدهم ويتوعّدهم؟

والجواب: أنّ الله سبحانه وتعالى كامل وغنيٌّ مطلق بلا أدنى شكّ، ولِغِناه المطلق وعدم احتياجه لخلقه فإنّه لا ينفعه إيمان من آمن به، وطاعة من أطاعه، ولا يُنقصه كُفْر من كَفَر به، وتمرّد من جحده أو عصاه، قال سبحانه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[فاطر: ١٥-١٦].

والله سبحانه وتعالى أمر الناس بعبادته، ومن آثار عبادة الله أنّها تهذّب نفوسهم من مساوئ الأخلاق وقبيح الصفات، وتعزّز علاقتهم بالله سبحانه وتعالى، وتذكّرهم بأنّ الله تعالى مطّلع على أعمالهم، ورقيب على أفعالهم، ويعلم ما يُسِرّون وما يعلنون.

وقد أخبر الله سبحانه بأنّ من فوائد الصلاة مثلاً أنّها تنهى عن الفحشاء

والمنكر، فقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وبيّن أنّ من فوائد الصيام هي الوصول إلى درجة المتّقين، وهي فعل ما فيه مصلحة وترك ما فيه مفسدة، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وذكر أنّ من فوائد الزكاة أنّها مطهّرة للنفس ومنمية للمال، فقال: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام ذكرت في خطبة لها جملة من فوائد التشريعات الإلهية، فقالت:

فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشِّرْك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكِبْر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرِّزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدِّين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً للفُرقة، والجهاد عزًّا للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدّماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرّجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً بالعفّة، وحرَّم الله الشِّرْك إخلاصاً له بالربوبية، فاتّقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتُنّ إلا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه[1].

وجميع هذه الفوائد المذكورة لهذه التشريعات وغيرها تعود إلى العباد

---

(١) الاحتجاج ١/ ١٣٤. من لا يحضره الفقيه ٣/ ٥٦٨.

وحدهم، والله تعالى لا ينتفع بشيء منها؛ لأنّه غني مطلق، لا يحتاج لأحد من خلقه، وهذا واضح في الآيات السابقة، فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والنهيُ عن الفحشاء والتطهيرُ والتزكيةُ والتقوى كلّها فوائد عائدة إلى الخلق، وهكذا الحال في ما ذكرته السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام من التطهير من الشِّرْك، والتنزيه عن الكِبْر، والزيادة في الرّزق، وتسكين القلوب، ولَـمِّ الفُرقة، ومصلحة العامّة، والوقاية عن السخط، ومنماة العدد، وحقن الدماء، وغيرها، فإنّها كلّها منافع راجعة إلى الخلق، ولا يعود شيء منها إلى الله سبحانه.

وبهذا يتّضح فساد قول المستشكل: «ولو كان الله كاملاً لما طلب منك صلاة أو أيّ فروض أخرى».

وأما زعم المستشكل: أنّ الله تعالى لو كان كاملاً لما أمر الناس بالعبادات، معلّلاً ذلك بأنه سبحانه لم يُعطِ سبباً مقنعاً لأن يعذّبهم للأبد بسبب هذا...

فلا يخفى أنّ هذا خلط بين علّة تشريع العبادات التي تعود منفعتها للعباد وحدهم كما قلنا، وبين أسباب عذاب الله تعالى للذين يستحقّون العذاب.

أمّا علّة تشريع العبادات فقد بيّنّا أنّها عائدة إلى الخلق، وأمّا أسباب العذاب فليست منحصرة في ترك العبادات، بل إنّ أعظم أسباب العذاب هي ما يتعلّق بحقوق العباد أنفسهم، وأمّا حقوقه سبحانه فإنّه غالباً ما يعفو عن كثير منها، ولا شكّ أنّ من اعتدى على الناس، وظلمهم، أو قتلهم، وصادر حقوقهم، فإنّه يستحق العذاب الأليم، والله سبحانه وتعالى بيّن للنّاس ذلك في كتابه العزيز، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]، وقال

سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]، وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، وقال عزّ اسمه: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

والآيات التي تدلّ على أنّ الله تعالى يعذّب الظالمين المفسدين في الأرض كثيرة لا حاجة لاستقصائها.

ويحسن هنا أن نلفت النظر إلى أنّ من فوائد العبادات أنّها مشتملة على ذكر الله تعالى، وذكر الله تعالى من شأنه أن يمنع المؤمن بالله تعالى عن فعل المعاصي وارتكاب الذنوب، ولهذا قال سبحانه بعد أن بيّن أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾، أي أنّ أكبر شيء في النهي عن الفحشاء والمنكر هو ذِكْر العبد لربّه، وذكر أوامره ونواهيه، وما أعدّه الله له من الثواب والعقاب، فإنّه أعظم الأسباب الداعية إلى فعل الخيرات وترك القبائح.

والله جلَّ وعلا بيّن في آية أخرى أنّ المؤمنين الحقيقيين هم الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، فيقلعون عما همُّوا به من المعاصي والذنوب، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

ومما بيّنّاه يتّضح أنّ فائدة العبادات في الحقيقة ترجع إلى العبد نفسه، فإنّها تكفّه عن فعل المعاصي وارتكاب الذنوب، وهذه الفائدة لا تعود على الله بشيء.

وبإيضاح أكثر أقول: إنّ ترك العبادات عادة ما يؤدّي إلى إهدار حقوق الخلق، والتجاوز عليهم وظلمهم، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ

﴿ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فيه دلالة واضحة على ذلك، فإن خطورة ترك الصلاة مثلاً هي أنّ تركها يؤدّي عادةً إلى ارتكاب الفواحش والمنكرات، ولهذا عاقب الله تعالى على تركها، لا لأنّ العبد لم يعبد الله سبحانه، والله محتاج لعبادته، بل لأنّه ترك ما يُحصِّنه عن فعل الفواحش والمنكرات، التي تفسد المجتمع الإنساني، وتأخذ به إلى الهاوية، وهكذا الحال في بقية العبادات الأخرى.

وممّا قلناه يتبيّن فساد قول المستشكل: «ولا يأمرك بأشياء تخالف عقلك ومنطقك وفطرتك، وإن خالفتها يتوعّدك بالجحيم الأبدي»، فإنّ العبادات لا تخالف العقل والمنطق والفطرة في شيء، وسبب العذاب هو ما ذكرناه، وإلا فإنّ كثيراً من المسلمين يتركون العبادات ثمّ يتوبون إلى الله عن ذنوبهم، ويصلح حالهم، وربّما لا يستطيعون قضاء ما فاتهم من تلك العبادات بسبب مفاجأة الموت لهم، فيغفر الله لهم، ولا يعذّبهم.

ثمّ إنّ الإله الكامل بنظر المستشكل هو الإله الذي يطلب من عبده أن يحبّ أخاه الإنسان، ويتعلّم أن يتعايش مع الآخرين بمودّة ورحمة وتسامح، وعليه فإنّ كلامه يدلّ على أنّ الله تعالى إله كامل حتماً؛ لأنّه سبحانه أمر الإنسان بمحبّة أخيه الإنسان، والتعايش معه بمودّة ورحمة وتسامح.

أمّا أمره سبحانه بمودة الآخرين والتعايش معهم، فيدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

قال الشيخ الطوسي قدس سره:

يقول الله تعالى مخاطباً للمؤمنين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ﴾ مخالطة ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ من الكفّار ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وتُحسنوا إليهم، ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ معناه: تعدلوا إليهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

يعني الذين يعدلون في الخلق[١].

ثم قال:

والذي عليه الإجماع والمفسِّرون بأنّ بِرَّ الرجل من شاء من أهل دار الحرب، قرابةً كان أو غير قرابة ليس بمحرَّم، وإنّما الخلاف في إعطائهم الزكاة والفطرة والكفارات، فعندنا لا يجوز، وفيه خلاف[٢].

والله تعالى كما أمر الناس بالعبادات المختلفة، فإنّه أمرهم أيضاً بمحاسن الأخلاق وجميل الصفات، وآيات القرآن الدالّة على ذلك كثيرة.

منها: قوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٢].

ومنها: قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٠ - ٩١].

والآيات كثيرة في ذلك، فمن أرادها فليراجعها في كتاب الله العزيز.

وأمّا قول المستشكل: إنّ الإله الحقيقي لا يخلق البشر إلا لكي يُسعدهم، ويراهم سعداء، لا لكي يهدّدهم ويتوعّدهم.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٥٨٢.

(٢) نفس المصدر ٩/ ٥٨٣.

فجوابه: أنّ الله تعالى خلق النّاس لكي يسعدهم في الدنيا والآخرة، ولهذا بعث لهم أنبياء، وسنّ لهم القوانين التي تنظم علاقاتهم مع بعضهم بعضاً، وبيَّن لهم ما لهم وما عليهم، حتى لا يجور بعضهم على بعض، ولا يأخذ بعضهم حقّ بعض.

والله سبحانه إنّما تهدّد العصاة وتوعّد الظالمين، أو من تسوّل له نفسه ارتكاب الجرائم والاعتداء على الضعفاء من الخلق، كي يمنع وقوع المعاصي والظلم والجرائم والاعتداءات، أو يحدّ من وقوعها، وجميع القوانين التي وضعها البشر تبيّن مقدار العقوبات حين المخالفة، ولولا معاقبة المسيئين والمجرمين لما صارت الحياة على الأرض ممكنة، فإنّ الناس إذا أمنوا العقوبة سيتجاوزون حدودهم، فيقتل بعضهم بعضاً، ويأكل القويّ منهم الضعيف، وهكذا الحال بالنسبة إلى القانون الإلهي، فإنّ معرفة الناس بأنّ المسيء سيُعاقَب تجعلهم يرعوون عن فعل المعاصي وعن ظلم بعضهم بعضاً.

وسيأتي مزيد بيان في جواب السؤال (١٤) وما بعده عند كلامنا في الفائدة من خلق الخلق، والسبب في خلق الكفّار والمذنبين، فانتظر.

اللّه تعالى ليس بجسم

السؤال (٨): كيف يمكن أن نستدلّ بالعقل على أنّ الله لا يقبل التجسيم؟ مع أنّ بعض المسلمين يؤمنون بأنّ الله جسم، وأيضاً الهندوس يؤمنون بربّ قاهر متمثّل في جسم مكوّن من ثلاثة أوجه، وعقيدة المسيحيّين في التثليث تستلزم التجسيم.

والجواب: أنّ الجسم هو كلّ ما يشغل حيِّزاً من الفراغ، وله أبعاد ثلاثة: طُول وعَرْض وارتفاع.

والشيعة الإمامية، وطوائف أخرى من الشيعة، وبعض مذاهب أهل السُّنّة، والمعتزلة ذهبوا إلى أنّ الله تعالى ليس بجسم، وفي قبال ذلك ذهب داود الظاهري ومحمد بن كرّام والسلفيّة إلى أنّ الله جسم؛ ولهذا وصفوه بأنّ له أعضاء وجوارح، كاليدين والقدمين، والوجه، والأصابع، وغيرها، وقالوا: إنّه يصعد، وينزل، ويضحك، ويجلس، ويهرول، ونحو هذه الأمور التي هي من عوارض الأجسام.

الدليل على نفي الجسمية:

يمكن أن نستدلّ على أنّ الله تعالى ليس بجسم بعدّة أدلّة:

١ - **أنّ الجسم مركب من أجزاء:** فإنّ الله تعالى لو كان جسماً لكان مركَّباً من أعضاء وأجزاء، والمركَّب يحتاج إلى أجزائه؛ لأنّ بها يكون قوامه، وبدونها ينتفي؛ فإنّ كلّ مركّب ينتفي بانتفاء أجزائه، وهذا يستلزم أن يكون مُحْدَثاً ممكناً؛ لأنّه محتاج إلى غيره، فإنّ جزء الشيء مغاير لذلك الشيء، والاحتياج إلى الغير من علامات الممكن المخلوق، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى غيره مطلقاً؛ بل

هو مستغنٍ عن غيره مطلقاً، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

٢- أنّ المركَّب مسبوق بأجزائه: فإنّ كلّ مركَّب لا بدّ أن يكون مسبوقاً بأجزائه التي يتركَّب منها، وهذا يدلّ على أنّه كان معدوماً، فلما تركَّبت أجزاؤه والتأمتْ مع بعضها صار موجوداً في الخارج، وهذا دليل حدوثه وإمكانه؛ لأنّ كلّ ما كان مسبوقاً بالعدم فهو مُحدَث مخلوق.

٣- أنّ الجسم محتاج إلى المكان: والله سبحانه لو كان جسماً لكان محتاجاً إلى المكان؛ لأنّ الجسم هو كلّ ما يشغل حيِّزاً من الفراغ، فلا بدّ أن يكون حالًّا في مكان، فيكون محتاجاً إلى ذلك المكان، والاحتياج علامة الإمكان والحدوث، والله تعالى لا يحتاج إلى غيره؛ لما قلناه من أنّه سبحانه غنيّ مطلق لا يحتاج إلى شيء.

٤- أنّ كلّ جسم لا بدّ أن يكون في جهة: فإنّ المكان الذي يحلّ فيه الجسم لا بدّ أن يكون موجوداً في إحدى الجهات المعروفة، فإذا كان الله تعالى محتاجاً إلى المكان فلا بدّ أن يحتاج أيضاً إلى الجهة التي فيها ذلك المكان؛ لأنّ المكان لا يكون في غير جهة من الجهات، فيكون الله تعالى ممكناً مخلوقاً؛ لما قلناه من أنّ الاحتياج علامة الإمكان.

٥- أنّ كلّ جسم محدود: وهو ما استدلّ به الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، وحاصله: أنّ الله تعالى لو كان جسماً لكان محدوداً بطول وعرض وارتفاع معيّن كما هو حال سائر الأجسام، فإنّها كلّها محدودة بهذه الحدود، وإذا كان محدوداً فإنّه لا محالة يكون قابلاً للزيادة والنقصان، فيكون مخلوقاً.

فقد روى الشيخ الكليني والشيخ الصدوق قدس سرهما بسندهما عن الإمام الصادق عليه السلام في ردّه على من زعم أنّ الله تعالى جسم وصورة، قال: ويحه، أما علم أنّ الجسم محدود متناهٍ، والصورة محدودة متناهية، فإذا احتَمل الحدّ احتَمل

الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً. قال: قلت: فما أقول؟ قال: لا جسم ولا صورة، وهو مُجسِّم الأجسام ومُصِّور الصور، لم يتجزّأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص[1].

قال الشيخ محمد صالح المازندراني قدس سره في شرح الحديث:

(فقال أبو عبد الله عليه السلام: ويحه أَمَا علم أنَّ الجسم محدود متناهٍ) أي له أطراف ونهايات، (والصورة) الجسميّة والنوعيّة والشخصيّة (محدودة متناهية)؛ لوجوب تناهي الأبعاد والأقطار.

(فإذا احتمل الحدَّ احتمل الزِّيادة والنقصان)؛ لأنَّ كلَّ قابل للحدِّ والنهاية - أعني المقدار - قابل للزِّيادة أو النقصان، لا يتأبّى عنهما في حدِّ ذاته، وإن استقرَّ على حدّ معيّن فإنّما استقرَّ عليه من جهة قسر القاسر وجعل الجاعل، لا من جهة ذاته.

(وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً) خَلَقَهُ قادرٌ مريدٌ حكيمٌ، وصرفتْه القدرة القاهرة على وفق الإرادة إلى القبول للجهات المختلفة، وساقته الحكمة البالغة إلى الحدود والنهايات المعيّنة، ولم يمكنه التخلّف والاستصعاب عن ذلك التصرُّف، فيلزم أن يكون صانعُ جميع الأشياء مصنوعاً مخلوقاً، وأنّه محال.

إلى أن قال:

(لم يتجزّأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص) ... يعني كيف يكون جسماً أو صورة والحال أنّه ليس بقابل للتجزئة والتناهي والتزايد والتناقص في حدِّ ذاته وصفاته، إذ هذه الأمور من لواحق الإمكان، وتوابع الحدوث، ولوازم المقدار، وساحة القدس منزَّه عنها[2].

---

(١) الكافي ١/ ١٠٦. التوحيد: ٩٩.

(٢) شرح أصول الكافي ٣/ ٢٣٣.

٦- ما استدلّ به الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، وحاصله: أنّ الفرق بين الخالق الصانع والمخلوق المصنوع واضح جدًّا؛ فلو كان الخالق جسماً كما هو حال المخلوق لما كان بينهما فرق يستوجب كون أحدهما خالقاً والآخر مخلوقاً.

ففي الرواية السابقة قال عليه السلام: لو كان كما يقولون لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق، ولا بين المنشِئ والمُنشَأ، لكن هو المنشِئ[1].

قال المولى المازندراني في شرحه:

(لو كان كما يقولون) من أنّه جسم أو صورة (لم يكن بين الخالق والمخلوق فرق)؛ إذ الخالق على قولهم مثل المخلوق في الذّات والصفات، والاحتياج إلى المجسِّم والمصوِّر والمدبِّر، فكون أحدهما خالقاً والآخر مخلوقاً ليس بأولى من العكس، ويتّسع حينئذ دايرة مناقشة الملاحدة؛ إذ لهم أن يقولوا: إذا كان هو جسماً مستغنياً عن الموجد جاز استغناء غيره من الأجسام وعوارضها عن الموجد أيضاً.

(ولا بين المنشِئ والمنشَأ) أي ولم يكن بين الموجِد بلا مثال والمخلوق لا من شيء فرق، وهو باطل بالضرورة، (لكن هو المنشِئ) ... يعني لكن بين الخالق والمخلوق والمنشِئ والمنشَأ فرق بالضرورة، والله سبحانه هو المنشِئ وحده، وكلُّ ما عداه مخلوق منشَأ، فبطل قولهم بالتشابه المفضي إلى عدم الفرق بينهما[2].

٧- ما استدلّ به الإمام جعفر الصادق عليه السلام أيضاً في الرواية السابقة، حيث قال عليه السلام: لكن هو المنشئ، فرَّقَ بين من جسَّمه وصوَّره وأنشأه، إذ كان لا يشبهه شيء، ولا يشبه هو شيئاً[3].

---

(١) الكافي ١/ ١٠٦. التوحيد: ٩٩.

(٢) شرح أصول الكافي ٣/ ٢٣٣.

(٣) الكافي ١/ ١٠٦. التوحيد: ٩٩.

قال المولى المازندراني ﷺ في شرحه:

ثمَّ أشار إلى دليل آخر على بطلان قولهم وعدم تحقّق المشابهة بقوله: (فَرَّقَ بين من جسَّمه وصوَّره وأنشأه، إذ كان لا يشبهه شيء ولا يشبه هو شيئاً): «فَرَّقَ» ماضٍ معلوم، من الفَرْق أو من التفريق، و «إذ» ظرف للفرق، يعني أنّه فَرَّقَ بين الأشياء وميّزها في الإيجاد، بأن جعل بعضها جسماً، وبعضها صورة، وبعضها غير ذلك، وأنشأها على وفق الحكمة حين كان الله ولا شيء معه حتّى يشبهه شيء ويشبه هو شيئاً في ذاته[1]، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن يقع المشابهة بعد الإيجاد في أمر من الأمور؛ لأنّ ذلك الأمر إن كان من كماله كان خلوّه عنه قبل الإيجاد نقصاً، وإذا لم يكن من كماله كان اتّصافه به بعده نقصاً[2]، والنقص عليه محالٌ وجب تنزيه قدسه عنه[3].

والنتيجة: أنّ الأدلة العقلية الواضحة تدلّ على أنّ الله تعالى منزَّه عن الجسمية، وكلّ من قال: «إنّ الله تعالى جسم» فإنّه قد استند على أوهام باطلة، أو أحاديث أو نصوص ربّما تكون مكذوبة، وربّما تكون صحيحة، لكنّه فهمها على غير ما يُراد بها، فوقع في هذا الخطأ الفاحش.

وفي هذه المسألة مباحث متشعّبة تركناها روماً للاختصار.

---

(١) أي أنّ الله تعالى كان موجوداً ولا شيء آخر مشارك له في الوجود، وحينئذ لا يصحّ أن يوصف شيء بأنّه مشابه لله تعالى، أو أنّ الله تعالى مشابه له؛ لأنّ كلّ ما عداه كان معدوماً، والمعدوم لا يشبه الموجود في شيء.

(٢) أي أنّ مشابهة المخلوقات لله تعالى في الجسمية أو غيرها، إن كانت كمالاً لله فإنّه قبل خلق الأشياء كان فاقداً لذلك الكمال؛ لعدم حصول تلك المشابهة، وفقد الكمال نقص. وأمّا إذا لم تكن كمالاً فهي نقص؛ لأنّ الصفات لا تخلو إمّا أن تكون صفات كمال أو صفات نقص.

(٣) شرح أصول الكافي ٣/ ٢٣٤.

لماذا لا نرى الله تعالى؟

السؤال (٩): لماذا لا نرى الله؟

الجواب: أنّ الرؤية البصرية والوهمية والمنامية مستحيلة على الله تعالى، فإنّ الله تعالى لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، وكلّ ما توهّمه المتوهِّم، فظنَّ أنّه هو الله، فهو مخلوق مثله مردود عليه.

ويمكن الاستدلال على ذلك بعدّة أدلّة:

الأدلّة العقلية على بطلان القول بإمكان رؤية الله:

١- أنّ كل مرئي لا بدّ أن يكون جسماً أو صورة: والله تعالى ليس بجسم ولا صورة كما أثبتنا ذلك فيما تقدّم، فلا يمكن رؤيته بحال من الأحوال.

ولتقريب ذلك بمثال مألوف أقول: إنّ الطاقة الكهربائية التي لا يمكن التشكيك في وجودها، وفي كثرة منافعها، لا يمكن رؤيتها أصلاً، ولو كانت هذه الطاقة جسماً أو صورة لكانت رؤيتها ممكنة، بغض النظر عن الفروق الكثيرة بين الخالق سبحانه وبين هذه الطاقة، إلا أنّنا نقرّب ما قلناه من ناحية استحالة الرؤية فقط.

وكما يمكن الاستدلال على هذه الطاقة الكهربائية بآثارها كالضوء والحرارة وغير ذلك، فإنّه يمكن الاستدلال على وجود الله تعالى بآثاره الكثيرة التي ذكرنا بعضاً منها فيما تقدّم.

٢- أنّ المرئي لا بدّ أن يكون في مكان أوجهة: فإنّ رؤية الشيء تستلزم أن يكون المرئي في مكان وفي جهة، أمّا إذا لم يكن في مكان وجهة فإنّ رؤيته تكون مستحيلة؛ لأنّ كلّ ما يُرى لا بدّ أن يكون إمّا مقابلاً للرائي أو في حكم

المقابل[١]، وما كان كذلك لا بدّ أن يكون في مكان وفي جهة، وما كان في جهة ومكان فهو محتاج إليهما، والاحتياج دليل الإمكان والحدوث كما قلنا مكرَّراً، والله تعالى غنيٌّ مطلق، فلا يمكن أن يكون في مكان أو جهة، وبذلك تكون رؤيته محالة.

٣- أنّ الله تعالى مجرَّد: فقد ثبت في محلّه تجرّد الله سبحانه، أي أنّه ليس بمادّة ولا مادي، وإذا لم يكن الله تعالى مادّة، فإنّه تستحيل رؤيته؛ لأنّ الرؤية إنّما تنحصر في الماديّات فقط، وأمّا المجرَّدات فلا يمكن رؤيتها.

وكما هو معلوم فإنّ المادّة لها أبعاد ثلاثة: طول، وعَرْض، وارتفاع، وتكون قابلة للانقسام إلى أجزاء كثيرة، وتشغل حيِّزاً من الفراغ، ويمكن الإشارة الحسّيّة إليها، والمجرَّد بخلافها، فلا يكون قابلاً للرؤية.

ومن أمثلة المجرّد: النفْس المتعلِّقة بالبدن، فإنّها أيضاً غير قابلة للرؤية بأيّ نحو، كما أنّها غير قابلة للانقسام.

قال العلّامة الحلّي قدس سره:

> واعلم أنّ أكثر العقلاء ذهبوا إلى امتناع رؤيته تعالى، والمجسِّمة جوَّزوا رؤيته؛ لاعتقادهم أنّه تعالى جسم، ولو اعتقدوا تجرّده لم يجوِّزوا رؤيته عندهم، والأشاعرة خالفوا العقلاء كافّة هنا، وزعموا أنّه تعالى مع تجرّده يصحّ رؤيته[٢].

٤- أنّ الله تعالى بسيط: فإنّا قلنا مكرَّراً: «إنّ الله تعالى ليس بمركّب من أجزاء أو أعضاء كما هو حال سائر المخلوقات»، فإذا لم يكن مركَّباً استحالت رؤيته؛ لأنّ الرؤية إنّما تتعلّق بالمركَّبات دون الأشياء البسيطة، فإنّها غير قابلة

---

(١) كرؤية الأشياء في المرآة، فإنّ المرئي فيها ليس مقابلاً للرائي، وإنّما هو في حكم المقابل.

(٢) كشف المراد: ٣٢١.

للرؤية، ولازم تجويز الرؤية على الله تعالى هو القول بأنّه سبحانه مركّب من أجزاء، وهو باطل كما تقدّم.

٥- ليس كلُّ موجود مرئيًّا: فإنّ بعضهم يظنّ أنّ كلّ موجود لا بدّ أن يكون قابلاً للرؤية، والله تعالى إن قلنا: «إنّه موجود» فلا بدّ أن يُرىٰ كغيره من الموجودات، وإلا فهو معدوم.

وهذا ظن فاسد، يمكن ردّه بعدّة أمور:

أولاً: أنّه لم يقم دليل صحيح على أنّ كلّ ما كان موجوداً فإنّه يجب أن يكون مرئيًّا، بل إنّ الدليل التامّ الصحيح قد قام على بطلانه.

وكان القدماء يستدلّون على بطلان هذه الملازمة بأشياء لا يختلف العقلاء في وجودها مع أنّها غير مرئية، كالأرواح، والعقول، فإنّها لا خلاف في وجودها لكنّها لا تُرى بالعين، ولا تُدرك بسائر الحواس.

وكذا المشاعر الوجدانية كالحبّ والكُرْه والألم والجوع والشبع والتعب والخوف وما شابه ذلك، فإنّ كلّ هذه الأمور لا شكّ في وجودها مع أنّها غير مرئية، والمرئي منها هو آثارها فقط، فإنّا لا نرى الخوف نفسه، ولكن نرى آثاره التي نستدلّ بها عليه، كصفرة الوجه، وبروز العينين، وارتعاد الفرائص، ونحو ذلك.

ومن طرائف الحوادث ما وقع لبهلول مع أبي حنيفة النعمان إمام مذهب الحنفية، فقد روي في بعض الكتب أنّ البهلول أتى إلى المسجد يوماً وأبو حنيفة يقرّر للناس علومه، فقال في جملة كلامه: إنّ جعفر بن محمد [الصادق عليه السلام] تكلّم في مسائل، ما يعجبني كلامه فيها:

الأولى: أنّه يقول: «إنّ الله سبحانه موجود، لكنّه لا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة»، وهل يكون موجود لا يُرىٰ؟ ما هذه إلّا تناقض.

الثانية: أنّه قال: «إنّ الشيطان يُعذَّب في النّار» مع أنّ الشيطان خُلق من النار، فكيف يُعذَّب الشيء بما خُلق منه؟!

الثالثة: أنّه يقول: «إنّ أفعال العباد مستندة إليهم»، مع أنّ الآيات دالّة على أنّه تعالى فاعل كلّ شيء!

فلمّا سمعه بهلول أخذ مَدَرةً[١]، فضرب بها رأس أبي حنيفة فشجَّه، وصار الدم يسيل على وجهه ولحيته، فبادر إلى الخليفة يشكو بهلولاً!!

فلما أُحضر بهلول وسُئل عن السبب؟ قال للخليفة: إنّ هذا الرجل غَلَّط جعفر بن محمد عليهما السلام في ثلاث مسائل:

الأولى: أنّ أبا حنيفة يزعم أنّ الأفعال كلّها لا فاعل لها إلّا الله، فهذه الشجّة من الله تعالى، وما تقصيري؟!

الثانية: أنّه يقول: كلّ شيء موجود لا بدّ أن يُرى؟! فهذا الوجع في رأسه موجود، مع أنّه لا يُرى؟!

الثالثة: أنّه مخلوق من التراب، وهذه المدَرَة من التراب، وهو يقول: إنّ الجنس لا يُعذَّب بجنسه، فكيف يتألّم من هذه المدَرَة؟

فأعجب الخليفة بكلامه، وتخلّص بهلول من شجّة أبي حنيفة[٢].

وأمّا في عصرنا الحاضر فقد عُلم أنّ بعض الأمور التي صارت مهمّة في حياتنا لا يمكن رؤيتها، مثل أشعة X، والأشعة فوق البنفسجية وتحت الحمراء، والطاقة الكهربائية وغير ذلك، فإنّ كل هذه الأمور غير قابلة للرؤية، والمحسوس منها هو آثارها فقط.

ثانياً: أنّه إذا ثبت أنّ الموجودات إمّا أن تكون مرئية أو تكون غير مرئية،

---

(١) المدرة: قطعة الطين اليابسة.

(٢) أعيان الشيعة ٣/ ٦١٨، نقلها عن كتاب (مجالس المؤمنين) للتستري.

فإنّ غير المرئي منها إمّا أن تكون له آثار واضحة يُستدلّ بها على وجوده، أو لا تكون له آثار واضحة لدينا يمكن الاستدلال بها على وجوده، والله سبحانه وتعالى من القسم الأول، فإنّه سبحانه وإن لم يكن مرئيًّا، إلا أنّ آثاره الدالّة على وجوده أكثر من أن تُحصَر.

ثالثاً: أنّا لا نسلِّم أنّ الإنسان قادر على رؤية كلّ ما هو موجود، فإنّ من الموجودات ما هو متناهٍ في الصِّغَر كالفيروسات والميكروبات والذّرّة، والإنسان لم يكن متمكّناً بقدراته المعتادة على رؤية هذه الأشياء لولا استعانته بالأجهزة الحديثة، ولعلّ من المخلوقات ما هو أصغر من الفيروس، والأجهزة الحديثة لا تتمكّن من كشفه.

وفي المقابل فإنّ بعض الموجودات فيها من الطاقة ما تجعل الإنسان عاجزاً عن رؤيتها بصورة كاملة حتى بمعونة الأجهزة الحديثة، ولعلّ أقرب مثال على ذلك هو باطن الشمس، فإنّ الإنسان لا يستطيع أن يكتشف خباياها بسبب قوّة سطوع ضوئها وشدّة حرارتها.

وإلى هذا المعنى أشار الإمام جعفر الصادق عليه السلام، في الحديث الذي رواه الكليني قدس سره بسنده عن عاصم بن حميد، قال: ذاكرتُ أبا عبد الله عليه السلام فيما يروون من الرؤية، فقال: الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملَؤُوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب[1].

قال الشيخ المجلسي قدس سره:

لعلّه تمثيل وتنبيه على عجز القوى الجسمانية، وبيان لأنّ لإدراكها

(١) الكافي ١/ ٩٨.

حدًّا لا تتجاوزه، ويحتمل أن يكون تنبيهاً بضعف القوىٰ الظاهرة على ضعف القوىٰ الباطنة، أي كما لا يقدر بصرك في رأسك على تحديق النظر إلى الشمس، فكذلك لا يقدر عين قلبك على مطالعة شمس ذاته وأنوار جلاله، والأول أظهر(١).

وقال الفيض الكاشاني قدس سره:

حقيقة النور ليست إلا نفس الظهور، أعني الظاهر لنفسه المُظهر لغيره، فلا شيء أظهر منه، ولا يمكن الاطّلاع على شيء من أفراده إلا بالمشاهدة الحضورية، وكلّ ما كان منها أشدّ ظهوراً وأقوى نوراً في حدّ ذاته فهو أبطن وأخفى من إدراك هذه الحواس الظاهرة الجسمانية.

ونسبة كلّ إلى ما فوقها في شدّة النورية كنسبة الواحد إلى السبعين كما أشار إليه، ثمّ لا نسبة لأعلى طبقاتها إلى الذات الإلهية التي هي نور الأنوار؛ لأنّه في شدّة النورية، فوق ما لا يتناهىٰ بما لا يتناهىٰ، فما أضلّ وأغوىٰ من زعم وادّعىٰ إمكان رؤيته سبحانه بهذه العين، وهو ممّن يعجز عن تحديق بصره إلى جرم الشمس، وإملاء عينه من نورها بلا سحاب(٢).

٦- أنّه ورد في الكتاب المقدّس عند النّصارى أنّ بعض الأنبياء عليهم السلام رأوا الله تعالى في الدنيا.

فقد ورد في سفر الخروج ١١: ٣٣ أنّ الله تعالى كلَّم موسى عليه السلام وجهاً إلى وجه، قال: ويكلّم الرّبُّ موسىٰ وجهاً إلى وجه كما يكلّم الإنسان صاحبه.

وفي سفر أيوب ٤٢: ٥ أنّ أيوب قال لله تعالى: سمعتُ عنك سمع الأذن، والآن رأتك عيني.

(١) بحار الأنوار ٤/ ٤٤.

(٢) الوافي ١/ ٣٨٣.

وكذلك ورد في بعض الآيات القرآنية والأحاديث المرويّة عن النبي ﷺ ما ربّما يُفهم منها أنّ المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة.

منها: قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ومنها: ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة، قال: قال أناس: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنّكم ترونه يوم القيامة كذلك...[(١)].

وحيث إنّ كلّ هذه النصوص معارَضة بما دلّ عليه العقل فلا بدّ من تأويلها بما لا يتعارض مع ما حكم به العقل من استحالة رؤية الله سبحانه، وأمّا ما لا يمكن تأويله من النصوص التي لا يُقطع بصدورها عن الله تعالى أو عن نبيّه ﷺ، فلا بدّ من طرحها؛ لعدم إمكان الأخذ بالنصّ المعارض لحكم العقل؛ لأنّ الله ورسوله ﷺ لا يصدر عنهما ما يخالف العقول، وكلّ ما ينسب إليهما ممّا يخالف العقل ولا سبيل إلى تأويله فهو مكذوب عليهما، لا يمكن نسبته إليهما ولا قبوله بأيّ حال.

(١) صحيح البخاري ٤/ ٢٠٥٥. صحيح مسلم ١/ ١٦٣.

لماذا لا يظهر اللّه لخلقه؟

السؤال (١٠): لماذا امتنع الله عن الظهور لعباده؟

والجواب: أنّ السائل لعلّه يفترض أنّ الله تعالى إنْ كان موجوداً بالفعل فلا بدّ أن يظهر لخلقه؛ لأنّه لا يوجد ما يمنعه عن الظهور لهم إلا أن يكون فيه بعض صفات النقص التي تمنعه من الظهور لهم.

أو أنّ علّة عدم ظهوره سبحانه هو أنّه غير موجود أساساً كما يعتقد بذلك المنكرون لوجوده سبحانه.

وإذا كان المسلمون وغيرهم لا يسلِّمون بأنّ سبب عدم ظهور الخالق لخلقه هو اتّصافه بصفات نقص تمنعه عن الظهور، فلا مناص من القول بأنّ السبب هو عدم وجوده أصلاً.

ولا يخفى أنّ السائل إنّما يسأل عن علّة امتناع الله عن الظهور بعد أنْ فَرَضَ أنّ ظهوره أمر ممكن إذا كان موجوداً بالفعل.

ولكي يتّضح الجواب نقول: إنّ ظهور الله تعالى لخلقه له معانٍ متعدّدة، بعضها يصحّ على الله، وبعضها لا يصحّ.

أمّا ما لا يصحّ على الله تعالى فهو ظهوره سبحانه لعباده بهيئة خاصّة وصورة معيَّنة كما يتوهّم بعض النّاس من أنّه تعالى له هيئة وصورة خاصّتان به، وإثبات الهيئة والصورة لله تعالى محال؛ لأنّه سبحانه ليس بجسم، وليست له صورة أصلاً، فلا يمكن أن يُرى بالعين بأيّ نحو؛ لأنّ الذي يُرى بالعين إنّما هو الجسم الذي له صورة خاصّة به تنطبع في العين، وقد أثبتنا استحالة رؤيته سبحانه فيما تقدّم، فراجعه.

وعليه، فالأمر ليس كما افترضه السائل من أنّ رؤية الله تعالى ممكنة، لكنّه احتجب عن خلقه، وامتنع عن الظهور لهم، بل إنّ عدم رؤية النّاس لله تعالى ناشئ من أنّه تعالى لا يمكن رؤيته بحال؛ لأنّه تعالى ليس بمرئي.

وأمّا ما يصحّ على الله تعالى فهو ظهوره بغير الهيئة والصورة، فإنّ الله تعالى ظاهر لخلقه في كلّ شيء من مخلوقاته، من الكائنات الدقيقة إلى الأجرام المتناهية في الحجم؛ لأنّها كلّها تدلّ عليه، وتبيّن عظمته وحكمته سبحانه، وظهوره بهذا النحو هو أجلى ظهور وأوضحه، وهو أوضح من الظهور بالذات والصورة.

ولتقريب هذا المعنى بمثال عرفي نقول: إنّ الرجل ربّما يظهر لك بصورته وبجسمه، ويكون قريباً منك بجسده، ولكنّك لا تعرف عنه أيّ شيء إلا هذا الشكل الخارجي الذي لا يدلّ على شيء منه.

وربّما يكون لك صديقٌ في أقصى المغرب، وأنت في أقصى المشرق، ولكنّك تعرفه حقّ المعرفة مع أنّك لم تره، ولم تلتق به، وهو - مع بُعْدِه عنك - يعيش معك بروحه، وتعيش معه بمشاعرك، ويشاركك في همومه واهتماماته وآماله وآلامه، خصوصاً في هذا الزمان الذي قرَّبتْ فيه وسائل الاتصالات الحديثة المسافات البعيدة.

والله تعالى قريب إلى عبده بعلمه وقدرته ورحمته وفيوضاته كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[البقرة: ١٨٦].

وكلّ من يتأمّل ما حوله يجد أنّ الله تعالى ظاهر فيه بأجلى ظهور، ويرى أنّ كلّ شيء يدلّ عليه سبحانه بأعظم دلالة، كما قال أبو العتاهية:

فَيَا عَجَباً كَيْفَ يُعْصَىٰ الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَلله فِي كُلِّ تَحْرِيْكَةٍ ... وَفِي كُلِّ تَسْكِيْنَةٍ شَاهِدُ

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ وَاحِدُ[١]

بل إنّ ظهور الله تعالى في كلّ شيء أوضح من ظهور غيره فيه، والتفاوت بين ظهوره وظهور غيره كالتفاوت بين الخالق والمخلوق، كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعائه يوم عرفة: كيف يُستدَلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهِر لك؟! متى غبتَ حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟![٢].

وكما قال عليه السلام أيضاً في هذا الدعاء: وأنت الذي تعرَّفتَ إليَّ في كلّ شيء، فرأيتُك ظاهراً في كلّ شيء، وأنت الظاهر لكلّ شيء[٣].

ولقد أجاد الشاعر حيث قال:

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَىٰ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلَّا عَلَىٰ أَكْمَهٍ لَا يَعْرِفُ الْقَمَرَا[٤]

إذن فالله تعالى في الواقع ظاهر لجميع خلقه، إلا أنّ أكثر هذا الخلق لا يرونه ببصائر قلوبهم وبإدراكات عقولهم، وهذا ناشئ عن ضعف إدراكاتهم، أو كثرة غفلاتهم، أو عدم اهتمامهم بخالقهم.

وبهذا الذي قلناه يتّضح أنّ عدم الظهور بالمعنى الذي ربّما يقصده السائل، وهو عدم ظهوره سبحانه بهيئة خاصّة به وبصورة معيّنة له، لا يدلّ على عدم وجوده سبحانه، فإنّه لا ملازمة بين عدم الظهور الصوري وعدم الوجود؛ لنستنتج من عدم ظهوره عدمَ وجوده كما ربّما يُتوهّم، فإنّ كثيراً من الأمور التي

---

(١) ديوان أبي العتاهية: ١٢٢.

(٢) إقبال الأعمال: ٦٦٠.

(٣) نفس المصدر: ٦٦٢.

(٤) خزانة الأدب ٢/ ٢٦.

نقطع بوجودها لم نرها، ولكن استدللنا على وجودها بآثارها، ومن ضمنها عقولنا، وأرواحنا، فإنّا لم نرها، ولكنّا لا نستطيع نفيها بحال؛ لأنّ آثارها أدلّ دليل على وجودها، وكذا الحال بالنسبة إلى الله تعالى، فإنّا وإن لم نره إلا أنّ آثاره تدلّ عليه بأعظم دلالة، كما استدلّ الأعرابي على وجود الله تعالى بقوله: البعرة تدلّ على البعير، والخطوة تدلّ على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!

فإن قيل: إن عدم تمكّنه من الظهور لخلقه دليل على عجزه ومحدودية قدرته.

فإنّا نقول: إنّ عدم ظهوره لخلقه بالجسم والصورة لا يتنافى مع قدرته سبحانه؛ لأنّ هذا النحو من الظهور مستحيل في ذاته، وقدرته سبحانه إنّما تتعلّق بالممكنات، ولا تتعلّق بالمحال، فلا يصحّ أن يُسأل: «هل الله عاجز عن جعل هذا الجسم أسود ولا أسود في آنٍ واحد»؛ لأنّ الجمع بين النقيضين بجعل هذا الجسم أسود ولا أسود في آنٍ واحد محال عقلاً، ولو قلنا بإمكان الجمع بين النقيضين لخرج عن كونه محالاً، وهو باطل.

إذن قدرة الله تعالى لا تتعلّق بالمحال، ورؤيته سبحانه من المحالات التي يحكم العقل بعدم إمكان وقوعها.

أين هو الله؟

السؤال (١١): أين هو الله؟

الجواب: أنّ حلول الله تعالى في مكان خاصّ مسألة مختلف فيها بين المسلمين، فقد ذهبت فئة قليلة من المسلمين - وهم السلفية - إلى أنّ الله تعالى في السماء، أخذاً بظاهر قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقالوا: إنّه سبحانه مستوٍ على عرشٍ خَلَقَه له، أخذاً بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾[طه: ٥].

وأمّا عامّة المسلمين فذهبوا إلى استحالة أن يكون الله سبحانه وتعالى في مكان أو في جهة، واستدلّوا على ذلك بعدّة أدلّة، منها:

١- أنّ الله تعالى لو كان في مكان لكان محتاجاً إلى ذلك المكان، كما يحتاج الإنسان والحيوان مثلاً للحلول في مكان خاصّ، والإله إذا كان محتاجاً فإنّه لا يصلح للألوهية؛ لأنّ الاحتياج علامة الممكن المخلوق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[العنكبوت: ٦].

٢- أنّ الله تعالى كان ولم يكن مكان؛ لأنّه تعالى هو الذي خلق المكان، وهو الآن على ما كان.

وقد سُئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: أين كان ربّنا قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ فقال عليه السلام: «أين»: سؤالٌ عن مكان، وكان الله ولا

مكان[١].

وقال عليه السلام أيضاً في وصف الله تعالى: سَبَقَ المكان فلا مكان؛ لأنّه سبحانه كان ولا مكان، ثمّ خلق المكان، فهو على ما كان قبل خلق المكان[٢].

٣- أنّ الله تعالى واجب الوجود، أي أنّه لم يكن مسبوقاً لا بالغير ولا بالعدم، ولا ملحوقاً بهما، ووجوب وجوده يقتضي ألّا يكون في مكان؛ لأنّه لو كان في مكان لكان محلًّا للحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

وبيان ذلك: أنّ الله تعالى لو كان في مكان في الآن الأوّل، فإمّا أن يبقى في الآن الثاني في نفس ذلك المكان، فيكون ساكناً، أو ينتقل في الآن الثاني إلى مكان ثانٍ، فيكون متحرِّكاً، ففي الآن الثاني سيكون الله إمّا ساكناً أو متحرّكاً، والحركة والسكون من الحوادث التي لم تكن ثمّ كانت، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث؛ لأنّه في الآن الثاني مغاير لنفسه في الآن الأوّل، سواء أكان في الآن الثاني متحرّكاً أم ساكناً؛ لأنّه في الآن الأوّل لم يكن لا ساكناً ولا متحرّكاً، وأمّا في الآن الثاني فهو إمّا ساكن أو متحرّك، فيكون مسبوقاً بالغير، وذلك الغير هو نفسه الموصوف بعدم السكون والحركة، فيكون حادثاً.

مضافاً إلى ذلك فإنّه في الآن الثاني يكون موصوفاً بالحركة أو السكون، وهذا الموصوف بالحركة أو السكون لم يكن موجوداً في الآن الأول؛ لأنّ الموجود في الآن الأوّل هو غير الموصوف بهما، فيكون حادثاً؛ لأنّ الحادث هو كلّ ما كان مسبوقاً بالعدم.

٤- أنّ الله تعالى واجب الوجود، ووجوب وجوده يقتضي نفي التحيُّز عنه، أي أنّه لا يحلّ في مكان؛ وذلك لأنّه لو كان متحيِّزاً لكان ممكن الوجود؛

---

(١) الكافي ١/ ٩٠.

(٢) أعلام الدين في صفات المؤمنين: ٧٥.

لأنّ ممكن الوجوب هو المسبوق بالغير أو المسبوق بالعدم، بنفس التقريب الذي أوضحناه في الدليل الثالث.

وأمّا النصوص التي استدلّ بها علماء السلفيّة الذين ذهبوا إلى أنّ الله تعالى في السماء، وأنّه مستوٍ على عرشه، فإنّها مؤوَّلة بما لا يستلزم تجسيم الخالق وتشبيهه بخلقه، وحاجته إلى المكان والعرش، التي تنفي عنه الألوهية، وهناك مناقشات كثيرة في هذه المسألة أضربنا عن ذكرها؛ لأنّ كلامنا ليس مع أصحاب الأقوال الشاذّة من طوائف المسلمين.

شبهة وجوابها:

قد يقول قائل: لو لم يكن الله سبحانه وتعالى في السماء لما كان وجه لرفع الأَكُفّ في الدّعاء إلى السماء، ولكان توجيهها إلى الأرض كرفعها إلى السماء، وهي إنما تُرفع إلى السماء لأنّ الله تعالى موجود فيها.

والجواب:

١- أنّا مأمورون برفع الأكفّ إلى السماء في الدّعاء كما هو الحال في قنوت الصلاة، لا لأنّ الله سبحانه وتعالى في السماء، كما أنّنا مأمورون بالتوجّه في صلواتنا لجهة معيّنة كالكعبة المشرّفة، لا لأنّ الله سبحانه وتعالى موجود في الكعبة، بل لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى هو يعلمها.

٢- أنّه ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلى السماء، ولينصب في الدّعاء. فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين أليس الله عزَّ وجلّ بكلّ مكان؟ قال: بلى. قال: فلِمَ يرفع يديه إلى السماء؟ فقال: أوَما تقرأ: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢]، فمن أين تطلب الرزق إلا من موضعه، وموضعُ الرزق وما وعد الله عزَّ وجلّ السماءُ؟[١].

---

(١) من لا يحضره الفقيه ١/ ٣٢٥.

ومعنى قول من قال: «إنّه تعالى في كلّ مكان» أنّه تعالى موجود في كلّ مكان بعلمه لا بذاته، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

أي أنّه سبحانه وتعالى يعلم كلّ شيء في كلّ مكان، لا أنّه موجود بذاته في كلّ مكان كما يتوهّمه من لا يعرف المراد، وهذا هو المراد أيضاً بقولهم: «لا يخلو منه مكان»، أي أنّه تعالى لا يجهل ما يقع من الحوادث وغيرها في الأمكنة كلّها.

هل كل موجود يحتاج إلى مكان؟

السؤال (١٢): لكلّ وجود أو موجود مكان؟ فأين هو الله؟

والجواب:

١- أنّ قول السائل: «لكلّ وجود أو موجود مكان» غير صحيح؛ لأنّ الوجودات متفاوتة فيما بينها، منها ما يحتاج إلى مكان يحلّ فيه، ومنها ما لا يحتاج إلى مكان.

والفلاسفة قسَّموا الوجود إلى قسمين، هما:

١- **الوجود الخارجي**: مثل وجود أفراد الإنسان والحيوان والجبال والأشجار وغيرها، وكلّ هذه الموجودات لا شكّ في أنّها تحتاج إلى مكان؛ لأنّها أجسام، والجسم هو كلّ ما يشغل حيِّزاً من الفراغ.

٢- **الوجود الذهني**: وهو نفس العلم بالأشياء الخارجية وغيرها، فإنّ انطباع صور الأشياء في الذهن يسمّى وجوداً ذهنيًّا، مثل: جميع الآراء والأفكار والمعتقدات ونحوها، فإنّها لا وجود لها إلا في حيّز الذهن فقط.

ومنه: مفهوم «اجتماع النقيضين»، كاجتماع السواد وغير السواد في مكان واحد في آنٍ واحد، فإنّ هذا المعنى - وهو اجتماع النقيضين - لا وجود له إلا في الذهن فقط، أي أنّ الإنسان يدرك معنى اجتماع النقيضين، وأمّا نفس النقيضين - وهما السواد وغير السواد - فإنّهما لا يجتمعان في الخارج في مكان واحد في آنٍ واحد، إذ لا تجد في الخارج شيئاً هو أسود ولا أسود في نفس الوقت.

وكذا «اجتماع الضدّين»، مثل السواد والبياض، فإنّ هذا المعنى لا وجود له إلا في عالم الذهن فقط، وأمّا نفس الضدّين في الخارج فإنّهما لا يجتمعان في

مكان واحد في آنٍ واحد، ولا يرتفعان.

ومثّلوا للوجود الذهني أيضاً بشريك الباري سبحانه، فإنّه لا وجود له في الخارج، وإنّما وجوده في الذهن فقط.

وكذا جميع الصور التي نتخيّلها ولا وجود لها في الخارج، فإنّ وجودها منحصر في الذهن دون غيره، مثل ما لو تصوّرنا جبلاً من ذهب، أو قصراً من ياقوت، أو طائراً بحجم الفيل، أو فيلاً يطير بجناحين، أو نحو ذلك.

فإذا عُلم أنّ الوجود الذهني ليس له تحقّق إلا في عالم الذهن فقط، فلا شكّ في أنّ هذه الوجودات لا تحتاج إلى مكان في الخارج؛ لأنّ الخارج ليس مكاناً لوجودها.

وأمّا الوجودات الخارجية فهي كثيرة جدًّا، والسائل وغيره لما رأوا أنّ أكثر الوجودات التي يرونها حولهم أجسام تحتاج إلى مكان تحلّ فيه، سواء أكانت حيوانات أم نباتات أم جمادات، استنتجوا باستقرائهم الناقص أنّ كلّ موجود يحتاج إلى مكان، وتصوّروا أنّ الحلول في المكان من لوازم جميع الوجودات من دون استثناء.

وهذا الاستنتاج ضعيف لسببين:

السبب الأول: أنّ الإنسان لحدّ الآن لم يطّلع بَعْدُ على جميع الموجودات في هذا العالم الذي نعيش فيه، فضلاً عن الموجودات التي في خارجه، وقياس الموجودات التي لم يطّلع عليها الإنسان على ما اطّلع عليه، وافتراض أنّها كلّها أجسام تحتاج إلى مكان غير صحيح؛ لأنّه لا يستند إلى حجّة صحيحة، وإنّما يستند إلى استقراء ناقص، وهو الاستقراء الذي صرّح علماء المنطق بأنّه ليس بحجّة؛ لأنّه يؤدّي أحياناً إلى نتائج غير صحيحة.

والسبب الثاني: أنّ الحلول في المكان ليس من لوازم الوجود، وإنّما هو من

لوازم الأجسام، فإنّ كلّ جسم يفتقر إلى مكان يحلّ فيه، وأمّا الموجودات الأخرى التي هي ليست بأجسام فإنّها لا تفتقر إلى مكان.

إذا اتّضح ذلك نقول: إنّ الله تعالى ليس بجسم، فلا يحتاج إلى مكان يحلّ فيه، فلا يصحّ الاستدلال بعدم حلوله في مكان على أنّه ليس بموجود كما تصوّره السائل!!

ثم إنّ الوجود يمكن تقسيمه إلى قسمين آخرين هما:

١- **الوجود الحقيقي**: مثل وجود أفراد الإنسان والحيوان والجبال والأشجار وغيرها، فإنّها موجودة حقيقة، ولا يصحّ لعاقل أن ينكرها، أو يشكّك في وجودها؛ لأنّ البرهان والوجدان يثبتانها، وهما الطريقان الصحيحان لإثبات وجود الأشياء عند عامّة العقلاء.

٢- **الوجود الاعتباري**: مثل الزوجيّة والملكيّة والحريّة والعبوديّة ونحوها، فإنّ جميع هذه الأمور لا وجود لها في الحقيقة، ووجودها إنّما هو في أذهان الناس، بسبب أنّهم تبانوا على اعتبار هذا الرجل مالكاً لذلك المتاع، كما تبانوا على اعتبار ذاك الرجل زوجاً لتلك المرأة؛ ولا شكّ أنّ اعتبارهم لتلك الملكية وهذه الزوجية ناشئ عن أسباب خاصّة عندهم تختلف باختلاف المعتبرين، فربما يكون بذل المال سبباً لحصول الملكية عند جماعة، ولا يكون سبباً لحصوله عند جماعة أخرى، مثل من بذل المال في قبال الخمر، فإنّ النصارى مثلاً يعتبرونه مالكاً لذلك الخمر، وأمّا المسلمون فإنّهم لا يعتبرونه مالكاً له؛ لأنّهم يرون أنّ الخمر لا مالية له، فلا يصحّ شرعاً بذل المال لتملّكه.

ومن الواضح أنّ هذه الوجودات الاعتبارية لا تحتاج إلى مكان، وبه يتضّح فساد ما قاله السائل الذي لا يمكنه أن ينازع في وجود الزوجية والملكية ونحوهما من الأمور الاعتبارية من أنّ كلّ وجود أو موجود له مكان.

وأما سؤاله: أين الله؟ فقد أجبنا عنه بالتفصيل فيما تقدّم، في جواب السؤال رقم (١١)، فراجعه.

بطلان القول بالحلول

السؤال (١٣): هل الله حالٌّ في الخلق؟ أم الخلق حالّون فيه؟

والجواب:

١ - أنّ الله تعالى ليس حالًّا في خلقه؛ لأنّه سبحانه لا يحلّ في مكان، ولا يحويه مكان، ولا يحتاج إلى مكان، لا داخل خلقه ولا خارجهم، فإنّ الحاجة إلى المكان من خواصّ الأجسام، والله تعالى ليس بجسم، فلا يحتاج إلى مكان، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق، فراجعه[١].

وهكذا الحال بالنسبة إلى الخلق، فإنّهم ليسوا حالِّين في الله تعالى؛ لأنّ الله سبحانه ليس بمكان تحلّ فيه الأشياء، وإنما هو إله الناس، ليس كمثله شيء، وتحقّق الحلول في شيء يتوقّف على كون ذلك الشيء مكاناً للحالِّ فيه، وإلا فلا.

٢- أنّ الله تعالى قبل أن يخلق خلقه لم يكن حالًّا في خلقه، ولم يكونوا حالِّين فيه، وهو بعد أن خَلَقَهم على ما كان عليه قبل خَلْقهم؛ لأنّه سبحانه غنيّ عنهم، وليس بمحتاج لأن يخلقهم لكي يحلّ فيهم، أو يحلّوا فيه.

وقد روى الشيخ أبو جعفر الصدوق قدس سره في كتاب (التوحيد) بسنده عن يعقوب بن جعفر الجعفري، عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أنّه قال: إنّ الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان، وهو الآن كما كان...[٢].

قال الشيخ الصدوق قدس سره:

الدليل على أنّ الله عزّ وجلّ لا في مكان أنّ الأماكن كلّها حادثة،

---

(١) في صفحة: ٥٧.

(٢) التوحيد: ١٧٨.

وقد قام الدليل على أنّ الله عزّ وجلّ قديم سابق للأماكن، وليس يجوز أن يحتاج الغني القديم إلى ما كان غنيًّا عنه، ولا أن يتغيَّر عمّا لم يزل موجوداً عليه، فصحَّ اليوم أنّه لا في مكان، كما أنّه لم يزل كذلك[1].

٣- أنّ السائل إذا كان يريد بحلول الله في خلقه حلوله في جميع أفراد خلقه من الإنس والجن والحيوان والنّبات والجماد بأنواعها المتعدّدة، فإنّه يلزم من ذلك عدّة محاذير باطلة:

منها: أنّه يلزم من حلوله في جميع أفراد خلقه أنّ الله تعالى يكون مجزَّءاً إلى أجزاء كثيرة بعدد أفراد الخلق؛ لأن كلّ جزء منه سيكون حالًّا في واحد من مخلوقاته، فيكون مجزَّءاً إلى أجزاء كثيرة متباعدة عن بعضها البعض كما هو حال خلقه، وهو باطل؛ لأنّه قد دلّ الدليل على أنّ كلّ مركّب محتاج إلى أجزائه، والاحتياج علامة الممكن المُحدَث المخلوق.

ومنها: أنّه يلزم من حلوله في جميع أفراد خلقه أن تتكاثر أجزاؤه على الدوام؛ لأنّ الخلق يتكاثرون باستمرار، وكلّما وُلد مولود جديد من خلقه وجب أن يولَد جزء جديد من الله تعالى؛ ليحلّ في ذلك المولود الجديد، وهو باطل؛ لأنه يلزم من هذا أن بعض أجزاء الخالق لم تكن موجودة فوُجدت، وهذا يعني أنّها حادثة مخلوقة، وهو واضح البطلان.

ومنها: أنّه يلزم من حلوله سبحانه في خلقه تناثُر أجزائه، بأن تتباعد عن بعضها تارة، وتتقارب مع بعضها تارة أخرى؛ لأنّ أفراد الخلق هكذا، يتقاربون تارة مع بعضهم، ويتباعدون عن بعضهم تارة أخرى، وهذا باطل جزماً؛ لأنّ هذا يستلزم كونه مركّباً وأنّ ذاته سبحانه وتعالى محلّ للحوادث، وهي التباعد عن بعضها تارة، وعدم التباعد تارة أخرى، فتكون أجزاؤه حادثة؛ لأنّ كلّ ما

(١) التوحيد: ١٧٨.

كان محلًّا للحوادث فهو حادث؛ كما أوضحنا ذلك فيما سبق حيث قلنا: إنّ حدوث الحوادث في الله يدلّ على تغيّره وانفعال ذاته؛ وهذا يتنافى مع وجوب وجوده؛ لأنّ الذات المتّصفة بالتغيّر لم تكن موجودة ثمّ وُجدت، فتكون ذاته بهذه الصفة مسبوقة بالعدم، فتكون حادثة.

مع أنّ هذه الصفة وهي التقارب والتباعد في أجزائه إن كانت صفة كمال استحال خلوّ الذات الإلهية عنها، وإن كانت صفة نقص استحال اتّصاف الذات الإلهية بها.

ومنها: أنّه يلزم من حلوله سبحانه في خلقه عدم الحلول؛ لأنه إذا فُرض موت بعض خلقه الذي كان جزء الله تعالى حالًّا فيه، فإنّه يلزم صيرورة ذلك الجزء الإلهي غير حالّ في شيء، وما لزم منه عدمه فهو باطل.

مضافاً إلى أنّه يلزم من ذلك أيضاً أن تكون ذاته سبحانه وتعالى محلًّا للحوادث، وهي الحلول تارة وعدم الحلول تارة أخرى، فتكون أجزاؤه حادثة؛ لأنّ كل ما كان محلًّا للحوادث فهو حادث.

ومنها: أنه يلزم من حلوله سبحانه في خلقه أن يكون محصوراً فيهم، ومحاطاً بهم، وهو باطل؛ لأنّه إذا كان محصوراً في خلقه ومُحاطاً بهم فإنّه لا يصلح للألوهية؛ لأنّ هاتين الصفتين صفتا نقص، والإله يجب أن يكون منزَّهاً عن صفات النقص.

وقد روى الشيخ أبو جعفر الصدوق قدس سره بسنده عن المفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: من زعم أنّ الله في شيء، أو من شيء، أو على شيء، فقد أشرك. لو كان الله عزّ وجلّ على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان مُحدَثاً[1].

(١) التوحيد: ١٧٨.

وقوله عليه السلام: «فقد أشرك» لعلّ المراد به هو أنّه قد اعتقد بإله آخر غير الله تعالى، متّصف بهذه الصفات المذكورة في الحديث، ومن اعتقد بإله آخر مع الله تعالى فقد أشرك به.

إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة، التي لم يدلّ عليها أيّ دليل، والتي تتنافى مع الأدلّة العقلية التي دلّت على أنّ الله تعالى ليس بذي أجزاء؛ لأنّه لو كانت له أجزاء لكان مخلوقاً؛ لأنّ كلّ ذي أجزاء لا بدّ أن يكون مسبوقاً بأجزائه، فتكون أجزاؤه موجودة قبله، فيكون المركّب من مجموع الأجزاء في آنٍ ما معدوماً، وإنّما وُجد بعد أن تركّبت أجزاؤه، وهذا يستلزم وجود خالق غيره أفاض عليه الوجود، فيكون ممكناً مخلوقاً.

مضافاً إلى أنّ كلّ ذي أجزاء محتاج إلى أجزائه؛ لأنّه بها يتقوّم، فيكون محتاجاً إلى غيره؛ لأنّ جزء المركَّب مغاير لذلك المركّب، فإذا كان محتاجاً لغيره ثبت أنّه ممكن؛ لأنّ الاحتياج علامة الممكن المخلوق، والله تعالى ليس بمخلوق.

كما أنّه سبحانه ليس بمتحيِّز، أي أنّه لا يحتاج إلى حيِّز من الفراغ يشغله، لأنّه لو شغل حيِّزاً من الفراغ، وكان هذا الحيِّز بعض مخلوقاته، لما كان منفكًّا عن الحوادث؛ لأنّ جميع مخلوقاته كذلك، وما لا ينفكّ عن الحوادث فهو حادث كما أوضحناه فيما تقدّم.

وأكثر هذه المحاذير تلزم أيضاً على القول بأنّ الله تعالى حالٌّ في بعض خلقه كما هو واضح للمتأمّل.

قال العلّامة الحلّي قدس سره:

> إنّ وجوب الوجود يقتضي كونه تعالى ليس حالًّا في غيره، وهذا حكم متّفق عليه بين أكثر العقلاء، وخالف فيه بعض النّصارى القائلين بأنّه حلَّ في المسيح، وبعض الصوفية القائلين بأنّه حالٌّ في أبدان العارفين، وهذا المذهب لا شكّ في سخافته؛ لأنّ المعقول من الحلول

قيام موجود بموجود آخر على سبيل التبعية، بشرط امتناع قيامه بذاته، وهذا المعنى منتفٍ في حقّه تعالى؛ لاستلزامه الحاجة المستلزمة للإمكان[1].

٤- أنّه من الواضح جدًّا أنّ الخلق ليسوا بحالّين في الله تعالى؛ لأنّه لم يقم أيّ دليل على ذلك، بل قام الدليل على بطلانه؛ لأنّ الذات الإلهية ليست محلًّا لا للخلق ولا لغيرهم.

هذا مع أنّ الذي يزعم مثل هذا الزعم فإنّه يطلقه جزافاً من غير حجّة؛ ومن يقول ذلك فإنّا نسأله: كيف يكون البشر حالّين في الله ولا دليل عندهم على ذلك، والله تعالى لم يخبرهم بحلولهم فيه، وهم لا يشعرون بهذا الحلول، ولا فائدة يشعر بها الخلق من مثل هذا الحلول؟

ثمّ كيف يمكن أن يجعل الله تعالى خلقه حالّين فيه وهم يعصونه بجميع أنواع المعاصي الشنيعة والقبيحة؟ فإنّ الناس لم يتركوا موبقة إلا وفعلوها، ولم يتركوا عظيمة إلا وارتكبوها!!

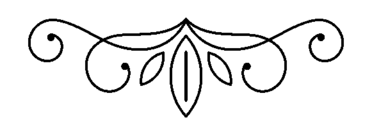
وما هي الحكمة الداعية لجعل هؤلاء العاصين المذنبين حالّين فيه سبحانه؟ وهل مثل هذا الحلول ينفعهم في شيء؟

كلّ هذه الأمور تجعلنا نقطع بأنّ القول بأنّ الخلق حالّون في الله قول سخيف جدًّا، لا يستحقّ أن يطال فيه الكلام، وما ذكرناه كافٍ في ردّه، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) كشف المراد: ٣١٨.

إثارات حول إيجاد الخلق وخلق المذنبين



الفائدة من خلق الخلق

السؤال (١٤): لماذا خلق الله الخلق وهو لا يحتاج إليهم؟

والجواب:

١- أنّ الله تعالى خلق الكون لمصالح مهمّة: فإنّ الخلق فعل صادر عن الله سبحانه، وهو سبحانه وتعالى أعلم بمراداته وغاياته، وأعرف بالحِكَم والمصالح الداعية إلى خلق هذا الخلق بهذا النحو الذي نراه، والله تعالى حكيم، لا يفعل شيئاً مهمًّا كخلق هذا الكون وما فيه إلا لمصالح عظيمة تقتضي ذلك.

ونحن إن علمنا بالعلّة الداعية إلى خلق الخلق فهذا خير وفضل، وإلا فإنّ ثقتنا بالله تعالى وعلمنا بحكمته سبحانه تجعلنا نعتقد أنّه ما خلق هذا الخلق إلا لمصالح عظيمة ومنافع جليلة.

٢- علّة الخلق هي العبادة: فإنّ الله تعالى بيَّن في كتابه العزيز أنّ علّة خلق الخلق هي العبادة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وهذه الآيات واضحة الدلالة على أنّ الغاية من خلق الجنّ والإنس هي أن يعبدوا الله ربَّهم، والمجيء بـ «ما» و «إلّا» يدلّ في لغة العرب على الحصر، أي أنّ الآية الأولى تدلّ على أنّه لا علّة من خلق الخلق إلا العبادة المذكورة.

وفي قوله: «يَعْبُدُونِ» - أي يعبدونني - دلالة على أن علّة الخلق هي عبادة الله تعالى بخصوصه، لا حصول العبادة من الجنّ والإنس كيفما اتّفق حتى لو كانت العبادة لمن عداه سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ يدلّ على أنّ منفعة عبادتهم لله سبحانه عائدة إليهم، وأنّ الله تعالى لا ينتفع بعبادتهم شيئاً؛ لأنّه سبحانه غنيّ عن العالمين، ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ [النساء: ١٣١]، وقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

والرِّزْق: عنوان عام شامل لجميع المنافع الماديّة والمعنويّة، وخصَّصه الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره بالحلال فقط دون الحرام[1].

وقال الشيخ الطبرسي قدس سره في (مجمع البيان) في تفسير الآية: قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، فأخبر أنّه خلقهم للعبادة، فلا يجوز أن يكون خلقهم للنّار.

وقال أيضاً:

> ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي لم أخلق الجنّ والإنس إلا لعبادتي، والمعنى لعبادتهم إياي، عن الربيع. فإذا عبدوني استحقّوا الثواب. وقيل: إلّا لآمرهم وأنهاهم، وأطلب منهم العبادة، عن مجاهد[2].

وقال الشيخ الطوسي قدس سره في تفسير هذه الآية:

> هذا إخبار من الله تعالى أنّه لم يخلق الجنّ والإنس إلا لعبادته، فإذا عبدوه استحقّوا الثواب... وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبِّرة

---

(١) قال قدس سره في كتابه (التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٣٦٠): والرِّزْق: هو ما للحيّ الانتفاع به على وجه ليس لغيره منعه منه، والحرام ليس برزق؛ لأنّ الله تعالى منع منه بالنهي والحظر، وكلّ رزق فهو من الله تعالى، إمّا بأن يفعله أو يفعل سببه؛ لأنّه ممّا يريده.

(٢) مجمع البيان ج ٦، جزء ٢٦، ص ٢٢.

القائلين: بأنّ الله خلق كثيراً من خلقه للكفر به والضلال عن دينه، وخلقهم ليعاقبهم بالنيران؛ لأنّه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى تناقض ولا اختلاف، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] قد بيّنّا في ما مضى أنّ اللام لام العاقبة. والمعنى: أنّه خلق الخلق كلّهم لعبادته، وتصير عاقبة كثير منهم إلى جهنّم بسوء اختيارهم من الكفر بالله وارتكاب معاصيه.

إلى أن قال:

وقوله: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ معناه: نفي الإيهام عن خلقهم لعبادته أن يكون ذلك لفائدة تقع وتعود عليه تعالى، فبيَّن أنّه لفائدة النفع العائد على الخلق دونه تعالى؛ لاستحالة النفع عليه ودفع المضارّ؛ لأنّه غنيّ بنفسه، لا يحتاج إلى غيره، وكلّ الناس محتاجون إليه، ومن زعم أنّ التأويل: «ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم»، فقد ترك الظاهر من غير ضرورة. وقال ابن عباس: معنى ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾: إلا ليتقرَّبوا لي بالعبودية طوعاً وكرهاً.

ثم بيَّن تعالى أنه جلّ وعزّ هو الرزّاق لعباده، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾، والخلق لا يرزقونه، ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ صاحب القدرة، ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ ومعناه: أنّه القويّ الذي يستحيل عليه العجز والضعف؛ لأنّه ليس بقادر بقدرة، بل هو قادر لنفسه، ولأنّه ليس بجسم، والجسم هو الذي يلحقه ضعف، ومن خفض ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ - وهو يحيى بن وثّاب - جعله صفة للقوّة، وذكره لأنّه ذهب إلى الحبل والشيء المفتون يريد القوة... ومن فسَّر ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ بالشديد فقد غلط؛ لأنّ الشديد هو الملتف بما يصعب معه تفكيكه، ووصف القوّة بأنّها أشدّ يؤذن بالمجاز، وأنّه بمعنى أعظم[1].

(١) التبيان في تفسير القرآن ٩/ ٣٩٨.

وظاهر كلام الشيخ الطوسي والشيخ الطبرسي قدس سرهما وغيرهما أنّ العبادة ليست هي الغاية الأساس للخلق، بل هي وسيلة لشيء آخر غيرها، وهو تعريض الخلق للنفع العظيم الدائم المقرون بالتبجيل والإكرام، والعبادة هي السبب المؤدّي للحصول على ذلك النفع، فذكر السبب وهو العبادة، وأراد المسبَّب، وهو النفع العظيم الدائم.

والمراد بتعريض الخلق للنفع الدائم تعريضهم لأسبابه المؤدّية إليه، وهي عبادته سبحانه، ببعث الرسل إليهم، الذين يبيِّنون لهم تكاليفهم العَقَدِيّة، وتفاصيل العبادات والمعاملات وحدودها، وشرائطها، وكلّ ما يتعلّق بها.

قال الشيخ الطبرسي قدس سره في مجمع البيان:

> إنّ الغرض في خلقهم تعريضهم للثواب، وذلك لا يحصل إلا بأداء العبادة، فصار كأنّه سبحانه خلقهم للعبادة. ثمّ إنّه إذا لم يعبده قوم لم يبطل الغرض، ويكون كمن هيَّأ طعاماً لقوم، ودعاهم ليأكلوه، فحضروا، ولم يأكله بعضهم، فإنّه لا يُنسب إلى السَّفَه، ويصحّ غرضه، فإنّ الأكل موقوف على اختيار الغير، وكذلك المسألة، فإنّ الله إذا أزاح علل المكلَّفين من القدرة والآلة والألطاف، وأمرهم بعبادته، فمن خالف فقد أُتي من قبل نفسه، لا من قبله سبحانه[1].

ولعلّ قائلاً يقول: إذا كان الغرض الأساس من خلق الخلق هو نفعهم بالنفع العظيم الدائم المقرون بالتعظيم فإنّه لا حاجة حينئذ لأن يأمرهم بالعبادة، أو يمتحنهم، ويكلّفهم بالتكاليف الشاقّة عليهم، حتى إذا فشلوا عذّبهم.

والجواب: أنّ خلق هذا الكون العظيم، وبعث الأنبياء والرسل والحجج عليهم السلام لا يحسن من أجل نفع قليل مؤقّت مشوب بالأكدار والآلام والأحزان، وإنّما يحسن من أجل نفع دائم عظيم مقرون بالإجلال والتعظيم، والإجلالُ

---

(١) مجمع البيان ٥/ ١٦١.

والتعظيمُ لا يحسن لمن لا يستحقّ، فلو أنّ زيداً رأىٰ رجلاً سيِّئاً، فقام إليه وبجّله وعظمه أشدّ التعظيم، ثمّ بعد انصراف ذلك الرجل السيِّئ سأل الناسُ زيداً: هل تعرف هذا الرجل السيِّئ الذي بالغتَ في تعظيمه؟! فقال: نعم، أعرفه حقَّ المعرفة، وأعلم أنه رجل سيّئ جدًّا. فسألوه ثانية: إذن لماذا عظَّمته كلَّ هذا التعظيم؟ ألا تعلم أنّه لا يستحقّ التعظيم؟ قال: أعلم أنّه لا يستحقّ التعظيم، ولكنّي أردت أن أعظّمه في هذا اليوم. فلا شكّ أنّ الناس يستهجنون عمله، ويستقبحونه، ويذمّون زيداً على هذا الفعل القبيح.

وعليه، فإنّ الله تعالى لما أراد أن ينفع خلقه بالنفع الذي وصفناه، كلَّفهم ليتبيّن لهم من يستحقّ هذا النفع الدائم المقرون بالتعظيم ممّن لا يستحقّ.

قال تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ١، ٢].

وحاصل جواب السائل هو أنّ الله تعالى خلق الخلق وهو لا يحتاج إليهم، لأنّه سبحانه أراد أن ينفعهم النفع العظيم الدائم المقرون بالتعظيم، لا أن ينتفع بهم؛ لأنّه تعالى غنيّ عنهم وعن عبادتهم، وفائدة عبادتهم تعود إليهم لا إليه سبحانه.

لماذا خلق الله المذنبين؟

السؤال (١٥): لماذا خلق الله هؤلاء البشر وهو على علم تامّ بأنّهم سيلحدون؟ إذن، الخطأ ليس خطأهم، فهل يريد الله أن يخلق الناس لكي يعذّبهم في الآخرة؛ لمجرّد أنّهم لم يقتنعوا بذلك الكتاب الذي أنزله قبل ١٤٠٠ سنة؟

والجواب:

١ - أنّ الله أنعم على الكفّار بإيجادهم: فإنّ الله تعالى أنعم على جميع الناس بنعمة الوجود التي هي من أظهر النّعَم وأجلاها، وكلّ عاقل يعلم أنّ وجوده وحياته نعمة عظيمة لا تُقدَّر بثمن، فما فعله الربُّ سبحانه بالملحدين والكفّار العصاة وغيرهم هو أنّه أنعم عليهم بهذه النعمة، وأتبعها بنعم عظيمة كثيرة لا يمكن حصرها.

والله سبحانه وتعالى إنّما خلقهم لينفعهم، لا ليعذّبهم، فإنّهم خلقه وعباده، وهو أرحم بهم من أمّهاتهم، كما أنّه سبحانه لم يخلقهم لكي ينتفع منهم، فإنّه غنيّ عن جميع خلقه كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وقد بيَّنّا ذلك فيما تقدّم.

فإذا كان الغرض من خلق أولئك الملحدين وغيرهم هو الإنعام عليهم وتعريضهم للفوز العظيم بالنفع الكثير الدائم، فإنّ الله تعالى لم يخطئ بإحسانه لهم وإنعامه عليهم، وبتهيئة الفرصة لهم لنيل الثواب الدائم في الجنّة، وفشلُ أولئك الملحدين في نيل ذلك النعيم إنّما هو بسبب تركهم الطريق الصحيح المؤدّي إلى ذلك الثواب الذي أعدّه الله لمن يستحقّه، فالذنب ذنبهم في الحقيقة، والخطأ خطؤهم هم دون مَن سواهم، والله سبحانه لم يخطئ في شيء.

٢- أنّ العلم بعاقبة الكفّار لا يمنع من خلقهم: فإنّ عِلْم الله تعالى أنّ هذه الفئة ستُلحد في دينه لا يمنع مِن خلْقهم، والإنعام عليهم بنعم الدنيا الكثيرة، وتهيئة الفرصة لهم لنيل ثواب الآخرة، ولا يجعل صدور ذلك منه قبيحاً، خصوصاً أنّ الله تعالى بيَّن لهم طريق الحقّ وطريق الباطل، وأمرهم باتّباع الحق، ورغّبهم فيه، ووعدهم عليه بالنعيم المقيم في الدار الآخرة، وفي المقابل حذّرهم من الكفر والإلحاد، وتوعّدهم عليه بالنار والعذاب.

والله تعالى أعطى هؤلاء وغيرهم من العقول ما يميِّزون به بين الحقّ والباطل، ويعرفون به ما ينفعهم وما يضرّهم، وجعلهم مختارين في سلوك كلّ من طريق الخير وطريق الشر، وفتح لهم باب التوبة، ورفع عنهم المؤاخذة على ما لا يعلمون، ومع ذلك فإنّ هؤلاء الملحدين حاربوا ربّهم، وتمرّدوا عليه، ولم يتوبوا، ولم يرعووا عن كفرهم وإلحادهم، إلى أن جاءهم الموت.

ألا ترون أنّ هؤلاء الناس يستحقّون العقاب؟ أم أنّه يجب عليه سبحانه أن يكافئهم على كفرهم وإلحادهم وحربهم له؟!

٣- أنّ خلق الكافرين ليس قبيحاً: فإنّ عِلْمه تعالى بأنّ هؤلاء الناس سيكفرون بربّهم، ويُلحدون في دينهم، وسيموتون من دون أن يتوبوا من ذنوبهم، لا يجعل خَلْقهم قبيحاً، وحالهم حال الطبيب الذي فحص مريضاً، وشخّص له مرضه، ومنعه عن تناول بعض الأطعمة التي تضرّه، وأعطاه الدواء الذي يشفيه، مع أنّ الطبيب كان يعلم مسبقاً أنّ هذا المريض سيخالف أمره، وبالفعل فإنّ ذلك المريض ترك تناول الدواء، وأسرف في تناول الأطعمة التي تضرّه، فازدادت حالته سوءاً، واستفحل مرضه، فهل يلام الطبيب على معالجته، ووصف الدواء له في هذه الحالة؟

لا شكّ أنّ هذا الطبيب قد أحسن إلى ذلك المريض، ولم يسئ إليه في شيء، والذي أساء هو المريض نفسه؛ لأنّه بسبب جهله أو سوء اختياره ترك

تناول ما ينفعه، وفعل ما يضرّه.

وهكذا الحال مع أولئك الملحدين، فإنّ الله تعالى لم يسئ إليهم لَـمّا خلقهم وأنعم عليهم، ولم يضرّهم بأيّ نوع من الضرر، بل أحسن إليهم رغم علمه بأنّهم سيكفرون بدينه، ولن يؤمنوا به، وعلمه سبحانه بسوء أفعالهم لا يجعل خلقه لهم والإنعام عليهم قبيحاً ما دام الغرض من ذلك الخلق هو الإنعام عليهم، وتعريضهم للمنفعة العاجلة والآجلة.

وبتعبير آخر أقول: إنّ الفعل الحسن الجميل، لا ينقلب إلى فعل قبيح، بسبب عدم انتفاع بعض الناس به، أو تضرّرهم به إذا كان الضرر ناشئاً عن سوء تصرّفهم هم.

٤- **أنّ العذاب بعد إقامة الحجة:** فإنّ الله تعالى إنّما يعاقب الملحدين والكافرين إذا قامت عليهم الحجّة التامّة، فعاندوا وكابروا، وأمّا إذا لم تقم عليهم حجّة، أو بلغتْهم الحجّة ولكن كانت عقولهم قاصرة عن إدراك وجوب الإيمان بالله تعالى، كما لو كانوا يعيشون في مجاهيل أفريقيا، ولم يسمعوا بدين الله، ولم يدركوا بعقولهم أنّ هذا الكون له خالق، ولو عُرض عليهم الدليل فإنّهم لا يفهمونه، فلا شكّ في أنّ هؤلاء لا يحاسبهم الله على كفرهم، ولا يعذّبهم حتى لو كانوا ملحدين.

وممّا قلناه يتّضح جواب قوله: **وهل الله يريد أن يخلق الناس لكي يعذّبهم في الآخرة لمجرّد أنهم لم يقتنعوا بذلك الكتاب الذي أنزله قبل ١٤٠٠ سنة؟**

فإنّ عدم الاقتناع بالقرآن الكريم الذي وصفه السائل بأنّه كتاب أنزله قبل ١٤٠٠ سنة، ليس سبباً لاستحقاق العقاب، خصوصاً إذا كان عدم الاقتناع بالقرآن ناشئاً عن قصور في الفهم، أو العجز عن إدراك أنّه كتاب من عند الله تعالى، فإنّ الله تعالى لا يحاسب هؤلاء القاصرين؛ لأنّه يحاسب الناس على قدر عقولهم.

وأمّا إذا كانوا محاربين لله ولرسوله، ومعاندين ومكابرين، قد جحدوا القرآن الكريم وهم يعلمون بأنّه من عند الله تعالى، وفوق ذلك ارتكبوا السيّئات والذنوب العظام، وظلموا ضعفاء الخلق، وأفسدوا العباد والبلاد، فإنّهم يستحقّون العقاب على سوء أفعالهم.

وعلم الله بأنّهم سيلحدون ويكفرون ويعملون المعاصي، لا يقلّل من جرمهم، ولا يجعل عقابهم على كفرهم وسائر ذنوبهم قبيحاً، ولا يصحّ معه نسبة الخطأ إليه سبحانه دونهم؛ لأنّ الله تعالى محسن لهم ومنعم عليهم، وهم مسيئون ومذنبون، فما قاله السائل من أنّ الخطأ حينئذ يكون خطأه سبحانه لا خطأهم واضح البطلان.

لماذا يغضب الله على العصاة من خلقه؟

السؤال (١٦): لماذا لا يغضب الله على كفّار اليوم، بينما غضب سابقاً على كفّارٍ عَلِمَ مسبقاً بأنّهم لن يؤمنوا به؟ وكيف يغضب في الأساس إن كان يعلم بكلّ شيء، وكان قادراً على كلّ شيء، وهو من خلقهم، وعلى علم كامل بالغيب، فكيف يغضب على أشياء هو يعلم مسبقاً أنّها ستحدث؟

والجواب:

١- أنّ غضب الله عقوبته: فإنّه لا يُراد بغضب الله تعالى هذه الحالة التي تحدث للإنسان من الانفعال النفسي، واحمرار الوجه، وانتفاخ الأوداج، واتّساع العينين، والتوثّب للانتقام، فإنّ هذه الحالة إنّما هي من العوارض التي تحدث للأجسام، والله تعالى منزَّه عنها، وإنّما غضبه سبحانه هو عقوبته للعصاة والمذنبين، كما أنّ رضاه سبحانه عن المطيعين هو إثابته لهم، وهو استعمال مجازي؛ لأنه إطلاق السبب وإرادة المسبَّب، فإنّ الغضب عادة ما يكون سبباً للعقاب.

وقد روى الكليني قدس سره عن بعض الأصحاب قال: كنتُ في مجلس أبي جعفر عليه السلام إذ دخل عليه عمرو بن عبيد، فقال له: جُعلت فداك، قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ [طه: ٨١]، ما ذلك الغضب؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: هو العقاب يا عمرو، إنّه من زعم أنّ الله قد زال من شيء إلى شيء فقد وصفه صفة مخلوق، وإنّ الله تعالى لا يستفزّه شيء فيغيّره[1].

قال المولى محمد صالح المازندراني قدس سره:

لَـمّا كان الغضب عبارة عن ثوران النفس وحركة قوَّتها الغضبيّة عن

(١) نفس المصدر ١/ ١١٠.

تصوُّر المؤذي والضارّ؛ لإرادة مقاومته ودفعه، وهو يوجب ثوران دم القلب، وتحرُّك النفس من حال إلى حال؛ لإرادة الانتقام، وإيقاع السوء والعقاب بالمغضوب عليه، وكان ذلك من خواصِّ المخلوق القابل للانفعال والتغيّر من حال إلى حال، أشكل ذلك على السائل، فسأل عن المقصود منه[١].

فإذا عُلم ذلك نقول: إنّ المذنبين في هذا العصر أو غيره يستحقّون العقاب على أعمالهم القبيحة، والله سبحانه وتعالى لم يُعطِ مذنبي هذا العصر صكّ براءة من العقاب على ما فعلوه من ذنوب وآثام كي يمكن لقائل أن يقول: «إنّ الله تعالى لم يغضب على كفّار هذا العصر!!»، علماً أنّ العقاب الحقيقي لله تعالى إنّما هو في يوم القيامة كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

٢- أنّ سبب غضب الله تعالى هو ارتكاب المعاصي: فإنّ الله تعالى يغضب على كلّ من فعل المعاصي والجرائم والمنكرات، إذا لم يتعقّب ذلك بالتوبة، سواء كان من كفّار هذا العصر، أم من كفّار الأزمنة السابقة، أم من المؤمنين به المنغمسين في المعاصي الكبيرة؛ لأنّ سبب غضبه سبحانه هو ارتكاب المعاصي والذنوب العظام، من دون فرق بين وقوع هذه الذنوب والموبقات في الزمان السابق أو في هذا العصر. قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

ولا أدري لِـمَ جزم السائل بأنّ الله تعالى لم يغضب على كفّار هذا العصر؟! فإنّ الله تعالى لم يخبر أحداً بأنّه لم يغضب على العصاة المذنبين في هذا العصر الذي تسوده الموبقات والجرائم والحروب التي يُقتل فيها المدنيّون الأبرياء بغير حقّ، وتُنتهك الأعراض، وتُسلب الأموال والممتلكات، خصوصاً

(١) شرح أصول الكافي ٣/ ٢٧٢.

أنّ النصوص الدينية لم تستثنِ مذنبي عصر من العصور عن أن يحلّ عليهم غضب الله تعالى وسخطه.

وعدم معاجلة العصاة المذنبين بالعقوبة في هذا الزمان لا يعني أنّه سبحانه ليس بغاضب عليهم، فإنّ الله تعالى يمهل المذنبين ولا يهملهم، وإنّما يَعْجَل من يخاف الفوت، والله تعالى لا يخاف أن يفوته ظلم ظالم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وحكمة الله سبحانه ورحمته قد اقتضتا ألّا يُعاجِل الناس بالعقوبة على معاصيهم، بل يعطيهم الفرص الكثيرة للتوبة وتدارك ما جنتْه أيديهم، قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

أو أنّ الله تعالى لا يعاجل العصاة بذنوبهم؛ لكي يزدادوا إثماً، ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

٣- أنّ عدم المعاجلة بالعقوبة لا يستلزم عدم الغضب: فإنّ الظاهر من كلام السائل أنّ دليله على أنّ الله تعالى غضب على الكفّار السابقين ولم يغضب على كفّار اليوم هو أنّ الله تعالى أنزل عذاب الاستئصال على عاد، وثمود، وقوم نوح، ولوط، وغيرهم، ولم ينزل مثل ذلك العذاب على كفّار هذا العصر.

وهو استدلال فاسد؛ لأنّ علامات غضب الله تعالى ليست منحصرة في إنزال عذاب الاستئصال، إذ يمكن أن يتحقّق بإنزال أنواع متعدّدة من العقوبات التي سيأتي ذكرها قريباً.

فقد روى الكليني ﭘ بسنده عن الأصبغ بن نباتة، قال: قال أمير

المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا غضب الله على أمّة ولم يُنزل بها العذاب غلتْ أسعارها، وقصرت أعمارها، ولم تربح تُجّارها، ولم تَزْكُ ثمارها، ولم تغزر أنهارها، وحُبس عنها أمطارها، وسُلِّط عليها شرارها[1].

وإلى هذا وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ووقوع أمثال هذه الأمور في هذا العصر كثير لا يخفى، فكيف يصحّ أن يقال: إنّ الله تعالى لم يغضب على كفّار هذا العصر؟!

وغضب الله المتمثّل في العقوبة على المعاصي يمكن أن يتحقّق بعدّة أنحاء، منها:

١- **الكوارث الطبيعية**: كالزلازل والبراكين، والسيول، والأعاصير، والتسونامي، والانهيارات الأرضية والثلجية، والحرائق، والجفاف، والاحتباس الحراري، وغيرها، وهي من أعظم ما يصيب الناس على مرّ العصور.

ولو نظرنا إلى الأضرار التي نتجت عن بعض هذه الأمور كالزلازل مثلاً لوجدناها كبيرة جدًّا، فمن الزلازل المدمّرة:

١- زلزال شانشي في الصين: حدث في ٢٣ يناير سنة ١٥٥٦م، وهو أكبر زلزال سُجّل من حيث عدد الضحايا، حيث بلغ ضحاياه ٨٣٠٠٠٠ نسمة. ويُعدّ هذا الزلزال خامس أكبر الكوارث الطبيعية في التاريخ، وقد قِيْسَ حجم الدمار الناتج عن هذا الزلزال بما يخلّفه تفجير قنبلة نووية إذا ما أُهملت الآثار

(١) نفس المصدر ٥/ ٣١٧.

الجانبية للقنبلة.

وزلزال شانشي لم يكن أسوأ الكوارث التي حلّت بالصين، فقد قُتل عشرات الملايين من الصينيّين خلال سنوات الكوارث الطبيعية الثلاث التي حدثت ما بين عامي ١٩٥٩ و١٩٦١م[١].

٢- الزلزال الذي ضرب مدينة (تانغشان) الشمالية في الصين عام ١٩٧٦م، وكانت قوّته ٧,٥ درجة، وقد تسبّب في مصرع ٢٥٥ ألف شخص، وهي أكبر حصيلة قتلى يوقعها زلزال خلال القرون الأربع الماضية، والثانية في التاريخ[٢].

٣- زلزال المحيط الهندي في ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٤ الذي أعقبه أشهر موجة تسونامي ضربت سواحل العديد من الدول، منها: أندونيسيا، وسريلانكا، وتايلاند، والهند، والصومال وغيرها، حيث وُصف هذا الزلزال بأنّه أحد أسوأ الكوارث الطبيعية التي ضربت الأرض على الإطلاق، حيث قُتل فيه ما يقارب ٢٨٣٠٠٠ شخص[٣].

٤- زلزال حلب: حدث في ١١٣٨م بالقرب من مدينة حلب في شمالي سوريا، وقد صَنّفت هيئة المسح الجيولوجي الأمريكية زلزال حلب بأنّه رابع أخطر زلزال في التاريخ، وقد بلغ عدد الضحايا الذين سقطوا ٢٣٠٠٠٠ قتيل، وقُدّرت شدّة الزلزال بـ ٨,٥ درجة على مقياس ريختر[٤].

---

(١) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل، زلزال شانشي عام ١٥٥٦.
https://global.britannica.com/event/Shaanxi-province-earthquake-of-1556

(٢) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل.
http://news.bbc.co.uk/onthisday/hi/dates/stories/july/28/newsid_4132000/4132109.stm

(٣) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل.
https://www.theatlantic.com/photo/2014/12/ten-years-since-the-2004-/indian-ocean-tsunami/100878

(٤) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل، زلزال حلب ١١٣٨. ←

٥- زلزال هايتي سنة ٢٠١٠م: الذي بلغت قوّته ٧ درجات على مقياس ريختر، وقُتل فيه حوالي ٢٣٠٠٠٠ شخص، وشُرِّد أكثر من مليون شخص[(١)].

٦- زلزال لشبونة (عاصمة البرتغال): حدث في ١ نوفمبر ١٧٥٥م، في يوم عطلة عيد جميع القدّيسين، وهو من أكثر الزلازل فتكاً وتدميراً في التاريخ، حيث قُتل فيه بين ٦٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ شخص، وأعقب الزلزال تسونامي وحرائق، ممّا أدّى إلى تدمير شبه كامل لمدينة لشبونة[(٢)].

وهناك زلازل أخرى كثيرة يمكن العثور على معلومات مفصّلة عنها في الشبكة العنكبوتية.

٢- ظهور أمراض وأوبئة وآفات لم تكن معروفة: فقد ظهرت في هذا العصر أمراض لم تكن معروفة من ذي قبل، من أشهرها مرض نقص المناعة المكتسبة المعروف بمرض الأيدز، وكان أوّل تسجيل لظهور هذا المرض في ٥ يونيو عام ١٩٨١م، عندما اكتشفته وكالة مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها (CDC) في الولايات المتّحدة الأمريكية في خمسة رجال من المثليّين جنسيًّا في لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا[(٣)].

وبحسب إحصائية سنة ٢٠١٥م فإنّ العدد التقديري للمصابين الأحياء بهذا المرض حول العالم نحو ٣٦,٧ مليون شخص، وفي خلال هذا العام فقط توفّي ١,١ مليون شخص بسبب الأسباب المرتبطة بفيروس نقص المناعة البشرية على الصعيد العالمي، وأصيب ٢,١ مليون شخص، علماً أنّ هذا المرض

← https://global.britannica.com/event/Aleppo-earthquake-of-1138

(١) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل.

http://time.com/3662225/haiti-earthquake-five-year-after
http://www.bbc.co.uk/bitesize/ks3/geography/physical_processes/plate_tect
/onics/revision/7

(٢) موسوعة ويكيبيديا العربية، مادة: كارثة طبيعية، قائمة الزلازل، زلزال لشبونة عام ١٧٥٥.

(٣) https://www.aids.gov/hiv-aids-basics/hiv-aids-101/aids-timeline

قد أودى بحياة أكثر من ٣٥ مليون شخص حتى نهاية سنة ٢٠١٥[(١)].

وقد روى الكليني قدس سره بسنده عن العباس بن هلال الشامي، قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون[(٢)].

٣- تسليط الأشرار على العصاة: وهذا بلاء عام في أكثر بقاع الأرض، وقد روى الكليني قدس سره بسنده عن عبّاد بن صهيب عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: يقول الله عزّ وجلّ: إذا عصاني من عرفني سلّطتُ عليه من لا يعرفني[(٣)].

٤- الحرمان من الرِّزْق: وهو يحصل بأسباب مختلفة، من ضمنها قلّة الدخل، وشحّ السِّلَع، وفقدان الرغبة فيها، وعدم التمكّن من الوصول إليها، ونحو ذلك، وفي الحديث الذي رواه الكليني قدس سره بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: إنّ الذنْب يحرم العبد الرّزق[(٤)].

وعن الفضيل عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّ الرجل ليذنب الذنب فيُدرأ عنه الرّزق. وتلا هذه الآية: ﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٧ – ١٩][(٥)].

٥- سلب النِّعم: وهذا ملاحظ في كثير من الدول التي كانت منعّمة بل مرفّهة، ثمّ انقلب حالها إلى أسوأ حال، فصار أهلها لا يجدون قوت يومهم، وإليه وردت الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ

---

(١) http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs360/en/.

(٢) الكافي ٢/ ٢٧٥.

(٣) نفس المصدر ٢/ ٢٧٦.

(٤) نفس المصدر ٢/ ٢٧١.

(٥) نفس المصدر.

ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢].

وروى الكليني قدس سره بسنده عن سماعة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ما أنعم الله على عبد نعمة فسلبها إياه حتى يذنب ذنباً يستحقّ بذلك السلب[١].

٦- **الخوف من السلطان**: وهذا إمّا أن يكون عامًّا، ولعلّه يكون بسبب بطش السلطان وشدّته، كما هو حاصل في كثير من الدول التي تكون أنظمة الحكم فيها ديكتاتورية، أو ربّما يحصل هذا الخوف لأشخاص معيّنين صاروا مطلوبين عند السلطة الحاكمة لأسباب معيّنة، وربّما يكون سبب خوفهم هو ارتكابهم بعض الذنوب الكبيرة، وقد روى الكليني قدس سره بسنده عن يونس بن يعقوب عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّ أحدكم ليكثر به الخوف من السلطان وما ذلك إلا بالذنوب، فتوقّوها ما استطعتم، ولا تمادوا فيها[٢].

٧- **المرض والصداع والعثرة والخدشة**: فقد روى الكليني قدس سره بسنده عن مسمع بن عبد الملك، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]: ليس من التواء عِرْق، ولا نَكْبَة حَجَر[٣]، ولا عثرة قدم، ولا خدش عود، إلا بذنب، ولَـمَا يعفو الله أكثر، فمن عجَّل الله عقوبة ذنبه في الدنيا فإنّ الله عزّ وجلّ أجلُّ وأكرم وأعظم من أن يعود في عقوبته في الآخرة[٤].

والذي يظهر من بعض الروايات أنّ الذي ينشأ عن الذنوب هو بعض المصائب والأمراض، لا كلّ مرض أو مصيبة، وإلا فإنّ حجج الله تعالى

---

(١) نفس المصدر ٢/ ٢٧٤.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٢٧٥.

(٣) النكبة: هي ما يصيب الإنسان من الحوادث (النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١١٣).

(٤) الكافي ٢/ ٢٤٥.

أصابتهم أمراض ومصائب عظام، ولا شكّ في أنّ ذلك وقع عليهم من غير ذنب، وكذا ما يقع على غير المكلّفين كالأطفال والمجانين.

وهنا لا بدّ من التنبيه على أنّ نزول العذاب على العصاة يتوقّف على أمرين، هما: استحقاق أولئك العصاة للعذاب، وعدم وجود ما يمنع من نزول العذاب عليهم، وقد دلّت أحاديث على أنّ وجود الأطفال الرُّضَّع والشيوخ الضعفاء والبهائم في بلاد، ربّما يمنع من نزول العذاب على من يسكن في تلك البلاد من العصاة.

فقد روى الكليني قدس سره بسنده عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: إنّ لله عزّ وجل في كلّ يوم وليلة منادياً ينادي: مهلاً مهلاً عباد الله عن معاصي الله، فلولا بهائم رُتَّع، وصبية رُضَّع، وشيوخ رُكَّع، لَصُبَّ عليكم العذاب صبًّا، تُرَضُّون به رضًّا[1].

٤- أنّ العقوبة على المعصية بعد وقوعها: فإنّ علم الله سبحانه بمعصية العبد قبل حدوثها لا يستلزم عدم وقوع الغضب منه بعد وقوعها؛ لأنّ غضب الله تعالى كما بيّنّا آنفاً لا يراد به الانفعال النفسي، وإنّما هو عقابه وعذابه العاجل أو الآجل الناشئ عن استحقاق المذنبين له، والله تعالى حكم بأنّهم مستحقّون للعقاب الأليم، وقد توعّدهم بذلك، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقال: ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وما توعّدهم به سيقع إن شاء سبحانه، سواء عُجِّلت لهم العقوبة في الدنيا أو أُخِّرتْ إلى يوم القيامة، خصوصاً إذا كان عدم إنزال العذاب بهم يتنافى في كثير من الأحيان مع عدل الله سبحانه.

وأمّا قول السائل: فكيف يغضب على أشياء هو يعلم مسبقاً أنّها

(١) نفس المصدر ٢/ ٢٧٦.

ستحدث؟

فجوابه: أنّ علم الله تعالى قبل وقوع المعصية بأنّ تلك المعصية ستحدث لا محالة، لا يمنع من وقوع الغضب منه سبحانه على عبده العاصي، ومعاقبته له في الدنيا أو الآخرة؛ لأنّ العبد العاصي يستحقّ العقاب على معصيته، وليس هناك ما يمنع من معاقبته من قبل الله تعالى.

والسائل تصوّر أنّ الخالق سبحانه وتعالى إذا كان يعلم مسبقاً بأنّ العبد سيرتكب المعصية، فإنّ حالة الغضب عنده ينبغي أن تكون منعدمة أو ضعيفة، كما هو حال البشر الذين لا يغضبون على من فعل أمراً كانوا يعلمون مسبقاً أنّه سيفعله.

وهذا تصوّر خاطئ ناشئ عن قياس الخالق على المخلوق، وهو قياس باطل؛ لوجود فوارق كبيرة جدًّا بين الخالق والمخلوق، ومن جهات مختلفة، خصوصاً أنّ غضب المخلوق مختلف بالكلّيّة عن غضب الخالق سبحانه كما بيَّنّا.

أضف إلى ذلك أنّا لا نسلّم أنّ المخلوق لا يغضب على من فعل أمراً كان يعلم مسبقاً أنه سيفعله، فإنّ الأب ربّما يَعْلَم أنّ ابنه المراهق يريد أن يدخّن السجائر مثلاً، فيمنعه عن ذلك وهو يعلم لأمور كثيرة أنّه لن ينتهي، لكنه من الواضح أنّه إذا رآه يدخّن السجائر فإنّه سيغضب بلا شكّ.

لماذا يعذّب الله الكفار؟

السؤال (١٧): لماذا لم يحدّد الله فقط أنّ جائزة المؤمن هي الحياة الخالدة في الجنّة، وأمّا الكافر فلن تكون له أيّ حياة خالدة، وحياته فقط هي حياته في الدنيا، ولا شيء بعدها؟

والجواب:

١- وجوب إقامة العدل: فإنّ السبب في أنّ الله تعالى لم يفعل ما ذكره السائل في السؤال، هو أنّ العقلاء كما أنّهم يكافِئون المحسن على إحسانه، فإنّهم يعاقبون المسيء على إساءته، والله سبحانه وتعالى كذلك.

وبتعبير آخر: أنّ المؤمن الصالح كما أنّه يستحقّ المكافأة على إيمانه وعمله الصالح، وأنّ مكافأته - وهي حياته الخالدة في الجنّة - أمر حسن بنظر العقلاء، فإنّ مرتكب الجرائم العظيمة - كافراً كان أم مؤمناً - يستحقّ العقوبة على أعماله السيّئة وجرائمه الكثيرة، ومعاقبته بإدخاله في نار جهنّم أمر حسن أيضاً بنظر العقلاء، فإنّه ليس من الإنصاف والعدل أن يترك اللهُ الكافرَ الظالم يعمل الجرائم الكثيرة، فيقتل، وينهب، ويُهلك الحرث والنَّسل، ويضلِّل النّاس، ويفسد البلاد والعباد، ثمّ يموت منعَّماً مرفّهاً لم يصبه سوء، فلا يعاقَب على ما اقترفته يداه من الآثام والذنوب، فإنّ عدم الانتصاف للمظلوم من الظالم المذنب المستحقّ للعقوبة قبيح لا يصدر من الله تعالى القادر على إقامة العدل بين عباده، وردّ ظلامة المظلوم إليه.

٢- قبح مكافأة الظالم: فإنّ الله تعالى عندما أمات الكافر المذنب الظالم الذي فعل الجرائم وأساء إلى الإنسانية، لو أنّه تركه ميتاً، ولم يرجعه إلى الحياة من

جديد، فلم يعاقبه على جرائمه وآثامه، فإنّه بذلك يكون قد كافأه على أعماله السيّئة؛ لأنّ ذلك الكافر قد فعل الجرائم الكثيرة، فلم يعاقَب، لا في الدنيا ولا في الآخرة، أي أنّ الله تعالى قد عفا عنه، وتجاوز عن كلّ جرائمه فلم يحاسبه عليها، والعفو نوع من أنواع المكافأة، ولا شكّ في أنّ مكافأة الظالم على ظلمه قبيحة لا تصدر من الله تعالى؛ لأنّ العقلاء يذمّون هذا الربّ القادر على معاقبة المستحقّين للعقوبة، التارك لها.

٣- أنّ الوعد بالعفو يُغري بالجهل: فإنّ وعد الله تعالى المذنبين والمجرمين والمسيئين بأنّه لن يعاقبهم في الدنيا، ولن يعذّبهم في الآخرة، هو في الحقيقة إذن لهم في فعل ما يشاؤون من الجرائم والآثام، ولا شكّ في أنّ ذلك سيؤدّي إلى تحوّل هذا العالم إلى غابة من الوحوش المفترسة، التي يأكل القويّ فيها الضعيف؛ لأنّ مَنْ أَمِنَ العقوبة أساء الأدب.

وعليه فإنّ مقتضى الحكمة أن تُسنّ القوانين الإلهية، التي تنظِّم حياة الإنسان من جوانبها المختلفة: الشخصية والأسرية والاجتماعية، وأن يبيَّن للناس ما هي المنافع الكبيرة التي ستُقدَّم لمن يلتزم بهذا النظام، والعقوبات الشديدة التي سيُعاقَب بها من يخالف هذه القوانين؛ من أجل تشجيع الناس على عمل الخير، وتخويفهم من عمل الشّر.

كما أنّ وعد المذنبين والعصاة المجرمين بالعفو يغري عامّة الناس بعمل المعاصي والذنوب والجرائم، خصوصاً إذا أيقن الإنسان أنّه قادر على الإفلات من الحكومات، إمّا بالتلاعب على القوانين والاحتيال عليها لتفادي العقاب الدنيوي، أو بالهروب إلى بلاد أخرى بعيدة، وإذا صارت هذه القناعة متأصّلة عند عامّة الناس فإنّ بعضهم سيأكل بعضاً.

وممّا قلناه يتبيّن أنّ تهديد الله للمذنبين ووعيده للمجرمين بالعذاب والعقوبة في يوم الحساب فيه منافع عظيمة لعامّة الخلق، إلا أنّ هؤلاء المذنبين

استحوذ عليهم الشيطان، وغلبت أهواؤهم على عقولهم، فلم يرعووا عن معاصيهم، ولم ينتفعوا بهذا الوعيد، وإنّما كابروا وتمرّدوا وتجبّروا، وأساؤوا، وظلموا، في حين أنّ أبواب التوبة كانت مفتوحة لهم على مصراعيها، لكنّهم لم يتوبوا حتى جاءهم الموت الذي كانوا يعلمون أنّه سيأتيهم، فلا شكّ في أنّ هؤلاء المذنبين المكابرين المتغطرسين المحاربين لله ولرسله، الذين جنوا جنايات عظيمة على هذه الإنسانية المعذَّبة، فظلموا الناس الأبرياء الضعفاء، وقتلوهم، وشرّدوهم، ونهبوا أموالهم، واستأثروا بمقدّرات الأمّة دونهم، يستحقّون العقوبة جزاءً لهم بما كسبت أيديهم.

لماذا يخلقنا الرب ثم يعذبنا؟

السؤال (١٨): الرَّبُّ خلقنا وهو يعلم أنّنا سنذنب، فلماذا يخلقنا ابتداءً؟ ولماذا يعذِّبنا؟

والجواب:

١- **عظم نعمة الوجود:** فإنّه من الواضح جدًّا أنّ خلق الإنسان نعمة عظيمة، وهي من أَجَلّ النِّعَم التي أنعمها الله علينا، وكلّ عاقل يعلم أنّ وجوده وحياته نعمة لا تُقدَّر بثمن، ولهذا فإنّه لو خُيِّر بين حياته وبين كنوز الدنيا لبذلها لإنقاذ حياته.

وعليه، فما فعله الرّبُّ سبحانه لنا هو أنّه أحسن إلينا بنعمة الوجود، وبالنعم الأخرى التي حصلنا عليها بعد تلك النعمة.

ونحن بيَّنّا فيما سبق أنّ الله سبحانه إنّما خلق الإنسان لينفعه بالنفع العظيم الدائم، لا لكي ينتفع منه، فإنّ الله غنيّ عن جميع خلقه كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، الدالّ على أنّ علّة الخلق هي العبادة، لا يتنافى مع ما قلناه؛ لأنّ العبادة سبب لإعطاء العبد الثواب الدائم في جنّات النعيم؛ لأنّ نعيم الله تعالى في الدار الآخرة مقرون بالتعظيم، وتعظيم من لا يستحقّ التعظيم قبيح كما بيّنّا فيما تقدّم، فلا بدّ من توسيط العبادة لحصول الاستحقاق، فالله تعالى ذكر السبب وهو العبادة، وأراد المسبَّب وهو الحصول على النعيم المقيم في الجنّة.

فإذا كان الغرض من الخلق هو نفعهم النفع العظيم الدائم، فإنّ الله تعالى

لا يمكن تخطئته لإحسانه لخلقه بالنِّعَم العظيمة، وتهيئة الفرصة لهم لنيل الثواب الدائم في الجنّة، خصوصاً إذا عرفنا أنّ عدم حصول العبد على ذلك النعيم إنّما هو بسبب فشله وكثرة معاصيه وآثامه، وتركه للطريق الصحيح المؤدّي إلى ذلك الثواب المُعَدّ لمستحقّيه.

٢- حُسْن إعطاء الفِرَص: فإنّ عِلْم الله تعالى بأنّ الناس سيخطئون ويذنبون لا يمنع من خلقهم، والإنعام عليهم بنعم الدنيا الكثيرة، وإعطائهم الفرصة لنيل ثواب الآخرة، خصوصاً أنّ الله سبحانه وتعالى جعل الالتزام بدينه سهلاً يسيراً عليهم، حيث لم يكلّفهم بما فيه حرج عليهم، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أضف إلى ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى قد فتح للإنسان الخاطئ في الدنيا باب التوبة على مصراعيه، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

كما أنّه سبحانه لا يؤاخذ الناس على ما لا يعلمونه، وما نَسُوه، وما غفلوا عنه، وما اضطُروا إليه، وما أُكرهوا عليه.

وكما فتح لهم أبواب رحمته في الدنيا، فإنه سبحانه فتحها لهم في يوم القيامة، فأذن لبعض خلقه في أن يشفع لبعض، وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة كما ورد في الحديث من يشفع لسبعين رجلاً كلّهم استحقّوا النّار.

٣- حسن العقاب على الذنب: فإنّ اقتراف العبد للذنوب والمعاصي ناشئ عن سوء اختياره، وخبث سريرته، وتجرّئه على ربّه المنعم عليه، والله

سبحانه وتعالى بيَّن لخلقه طريق الحقّ وطريق الباطل، وأمرهم بفعل الخير والصلاح، ورغّبهم فيه، ووعدهم عليه بالنعيم المقيم في جنّات النعيم، وفي المقابل حذّرهم من عمل المعاصي والآثام، وتوعّدهم عليها بالنّار والعذاب.

والله تعالى أعطى عبده العقل والتمييز، وبيَّن له ما يضرّه وما ينفعه، وجعله مختاراً في سلوك كلّ من طريق الخير وطريق الشر، وفتح له باب التوبة كما قلنا، ورفع عنه المؤاخذة على ما لا يعلم، وعلى النسيان والغفلة، وما اضطر إليه، وما أُكره عليه، ومع ذلك فإنّ العبد العاصي بسبب شقائه حارب ربّه، وتمرّد عليه، واعتدى على الضعفاء من خلق الله، فقتل، وظلم، وسرق، ونهب، وزنا، واغتصب، وعمل كلّ معصية، وارتكب كلّ موبقة، عالماً عامداً قاصداً مصرًّا.

وهذا العبد الشقي الغارق في الآثام والذنوب استكبر على ربّه، وتعالى على خالقه، ولم يتب، ولم يَرْعَوِ عن جرائمه وآثامه، إلى أن جاءه الموت.

فهل يستحقّ هذا العبد المجرم العقاب من الله تعالى؟ أم يجب على الله تعالى أن يكافئه على جرائمه وموبقاته، وألّا يعاقبه، وإلّا كان مخطئاً في خلقه؟!

٤- العلم بالذنْب لا يُقبِّح حُسْن الخَلْق: فإنّ عِلْم الله سبحانه بأنّ بعض الناس سيذنبون ويعصون، وسيموتون من دون أن يتوبوا من ذنوبهم، لا يجعل خَلْقهم قبيحاً.

ويمكن أن نوضِّح ذلك بمثال عرفي واضح، فنقول: لو أنّ رجلاً عمل وليمة فيها الكثير من صنوف الطعام اللذيذ، ودعا إليها جماعة كثيرة من الناس، وكان يعلم أنّه إن دعا زيداً فإنّه لن يُلبِّ دعوته، أو إذا لبَّاها فإنّه لن يأكل شيئاً من الطعام، ومع ذلك قام صاحب الوليمة بدعوة زيد، فلا شكّ أنّه لم يسئ إلى زيد بشيء، ولم يفعل في حقّه قبيحاً، رغم أنّه كان يعلم بما سيفعله ذلك المدعو، فإنّ علمه بسوء فعل المدعو لا يجعل دعوته له قبيحة ما دام الغرض من الدعوة

هو إكرام المدعوّين، وتعريضهم للمنفعة، وكسب الثواب بدعوته لهم.

وبتعبير آخر أقول: إنّ الفعل الحسن الجميل، لا ينقلب إلى فعل قبيح، إذا لم ينتفع به بعض الناس، بل حتى لو تضرّروا به إذا كان ضررهم ناشئاً عن سوء تصرّفهم هم.

٥- **ضرورة العقاب لإقامة العدل:** فإنّ الله تعالى آلى على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم، فأوجب على نفسه أن ينتصف للمظلوم من الظالم، وأن يعطي كلّ ذي حقّ حقّه.

وكلّ من نظر في الحوادث التي حدثت عبر التاريخ وفي عصرنا الحاضر يرى أنّ كثيراً من الشعوب ظُلمت، واضطُهدت، وسُلبت حقوقها، بل إنّ كثيراً من الناس قُتلوا من دون جرم وشُرّدوا بسبب الصراعات السياسية الكثيرة، وهؤلاء الجناة الظالمون القتلة لا بدّ أن ينالوا عقابهم في محكمة العدل الإلهية، فإنّ هذا هو مقتضى العدل بين الناس، وإلا فإنّ حقّ الضعيف المقتول ظلماً سيكون عرضة للضياع إذا لم يُنتصَف له من قاتله، وبما أنّ الله تعالى قادر على إرجاع حقّه إليه، والانتصاف له من ظالمه، فإنّه إذا لم يفعل ذلك كان معيناً للظالم على ظلمه، ومفرّطاً في حقوق الضعفاء المظلومين من خلقه، وهذا قبيح لا يصدر منه سبحانه.

٦- **قبح الإغراء بالجهل:** فإنّ غالب الناس إذا علموا أنّهم لن يُعاقبوا على جرائمهم، فلا شكّ أنّ هذا سيُغريهم بالجهل، وسيجعلهم يتمادون في الظلم والفجور والآثام، بل إنّ ذلك يُغري كلّ واحد من الناس بالظلم، والسرقة، ونهب أموال الغير، وارتكاب الجرائم والموبقات؛ لأنّ «من أَمِنَ العقوبة أساء الأدب»، وهذا أمر ملاحظ في غالب البشر، فلولا الوعيد الصادق بالعقوبة على الآثام والذنوب لصارت الحياة على الأرض لا تطاق، ولأكل القويّ من الناس الضعيف، ولو لم يكن في عقاب المذنبين إلا هذه الفائدة العظيمة لكفى.

وأمّا المذنبون الآخرون الذين لم يظلموا غيرهم، وإنّما ظلموا أنفسهم بآثامهم، فهؤلاء إن شاء الله غفر لهم، وهو الغفور الرحيم، وإن شاء عذَّبهم بذنوبهم، وتعذيبهم بذنوبهم ليس ظلماً لهم، ولا يعدّ فعلاً قبيحاً في نفسه؛ لأنّه سبحانه إنّما يعاقبهم على ذنوبهم وقبيح أعمالهم التي لم يتوبوا عنها، ولم يكفّروا عنها، ولا يعاقبهم ابتداءً من غير جرم.

لماذا يراقب اللهُ الإنسانَ في كلّ حركاته؟

السؤال (١٩): لماذا يتابع الله الإنسان ويراقبه ماذا يفعل، وماذا يأكل ويشرب، وكيف ينام، ويتبوّل، وينكح زوجاته، وكلّ هذا الهراء الذي يوضّح مدى طفولية تفكير هذا الإله المزعوم، ومن ثمّ يحاسبه في الآخرة؟

والجواب: أنّ ما ذكره السائل من مراقبة الإله للإنسان في الأكل والشرب والنوم والتبوّل والنكاح وغيرها غير دقيق؛ لأنّ الله تعالى عالم بجميع ما يفعله الإنسان في السِّرّ والعلانية، وإنّما جعل لكلّ إنسان ملائكة يسجّلون عليه ما يفعله من عمل صالح أو قبيح؛ لكي يكونوا شهوداً عليه في يوم القيامة إذا أراد أن ينكر أعماله السيِّئة ويتنصّل منها، كما هو دأب أكثر الناس الذين ينكرون جرائمهم ومعاصيهم عند الحساب.

والحكمة من جعل ملائكة يسجّلون على العباد الخير والشّرّ هي أنّ الله تعالى جعل للإنسان قوانين، وسنَّ له شرائع وأحكاماً، وألزمه باتّباعها؛ لكي تستقيم الحياة على الأرض، فلا يعتدي القويّ على الضعيف، ولا يسلب القوي قوت الضعيف، إلّا أنّ الإنسان بسبب كثرة طمعه وشدّة جشعه وجهله وعِظَم جرأته على الله تعالى كثيراً ما يخالف تلك القوانين، فيستحقّ العقوبة لأجل ذلك، ولا سيّما إذا كانت مخالفته مشتملة على التعدّي على الآخرين، بسفك دمائهم، أو سلب أموالهم، أو هتك أعراضهم، أو غير ذلك ممّا هو ظلم لهم، فإنّ ما يقتضيه العدل الإلهي هو الانتصاف للمظلوم من الظالم، وهذا أمر حسن وليس بقبيح، فإنّ الله تعالى قد آلىٰ على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم، وأن يُرجِع الحقوق إلى أصحابها.

والله تعالى لا يحاسب الإنسان على بوله ونومه إلا إذا كان في ذلك تعدٍّ

على الآخرين وهدر لحقوقهم، فإنّ الله تعالى يعاقب الإنسان الذي يتبوّل ويتغوّط ولا يتطهّر من بوله وغائطه، أو لا يطهّر ثيابه من نجاساته، فيعيش قذراً في القذارات، وربّما يخالط الناس بنجاساته، فينجّس أبدانهم وثيابهم ومأكلهم ومشربهم من حيث يشعر أو لا يشعر.

كما أنّه سبحانه ربّما يحاسب العبد أيضاً على نومه في دار اغتصبها من مالكها، وتصرّف فيها بغير حقّ، أو على قضائه عمره في الكسل والنوم، مع تركه الواجبات التي هي منوطة به، وتنصّله عن جميع مسؤولياته الأسرية والاجتماعية الملقاة على عاتقه، وعيشه على هامش هذه الحياة مستهلِكاً غير منتج، لا فائدة فيه، ولا نفع يُرتَجى منه.

وأمّا شرب الإنسان وأكله فإنْ كان حلالاً مباحاً له فلا عقاب فيه، بل هو واجب عليه؛ لأنّه يلزمه أن يقتات بما يُقِيم بدنه، ويُصلح به جسمه، وأمّا إذا تعدّى حدوده، فأكل ما هو محرَّم عليه كالخنزير وغيره من السباع المحرّم أكلها، أو شرب الخمر مثلاً فإنّ ذلك يؤدّي إلى الفساد في الأرض، بحسب الواقع الذي يعلمه الله تعالى، حتى لو خفي ذلك على كثير من النّاس، والإنسان منهي عن إحداث أيّ فساد في نفسه أو في الأرض؛ لأنّ الله تعالى خلق الخنزير لمصالح نحن لا نعلمها، ولم يخلقه للأكل، فمن أكله فقد حال دون تحقّيق تلك المصالح الواقعية، وهذا ربّما يؤدّي إلى الفساد في الأرض والإضرار بالنّاس.

وأمّا شرب الخمر فمضارّه على الشارب وغيره واضحة، ولهذا سُنَّت القوانين التي تمنع من قيادة السيارات تحت تأثير المسكر، وفُرضتْ العقوبات على ذلك؛ لما يسبِّبه الإسكار من الضرر الخاصّ والعامّ.

وأمّا نكاحه فإن كان مطابقاً للقوانين الإلهية التي تُحفَظ بها الفروج، وتنضبط بها الأسرة، وتُحفَظ بها الأنساب، فإنّ الله تعالى لا يعاقب العبد على نكاحه، وإنّما يثيبه عليه، وأمّا إذا اغتصب امرأة أجنبيّة فإنّ ذلك تعدٍّ على

أعراض الآخرين، وكلُّ من تعدّى على أعراض الآخرين فلا شكّ في أنّه يستحقّ العقاب الشديد الرادع له ولغيره؛ لما يُحدِثه الاغتصاب بالضحية من المضارّ الجسدية والنفسية والاجتماعية وغيرها.

وكذا إذا زنا، فإنّ الزنا مضافاً إلى أنّه من الأسباب الرئيسة لكثير من الأمراض الخطيرة كالأيدز والزهري وغيرهما، فإنّ الاكتفاء به يفكّك النسيج الأسري والاجتماعي للمجتمع الإنساني، ويتولّد عنه في العادة فئةٌ من أبناء الزنا الذين لم ينشؤوا في محيط أسري صحّي، والذين عاشوا حياتهم فاقدين لحنان الأمومة وعطف الأبوّة، ووجود أمثال هؤلاء في دور الأيتام ونحوها جناية على هؤلاء الأطفال الأبرياء من جهة، وجناية على المجتمع أيضاً من جهة مالية واجتماعية، وهدم للقوانين التي جعلها الله تعالى لحفظ الأسرة من الضياع والمجتمع من التفكّك، وهذا كافٍ في استحقاق العقوبة على هذه الجناية، خصوصاً أنّ الله تعالى جعل للرجل والمرأة سبلاً صحيحة وصحّية لإشباع الغريزة الجنسية والعاطفية، وهو الزواج المتعارف.

وكلُّ هذه الأمور أيضاً تعاقب عليها القوانين المعمول بها في الدول الحديثة، فإنّ من أكل من طعام غيره أو شرب من شرابه بدون إذنه فإنّه يضمنه، وإلا عوقب عليه، وكذا من تغوّط أو تبوّل على قارعة الطريق، أو نكح فتاة قاصرة فإنه يعاقب أيضاً.

وظنُّ بعضهم أنّ كلّ هذه الأمور ليست أسباباً حقيقية يُستحَقّ لأجلها العقوبة الشديدة، ناشئ عن عدم معرفة الأضرار الواقعية التي تنشأ عن هذه المخالفات، وعدم الإحاطة بأبعادها، وما يترتّب عليها من الأضرار الشديدة، التي ربما تمتدّ إلى أجيال عديدة تعاني من تلك المعصية، فإنّ آثار الذنوب والمعاصي عظيمة، وكثير من الناس يجهلونها، ولذلك يستهينون بالمعاصي والذنوب مع أنّها ربّما تحبس قطر السماء، وتمنع بركات الأرض.

فقد ورد في حديث صحيح رواه الشيخ الكليني قدس سره في (الكافي) ذكر فيه أنّ أبا حنيفة قضى في قضية بغير ما أنزل الله تعالى، فقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: في مثل هذا القضاء وشبهه تحبس السماءُ ماءها، وتمنع الأرض بركتها[1].

كما أنّ بعض المعاصي ربّما تؤثّر في الأعقاب وأعقاب الأعقاب كالزنا وغيره، فقد روي أنّ ولد الزنا لا يطهر إلى سبعة آباء[2].

والمراد بعدم الطهارة هي عدم الطهارة الروحية أو النفسية، وإلا فإنّ المعروف من فتاوى علماء المسلمين أنّهم يحكمون بالطهارة الجسدية لولد الزنا، فضلاً عن أعقابه، وأعقاب أعقابه.

وممّا قلناه يظهر أنّ الله سبحانه إنّما يحاسب الناس على البول والغائط والنكاح والنوم ونحوها في الحالات المحرّمة التي يترتّب عليها عادةً إيقاع الآخرين في المضرّة البالغة، وهو سبب كافٍ لاستحقاق العقاب.

وبهذا يتبيّن أنّ ما تصوّره السائل عن الخالق سبحانه، ووصفه له بأنّ تفكيره طفولي، ناشئ عن عدم فهم السائل لهذا الإله العظيم، وعدم معرفته بأحكامه التي يثيب على الالتزام بها، ويعاقب على مخالفتها، وممّا يؤسف له أنّ السائل تجاهل كلّ الأحكام الإلهية التي وضعها الله سبحانه لتنظيم حياة البشر من جميع نواحيها، وحِفْظ حقوق كلّ فرد منهم، وقصر نظره على صور قليلة مرتبطة بالأكل والشرب والنوم والبول والنكاح، وهذا خلاف الإنصاف والعدل في الحكم على هذا الرّبّ العظيم.

---

(١) الكافي ٥/ ٢٩١.

(٢) نفس المصدر ٥/ ٢٩١.

مبرّرات إنزال العذاب على الأطفال والحيوانات

السؤال (٢٠): تحدّث القرآن عن عقوبات جماعيّة لقوم ثمود وعاد ولوط واليهود وقوم نوح، ويوجد الكثير، وبغض النظر عمّا فعلوه، فإنّنا نتساءل: لماذا استحقوا تلك العقوبات جميعاً؟ ألا يوجد بينهم أطفال وحيوانات ونباتات قد تعرّضت لتلك العقوبات؟ فبأيّ ذنب عاقبهم؟

والجواب:

١- أنّه ورد في بعض الروايات أنّ الله تعالى أعقم أرحام النساء في قوم نوح أربعين سنة، ثمّ أنزل العذاب عليهم بعد ذلك، فلم يكن في ذلك الوقت رضيع أو طفل غير مكلّف.

ومن تلك الروايات ما رواه علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره بسنده عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: لمّا أراد الله عزّ وجلّ هلاك قوم نوح، عقم أرحام النّساء أربعين سنة، فلم يولد فيهم مولود[١].

وبحسب هذه الرواية فإنّه لم يكن في قوم نوح الذين نزل عليهم العذاب من كان عمره أقلّ من أربعين سنة، أي أنّهم كانوا كلّهم رجالاً ونساءً مستحقّين لنزول العذاب عليهم.

٢- لو أنّ الله تعالى أراد أن يُنزل العذاب على الرجال والنساء فقط، ويجعل الأطفال في مأمن من العذاب النازل، فإنّ إبقاء الأطفال والرّضع أحياء من دون آبائهم وأمّهاتهم إيقاع لهم في العُسْر والحرج الشديدين؛ لحاجتهم الماسّة إلى الآباء والأمّهات، أو توقّف حياة الأطفال على حياة آبائهم، فإذا استحقّ

(١) تفسير القمي ١/ ٣٢٦.

الآباء العقوبة العاجلة في الدنيا، فلا محذور في أن يُميت الله أولئك الأطفال والرُّضَّع من دون أن يشعروا بألم العذاب النازل عليهم، بل تكون إماتتهم نقلاً لهم من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة التي يُنَعّمون فيها بصنوف أنواع النعيم، ولا يصيبهم فيها سوء ولا ضيق، وهذا لا قبح فيه.

٣- أنّه قد ثبت في علم الله تعالى الذي لا يخطئ الواقع أنّ أولئك الأطفال سيفسدون في الأرض، ويقتلون النفس المحرّمة بغير حقّ، ويفعلون من الجرائم والآثام ما يستحقّون به العذاب الدائم، كما ذكر نبيُّ الله نوح عليه السلام ذلك في شأن قومه حيث قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٦،٢٧].

لكنّ الضرورة اقتضت إماتة أولئك الأطفال في حال طفولتهم، فلزم تعويضهم عن هذه الحياة بحياة أجمل وأفضل، وهذا خير لأولئك الأطفال من أن يكابدوا في هذه الأرض، ويرتكبوا المعاصي والآثام التي بها يستحقّون العذاب الدائم، فيكونون كآبائهم يوم القيامة.

ولولا الضرورة لكانت الحكمة تقتضي إبقاءهم كما أبقى الله تعالى العُصاة لما كانوا أطفالاً وهو يعلم أنّهم سيكبرون وسيعصونه سبحانه، لكن لما أُنزل عليهم العذاب في حال طفولتهم، فلا بدّ من تعويضهم على ما أصابهم، وهذا لا قبح فيه ولا ظلم.

٤- أنّا لو سلّمنا أنّ عذاب الاستئصال الذي نزل على الأمم السالفة كان قد شمل أطفالهم وحيواناتهم، فإنّ ما أصاب الأطفال إنّما هو بجناية آبائهم وأمّهاتهم، بمعنى أنّ العذاب الذي نزل على الأطفال إنّما هو بسبب الذنوب التي فعلها الآباء، وحالهم يشبه حال الذين يعملون المكائد والجرائم التي يترتّب عليها حدوث القحط، والغلاء، والحروب، وانتشار الأمراض والأوبئة،

ونحوها، فإنّ ما يصيب الأطفال وغيرهم من الأبرياء بسبب تلك الأعمال إنّما هو بجناية غيرهم ممّن ارتكبوا تلك الأعمال التي لها هذه الآثار السيّئة.

ويظهر من الأحاديث أنّ الذنوب العظيمة لها آثار طبيعية سيّئة.

منها: ما رواه الشيخ الكليني قدس سره في (الكافي) بسنده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طُفِّفتِ المكيال والميزان أخذهم الله بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلّها، وإذا جاروا في الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوّهم، وإذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتي سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو خيارُهم فلا يستجاب لهم[(١)].

وفي حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: خمس إن أدركتموهن فتعوّذوا بالله منهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعْلِنوها، إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدّة المؤونة وجور السلطان، ولم يمنعوا الزكاة إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوّهم، وأخذوا بعض ما في أيديهم، ولم يحكموا بغير ما أنزل الله [عزّ وجلّ] إلا جعل الله عزّ وجلّ بأسهم بينهم[(٢)].

٥- أنّ العذاب إذا نزل بقوم فإنّه يعمّ البريء والمسيء، ولا يصيب العصاة المستحقّين للعذاب فقط، وإنّما يعمّ العصاة المستحقّين وغيرهم، أمّا المذنب فبذنبه، وأمّا غير المذنب فلأنّه كان مع المذنب في مكان واحد نزل فيه

(١) الكافي ٢/ ٣٧٤.

(٢) نفس المصدر ٢/ ٣٧٣.

العذاب، وفي قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥]، إشارة إلى ذلك، فإنّ الفتن إذا نزلت عمّت، فأصابت من أجّج الفتنة، أو شارك فيها، ومن لم يشارك فيها بأيّ نحو.

وقد روى الشيخ الكليني ﷺ بسنده عن محمد بن مسلم، قال: مرَّ بي أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام وأنا جالس عند قاضٍ بالمدينة، فدخلتُ عليه من الغد، فقال لي: ما مجلس رأيتك فيه أمس؟ قال: قلت له: جُعلت فداك، إنّ هذا القاضي لي مُكْرِم، فربّما جلست إليه. فقال لي: وما يؤمنك أن تنزل اللعنة، فتعمّ مَنْ في المجلس[(١)].

وبسنده عن أبي هاشم الجعفري، قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: مالي رأيتك عند عبد الرحمن بن يعقوب؟ فقال: إنّه خالي، فقال: إنّه يقول في الله قولاً عظيماً، يصف الله ولا يوصف، فإمّا جلستَ معه وتركتنا، وإمّا جلستَ معنا وتركته؟ فقلت: هو يقول ما شاء، أيّ شيء عليَّ منه إذا لم أقل ما يقول؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: أما تخاف أن تنزل به نقمة، فتصيبكم جميعاً؟ أما علمتَ بالذي كان من أصحاب موسى عليه السلام، وكان أبوه من أصحاب فرعون، فلمّا لحقتْ خيل فرعون موسى، تخلّف عنه ليعظ أباه، فيُلحقه بموسى، فمضى أبوه وهو يراغمه[(٢)]، حتى بلغا طرفاً من البحر، فغرقا جميعاً، فأُتي موسى عليه السلام الخبر، فقال: هو في رحمة الله، ولكن النقمة إذا نزلت لم يكن لها عمّن قارب المذنب دفاع[(٣)].

وهكذا كان حال الأطفال في وقت نزول العذاب، فإنّهم وإن كانوا غير

---

(١) نفس المصدر ٧/ ٤١١.

(٢) قال في الحاشية نقلاً عن الشيخ المجلسي ﷺ: المراغمة: الهجران والتباعد والمغاضبة، أي يبالغ في ذكر ما يبطل مذهبه ويذكر ما يغضبه (آت).

(٣) الكافي ٢/ ٣٧٤.

مستحقّين لنزول العذاب عليهم، إلا أنّ وجودهم مع العصاة في مكان واحد استلزم شمول العذاب لهم.

وأمّا ما ذكره السائل من شمول العذاب للحيوانات فإنّا لا نعلم أنّ ما أنزله الله تعالى من العذاب على الأقوام السالفة هل شمل الحيوانات والنباتات أم لا، ولا سيما أنّ بعض الأقوام ماتوا بسبب الريح الباردة، كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝١٥ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

ولو سلّمنا أنّ العذاب شمل الحيوانات فإنّ الله تعالى يعوّض الحيوان على ما أصابه من ألم غير مستحقّ.

قال العلامة الحلي قدّس سرّه في بيانه للوجوه التي يُستحقّ بها العوض على الله تعالى:

> **الرابع**: أَمْرُ الله تعالى عباده بإيلام الحيوان، أو إباحته، سواء كان الأمر للإيجاب كالذبح في الهدْي والكفارة والنذر، أو للندب كالضحايا، فإنّ العوض في ذلك كلّه على الله تعالى؛ لاستلزام الأمر والإباحة الحُسْن، والألم إنّما يحسن إذا اشتمل على المنافع العظيمة البالغة في العِظَم حدًّا يحسن الألم لأجله[1].

وتعويض الحيوان عما أصابه يكون بإعادته إلى الحياة في الآخرة كما هو ظاهر من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وكما صرّح به بعض المتكلّمين، ودلّت عليه بعض الأحاديث.

قال الشيخ الطبرسي قدّس سرّه في تفسير الآية:

---

(١) كشف المراد: ٣٦١.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي جُمعتْ حتى يقتصّ لبعضها من بعض، فيقتص للجمّاء من القرناء. ويحشر الله سبحانه الوحوش؛ ليوصل إليها ما تستحقّه من الأعواض على الآلام التي نالتها في الدنيا، وينتصف لبعضها من بعض[١].

وقد روى البرقي رحمه الله في (المحاسن) بسنده عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أنّ النبي صلى الله عليه وآله أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها، فقال: أين صاحبها؟ مُرُوه فليستعدّ غداً للخصومة[٢].

أي أنّ الناقة ستخاصمه يوم القيامة بين يدي الله سبحانه؛ لأنّه ظلمها وأساء إليها بغير حقّ.

وعن الإمام أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام أنّه قال: من قتل عصفوراً عبثاً، أتى الله به يوم القيامة وله صراخ، ويقول: يا رَبّ! سل هذا فيم قتلني بغير ذبح...[٣].

وفي رواية أخرى أنه صلى الله عليه وآله قال: من قتل عصفوراً عبثاً عجَّ إلى الله عزّ وجلّ يوم القيامة، يقول: يا رَبِّ إنّ فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني لمنفعة[٤].

وعن يونس بن يعقوب عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قال علي بن الحسين عليهما السلام لابنه محمد حين حضرته الوفاة: إنّني قد حججتُ على ناقتي هذه عشرين حَجّة، فلم أقرعها بسوط قرعة، فإذا نَفَقَتْ[٥] فادفنها، لا يأكل لحمها السباع، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما من بعير يوقف عليه موقف عَرَفة سبع

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن ٥/ ٤٤٣.
(٢) المحاسن: ٣٦١.
(٣) دعائم الإسلام ٢/ ١٧٥.
(٤) سنن النسائي ٧/ ٢٧٥. مسند أحمد بن حنبل ٤/ ٣٨٩.
(٥) نفقت: أي ماتت.

حجج إلا جعله الله من نعم الجنّة، وبارك في نسله. فلما نفقت حفر لها أبو جعفر عليه السلام ودفنها[١].

والأحاديث الدالّة على أنّ الحيوانات كلّها أو بعضها تُبعث يوم القيامة كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

(١) ثواب الأعمال: ٧٩.

ما هي مبرّرات العذاب الأبدي على ذنب مؤقت؟

السؤال (٢١): العقاب الأبدي يلزم على ذنب متواصل غير منقطع، فكيف يُعذَّب الشخص على ذنب مؤقّت؟

والجواب:

١- **حقّ الله في وضع قوانين العقوبات:** فإنّ الإنسان في هذه الدنيا جعل لنفسه الحقّ في أن يضع قوانين العقوبات بحسب ما يراه من المصلحة، والله سبحانه وتعالى أولى بأن يكون له الحقّ في ذلك، فإنّه هو العالم بمصالح عباده التي بها تستقيم حياتهم الدنيوية، وتصلح حياتهم الأخروية، ولا سيّما أنّ الإنسان جعل العقوبات الكبيرة على الجرائم المتعدّدة، ولم يجعل في قوانينه أيّ مجال للعفو عن المذنبين، وأمّا الله تعالى فإنّه وإن جعل عقوبات على الجرائم المتعدّدة إلا أنّه حثّ الإنسان على التوبة من أجل إسقاط تلك العقوبات عنه، بل إنّه سبحانه ربّما يعفو عن عبده تكرّماً وتفضّلاً وإن لم تسبق من عبده التوبة، فيتوب عليه بسبب بعض أعماله الصالحة، أو بعض خصاله الكريمة، أو بشفاعة غيره فيه.

٢- **أنّ الله عَدْل لا يجور:** فإنّ الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه العزيز أنّ الذين ماتوا وهم كفار سيخلدون في نار جهنم، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾[البقرة: ١٦١، ١٦٢].

ولأنّنا نعلم أنّ الله تعالى عادل، وأنّه ليس بظلّام للعبيد، وأنّه لا يظلم مثقال ذرّة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ

يَظۡلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: ١٨٢، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ ﴾ [النساء: ٤٠]- فإنّنا نحكم بأنّ هؤلاء الذين سيعاقبهم الله تعالى بالعقاب الدائم مستحقّون لهذا العقاب، وأنّ الله تعالى لم يظلمهم مثقال ذرّة، وإن كنّا لا نعلم وجه استحقاقهم للعقاب بهذا النّحو؛ وذلك لأنّ الله تعالى غير محتاج لظلمهم، ولا مفتقر إلى معاقبتهم، ولا يجهل مقدار جرمهم، ومقدار ما يستحقّونه من العقاب.

٣- استحقاق بعض المذنبين للعقاب الدائم: فإنّا إذا تأمّلنا في هؤلاء الذين يعاقبهم الله تعالى بالعقاب الدائم نجد أنّهم مستحقّون لهذا العقاب؛ لأنّ الله تعالى أنعم على جميع عباده بأتمّ النِّعم الظاهرة والباطنة، وأرسل لهم الأنبياء والرُّسُل الذين بلّغوا عن الله شرائعه وأحكامه، وحذّروا الناس من الظلم والعدوان وارتكاب المعاصي والقبائح، ومع ذلك فإنّ بعض أشقياء خلقه حاربوا الله في سلطانه، فقتلوا أنبياءه، وحرّفوا أحكامه، وحاربوا دينه، وظلموا عباده، وطغوا، وبغوا، وتجبّروا، وأكثروا في الأرض الفساد، فلا شكّ في أنّ هؤلاء يستحقّون العقاب الدائم في نار جهنّم.

فإن قال قائل: إنّا لا نرى أنّ هؤلاء مستحقّون للعقاب الدائم في نار جهنّم.

أجيب بأنّ الله سبحانه هو الذي يكون حكمه صحيحاً وعادلاً ومطابقاً للواقع، وأمّا حكم غيره ممّن لم يتّصف بالعصمة المانعة له عن ارتكاب الخطأ واتباع الهوى فربما يخطئ في حكمه وربّما يصيب.

وهذا القائل في أحسن أحواله لا يعلم بعظم جرائم أولئك المستحقّين للخلود في النّار، ولم يطّلع على مدى آثار أعمالهم القبيحة على النّاس وعلى الحيوانات والنباتات وغيرها، فإنّ الذنوب تؤثر آثاراً كونية سيّئة يُعبَّر عنها في

هذا العصر بالطاقة السلبية التي ربّما تؤثّر على كثير من أحياء هذا الكون.

مضافاً إلى أنّ آثار ذنوب هؤلاء المذنبين ربّما تمتدّ إلى عصور متمادية كثيرة، وتتأثّر بها أجيال متعدّدة، ولا يخفى أنّ كثيراً مما تعانيه الإنسانية المعذّبة في عصرنا الحاضر من حروب وقتل وتشريد وغيرها قام به رجال ورثوا عن السابقين لهم كثيراً من الأمور التي دفعتهم لارتكاب جرائمهم في هذا العصر.

وأمّا الكفّار الآخرون فإن كانوا من المستضعفين الذين ليست لديهم عقول قادرة على إدراك الحقّ وتمييزه عن الباطل، خصوصاً إذا كانوا في بعض المجتمعات الجاهلية، التي لم يصل إليها شيء مهم من العلم، والتي لا تهتم إلا بالسعي إلى معاشها، فهم موكولون إلى رحمة الله تعالى التي وسعت كلّ شيء.

قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧- ٩٩].

وكذا الصلحاء من الكفّار الذين قدّموا للإنسانية خدمات جليلة، أو أقاموا العدل بين الرعيّة، وغير ذلك، فإنّ هؤلاء ليس من المستبعد على الله تعالى ألّا يعذبهم في النّار حتى لو أدخلهم فيها.

فقد ورد في بعض الأحاديث أنّ كسرى أنوشيروان ملك بلاد فارس في زمان رسول الله ﷺ، الذي كان معروفاً بالملك العادل، كان ملكاً عادلاً شفيقاً على رعيّته رحيماً، لا يرضى بظلم، فهو وإن مات على دين المجوس، وسيكون من جملة من يدخلون النار، إلا أنّه بسبب عدله في رعيّته لن يُعذّب فيها[(١)].

وهذا غير ممتنع على الله، وليس قبيحاً منه سبحانه؛ لما فيه من الترغيب في العدل والتحذير من الظلم.

---

(١) عيون المعجزات: ٢٠. مستدرك الوسائل ١٨/ ١٦٩. بحار الأنوار ٤١/ ٢١٣.

٤- عزم المذنبين على الاستمرار في الذنوب: فإنّه ربّما يكون سبب استحقاق الكفّار المذنبين للخلود في النار على ذنوب وقعت في فترة معينة هو أنّ هؤلاء المذنبين كانوا عازمين على ملازمة الكفر وعدم الإقلاع عن المعاصي التي كانوا يفعلونها حتى لو عاشوا آباد الدهور، وقد أخبر سبحانه عنهم بذلك، فقال: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وروى الشيخ الكليني والشيخ الصدوق قدس سرهما بسندهما عن أبي هاشم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّما خُلّد أهل النّار في النّار لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو خُلّدوا فيها أن يعصوا الله أبداً، وإنّما خُلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً، فبالنّيّات خُلّد هؤلاء وهؤلاء، ثمّ تلا قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤]، قال: على نيّته[1].

ومن المعلوم أنّ سيرة العقلاء قد جرت على معاقبة من كان عازماً على ارتكاب جريمة شنيعة بما يتناسب مع تلك الجريمة، ومن الأمثلة على ذلك أنّه لو فرضنا أنّنا علمنا أنّ إرهابيًّا معيّناً كان عازماً على القيام بعمل إرهابي يقتل به المئات من المدنيّين الأبرياء، فإنّ العقلاء يرون ضرورة حبسه إلى آخر حياته ما دام هذا العزم عنده باقياً.

٥- شدة العقوبة متوقّفة على عظم الجريمة: فإنّ العبرة في العقاب ليست بالمدّة التي استغرقتها الجريمة، وإنّما العبرة بعظم الذنب، فكلّما كان الجرم عظيماً كان العقاب مثله، وربّما لا يستغرق القيام بالجريمة إلا وقتاً يسيراً جدًّا، لكنّ العقاب عليها قد يدوم سنين كثيرة، فإنّ جريمة القتل ربّما لا تستغرق إلا عدّة

---

(١) الكافي ٢/ ٨٥. علل الشرائع ٢/ ٢٣٩.

دقائق، إلا أنّ القاتل ربّما يُسجن ثلاثين سنة أو أكثر، وسرقة المصرف ربّما لا تستغرق إلا ربع أو نصف ساعة، ولكنّ السارق يعاقب بالسجن سنين كثيرة، أو يغرّم بأموال يدفعها طول حياته، وهكذا الحال في الجرائم الأخرى التي يرتكبها الإنسان.

وأولئك المذنبون عملوا من الجرائم ما يستحقّون به العقاب الدائم، وإن كانت جرائمهم وقعت في زمان الدنيا فقط.

ماذا يستفيد الرب من تعذيب خلقه؟

السؤال (٢٢): ما الذي سوف يستفيده الله من مشاهدة مخلوقاته تتعذّب في جهنّم؟

والجواب:

١- **تعذيب المستحقّين:** فإنّ الله تعالى إنّما يعذب من يستحقّ العقاب من المجرمين والمذنبين والجناة الذين فعلوا الذنوب الكبار، ولم يتوبوا، أو يُكفِّروا عن خطاياهم، إلى أن ماتوا وهم على معاصيهم؛ لأنّ ذلك هو مقتضى العدل بين خلقه، فيجازي كلًّا على حسب عمله، فإنّ الله تعالى قد آلى على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم.

ولو أنّ الله تعالى ترك هؤلاء الجناة الذين عذّبوا الإنسانية وأساؤوا إليها، وظلموا خلق الله تعالى، ونهبوا مقدّرات الأمم المستضعفة، لكان الله تعالى قد أعان الظالمين في ظلمهم، وترك القصاص منهم مع قدرته على ذلك، وهذا قبيح جدًّا، لا يصدر من المولى الحكيم سبحانه.

ولهذا فإنّ أوّل ما يفعله المظلومون المؤمنون بالله تعالى إذا اشتدّ عليهم الظلم هو اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء؛ لكي ينتقم لهم ممّن ظلمهم، ويخلّصهم من الشدّة التي أوقعهم فيها ذلك الظالم.

٢- **استحقاق الجناة للعذاب:** فإنّ أولئك الجناة المجرمين الذي يعذّبهم الله تعالى في نار جهنّم مستحقّون للعقوبة بسبب جرائمهم وآثامهم وجناياتهم، وعقاب الجاني المستحقّ للعقوبة أمر حسن وليس بقبيح، ولهذا فإنّ العقلاء قد اتّفقوا على مدح الحاكم الذي يعاقب المذنبين بما يستحقّونه من العقوبات التي

تردعهم، وتردع غيرهم عن الإقدام على ما فعله هؤلاء الجناة المذنبون، ومدح الحاكم الذي يعاقب الجناة من أجل الانتصاف للمظلوم من الظالم.

ولو أنّ قائلاً انتقد هذا الحاكم أو ذمّه، فقال: ماذا يستفيد هذا الحاكم بمعاقبة هؤلاء الجناة، ألم يكن من الأجدر به أن يتركهم وشأنهم؟

لذمّ العقلاء هذا القائل، ولامه النّاس على هذه المقالة؛ لأنّ ترك هؤلاء الجناة من غير عقوبة يُعَدّ تقصيراً من الحاكم في أداء وظيفته في إقامة العدل، وردّ الظلم، ويؤدّي إلى تفشّي الظلم وانتشار الجريمة.

٣- حاجة المجتمع الإنسان لمعاقبة الجناة: فإنّ الله سبحانه لا يعذّب الجناة والمجرمين من أجل أن يجني فائدة تعود إليه؛ فإنّه لا يستفيد شيئاً من مشاهدة مخلوقاته تتعذّب؛ لأنّه سبحانه غنيّ عن العالمين، وغير محتاج إلى أيّ أحد من خلقه، فهو سبحانه غنيّ عنهم وعن عذابهم، كما قال سبحانه: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧].

ولكنّه جلّ شأنه إنّما تهدّدهم بالعذاب لأنّه يريد الخير والصلاح لباقي أفراد المجتمع الإنساني، فيعاقب السارق حتى لا تتفشّى السرقة في المجتمع، ويعاقب القاتل حتى لا يختل أمن الأفراد والجماعات، ويعاقب الزاني حتى لا تنتشر الرذيلة بين أفراد المجتمع، وهكذا باقي الأمور التي يعاقب الله سبحانه وتعالى عليها، وكلّ هذه المنافع إنّما تعود إلى غيره سبحانه، ولا تعود إليه بأيّ نحو، وهذه المصالح لا تتحقّق إذا تُرك الجناة كالسارق والقاتل والزاني وغيرهم من دون عقوبة، وحفظ المجتمع ومراعاة مصلحته أهمّ بكثير من مراعاة مصلحة السُّرَّاق والقتلة والزناة وأشباههم من المذنبين الذين يستحقّون العقوبات التي تُنزَل بهم.

الحكمة تقتضي معاقبة العصاة

السؤال (٢٣): لماذا هناك نار وعقاب أبدي؟ أليس من الحكمة أن تُجعل أماكن للإصلاح بدلاً من النار، حيث يظلّ العصاة فترة من الزمن يتلقّون الدروس الإصلاحية من الملائكة، ويتدرّبون على عبادة الله والانصياع لأوامره؟

والجواب:

١- اختلاف أحوال العصاة: فإنّ العصاة على قسمين: عصاة مخلّدون في النّار، وعصاة غير مخلّدين فيها.

أمّا العصاة المخلّدون في النّار فهم الذين بلغت ذنوبهم حدًّا عظيماً يقتضي معاقبتهم على عظيم ذنوبهم. وتركُهم من دون عقاب يتنافى مع إقامة العدل فيهم، وهو قبيح يذمّه العقلاء، لا يصدر من الله سبحانه.

وحال هؤلاء المخلَّدين في النّار حال المجرمين في هذه الدنيا، الذين يرتكبون الجرائم العظام، فيُحكم عليهم بأقصى العقوبات، كالإعدام أو السجن المؤبَّد.

ويكاد العقلاء يتّفقون على لزوم معاقبة من عذَّب طفلاً بريئاً، ثمّ قتله أشنع قتلة مع سبق الإصرار والترصّد، ويرون أنّ معاقبة هذا القاتل بالقتل أو بالسجن المؤبّد حكم عادل، وأنّه لا مجال لإصلاحه في أيّ إصلاحية، بل لا بدّ أن ينال جزاءه العادل.

ومن المعلوم أنّ كثيراً من الإرهابيين والسفّاحين قد قتلوا آلاف المدنيّين الأبرياء ظلماً وعدواناً، فلم ينالوا جزاءهم في هذه الدنيا، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك مذبحة سربرنيتسا في البوسنة والهرسك في يوليو سنة ١٩٩٥م، التي

قُتل فيها حوالي ٨ آلاف شخص من المسلمين البوشناق، أغلبهم من الرجال والصبيان في مدينة سربرنيتسا، ونزح عشرات الآلاف من المدنيّين المسلمين من المنطقة، وقامت وحدات من الجيش الصربي بارتكاب المجزرة تحت قيادة الجنرال راتكو ملاديتش. وهذه المجزرة المروّعة قد حدثت على مرأى من الفرقة الهولندية التابعة لقوات حفظ السلام الدولية دون أن تقوم بأيّ شيء لإنقاذ المدنيّين، علماً أنّها كانت قد طلبت من المسلمين البوسنيّين تسليم أسلحتهم مقابل ضمان أمن البلدة، وهو ما لم يحصل بتاتاً، إذ بعد دخول القوات الصربية البلدة ذات الأغلبية المسلمة، قامت بعزل الذكور بين ١٤ و ٥٠ عاماً عن النساء والشيوخ والأطفال، ثمّ تمّت تصفية كلّ الذكور بين ١٤ و ٥٠ عام، ودفنهم في مقابر جماعية، كما تمّت عمليات اغتصاب ممنهجة ضدّ النساء المسلمات.

وقد وصف الأمين العام للأمم المتّحدة هذه المجزرة بأنّها أسوأ جريمة على الأراضي الأوروبية منذ الحرب العالمية الثانية[1].

أَلَا يستحقّ هؤلاء المجرمون عقوبة تتناسب مع جرائمهم البشعة؟ أم أنّ مقتضى العدل بنظر السائل أن يُستضاف أولئك المجرمون في إصلاحية لفترة قصيرة ثمّ يُطلَق سراحهم؟!

وأمّا النوع الثاني من العصاة وهم غير المخلّدين في النّار، فهؤلاء يعاقَبون في النّار على سوء أعمالهم بحسب ما يستحقّون من العذاب، ثم يُخرجون من النار، ويُدخَلون إلى الجنّة، وسواء سُمّي بقاؤهم تلك المدّة في النّار إصلاحاً أو عقاباً فالأمر لا يختلف كثيراً إلا في التسمية، فليسمّه السائل ما شاء، فنحن لن نتجادل معه فيه.

٢- عدم قابلية بعض المجرمين للإصلاح: فإنّ بعض أهل النّار غير قابل

---

(١) موسوعة ويكيبيديا، مادة: مذبحة سربرنيتسا.

راجع: http://ara.reuters.com/article/worldNews/idARAKCN0ZR1SM

للإصلاح بأيّ حال من الأحوال، كما هو حال كثير من المجرمين في هذه الدنيا، فإنّهم وصلوا إلى حال شديدة من الإجرام والسوء بحيث لا يمكن إصلاحهم.

والله سبحانه وتعالى ذكر هذه الفئة من الناس في كتابه العزيز، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

قال الشيخ المفيد قدس سره تعقيباً على هذه الآية:

فأخبر سبحانه أنّ أهل العقاب لو ردَّهم الله تعالى إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر والعناد، مع ما شاهدوا في القبور وفي المحشر من الأهوال، وما ذاقوا من أليم العذاب[1].

وقال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره:

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ قال بعضهم: لو رُدُّوا ولم يعاينوا العذاب لعادوا. كأنّه ذهب إلى أنّهم لم يشاهدوا ما يضطرهم إلى الارتداع، وهذا ضعيف، لأنّ هذا القول يكون منهم بعد أن يُبعثوا، ويعلموا أمر القيامة، ويعاينوا النار؛ بدلالة قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهذه الآيات كلّها في المعاندين؛ لأنّه قال في أولها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥][2].

ومن الآيات الأخرى التي تشير إلى أنّ هؤلاء العصاة غير قابلين للإصلاح قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ

(١) الفصول المختارة: ١١٩.

(٢) التبيان في تفسير القرآن ٤/ ١١١.

يُبۡعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره:

وقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ إخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الكفّار، وأنّه إذا حضر أحدهم الموت وأشرف عليه، سأل الله عند ذلك و ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾، أي رُدَّني إلى دار التكليف، ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ من الطاعات وأتلافى ما تركته[1].

إلى أن قال:

فقال الله تعالى في الجواب عن سؤالهم: ﴿ كَلَّآ﴾، وهي كلمة ردع وزجر، أي حقًّا ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾، فالكناية عن الكلمة، والتقدير: إنّ الكلمة التي قالوها ﴿ كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ بلسانه، وليس لها حقيقة، كما قال: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ ﴾[2].

٣- قبح مكافأة المجرمين: فإنّ الله تعالى جعل النار موضعاً لعقاب العصاة المذنبين لا لمكافأتهم والإحسان إليهم.

والاستعاضة عن عقابهم بإدخالهم إصلاحيات لا شكّ في أنّه مكافأة لهم على جرائمهم، وهو قبيح لا يصدر من المولى الحكيم سبحانه.

ولتوضيح قبح ذلك نمثّل بمثال تقريبي، فنقول: لو أنّ إرهابيًّا قام بعمل إرهابي قُتل فيه عشرات المدنيّين الأبرياء، واحترقت بسببه عشرات السيارات، وتهدّم العديد من المباني السكنية، وحصلت أضرار بالغة في مكان وقوع هذا العمل الإرهابي.

وبعد أن تمّ القبض على ذلك الإرهابي حُكم عليه بإدخاله في إصلاحية

(١) التبيان في تفسير القرآن ٧/ ٣٩٣.

(٢) نفس المصدر ٧/ ٣٩٤.

لمدّة خمس سنين مثلاً؛ لنصحه وإصلاحه وتعليمه بعض المهن التي ينتفع بها بعد خروجه من السجن، وبعد أن قضى السنين الخمس في السجن أُطلق سراحه فعلاً، وقامت الدولة بتوظيفه في إحدى الوظائف المحترمة، فلا شكّ في أنّ كلّ من يسمع بذلك يرى أنّ الدولة لم تعاقب هذا الإرهابي، وإنّما كافأته أحسن مكافأة، وأنّها أخطأت بهذا العمل خطأً فادحاً.

٤- **ضرر الإخبار بعدم العقوبة**: فإنّ الله تعالى لو أخبر المذنبين والعصاة بأنّه لن يعاقبهم على ذنوبهم بالعقوبة الرادعة لهم ولغيرهم، وأنّه سيجعلهم في إصلاحيات بدلاً من النّار، وأنّ العصاة سيبقون في تلك الأماكن فترة من الزمن يتلقّون فيها الدروس الإصلاحية، ويتدرّبون على عبادة الله والانصياع لأوامره، لكان في ذلك إغراء لعامّة الناس بالإسراف في الذنوب وارتكاب المعاصي والموبقات؛ لأنّهم إذا علموا أنّهم في مأمن من العقاب الأخروي فإنّهم سيفعلون ما يشاؤون من دون أن يردعهم أيّ رادع، خصوصاً إذا كانت عندهم سلطة أو نفوذ؛ لأنّ من أمن العقوبة أساء الأدب، ومن المعلوم أنّ مثل هذا الإجراء سيحوّل حياة الإنسان في الأرض إلى غابة يأكل القويّ فيها الضعيف، وسيتحوّل النّاس إلى وحوش ضارية، لا يمكن ردعهم بحال.

ولهذا فإنّ الدول الحديثة جعلت عقوبات للجرائم التي يرتكبها الناس، ولم تجعل في قوانينها أيّ مجال للعفو عن تلك الجرائم، ولولا هذه العقوبات الرادعة لتمادى الناس في مخالفة الدولة والتعدي على دماء الآخرين وأموالهم، فضلاً عن حرياتهم وخصوصياتهم.

وهذه المنفعة المهمّة كافية لمعرفة أنّ معاقبة العصاة والمذنبين في نار جهنّم أمر ضروري جدًّا؛ لأنّهم يستحقّون تلك العقوبة من جهة، ولئلّا يحوّلوا حياة الضعفاء إلى جحيم لا يطاق من جهة ثانية.

٥- **الدار الآخرة ليست مكاناً للإصلاح**: فإنّ ما اقترحه السائل من جعل

أماكن للإصلاح بدلاً من النّار، يظلّ فيها العصاة فترة من الزمن يتلقّون فيها الدروس الإصلاحية من الملائكة، ويتدرّبون على عبادة الله والانصياع لأوامره، اقتراح في غير محلّه؛ لأنّ البعث يوم القيامة إنّما هو للحساب وإقامة العدل، ومكافأة المحسن على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، وجَعْلُ العصاة في أماكن للإصلاح يتنافى مع الغرض من بعث النّاس يوم القيامة، فإنّ وقت الإصلاح قد انتهى بالموت في الحياة الدنيا، والله سبحانه وتعالى جعل هذه الدنيا مكاناً للإصلاح، فأرسل الأنبياء والحُجج عليهم السلام والمصلحين من أجل إصلاح الناس، لكنّ العصاة المذنبين لم تنفعهم كلّ محاولات الإصلاح، بل تمادوا في ذنوبهم ومعاصيهم، إلى أن انتهى وقت الإصلاح بالموت، وجاء وقت الحساب والجزاء.

وحال المستحقّين للعقاب في الآخرة حال جماعة من المجرمين اعتدوا على مدنيّين آمنين عُزَّل، فقتلوا النفوس البريئة، واغتصبوا النّساء العفيفات، وأتلفوا الأموال الكثيرة، فلما قبض عليهم رجال الأمن، وحُكم عليهم بالقصاص العادل، طالبوا الدولة بالعفو عنهم، وإعطائهم فُرصة ليكونوا مواطنين صالحين.

ولا شكّ في أنّ الدولة في هذا الفرض ستخبرهم بأنّه لا مجال للعفو عنهم، بل تجب معاقبتهم على سوء أعمالهم، ويجب إقامة العدل والانتصاف منهم لكلّ من ظلموه واعتدوا عليه.

ومشكلة العصاة هي أنّهم فعلوا الآثام التي أضرّت بغيرهم، ومن العدل الانتصاف منهم لمن ظلموه واعتدوا عليه، وأمّا عبادة الله تعالى فهي طريق لتنقية النفوس وتهذيب الأخلاق، وتدريب العصاة على عبادة الله سبحانه والانصياع لأوامره قد انتهى وقته؛ لأنّ الله تعالى لا يريد من الناس في ذلك الوقت أن يعبدوه أو يمتثلوا أوامره؛ لأنّه سبحانه لم يكلّفهم بعد البعث بعبادة، ولم يأمرهم بأيّ أمر، وإنّما أعادهم للحياة لكي يحاسبهم، ويحكم بينهم بالعدل كما قلنا.

لماذا خلق اللّه جهنم؟

السؤال (٢٤): لو كان الله عادلاً، غفوراً، رحيماً كما يُدَّعىٰ، إذن لماذا خلق شيئاً شريراً مثل جهنّم التي سيجعلها للعقاب الأبدي لغير المؤمنين؟

الجواب:

١ - **حُسْن خلْق النار**: فإنّ النّار (أو جهنّم) ليست شيئاً سيِّئاً أو شرّيراً كما وصفها السائل، وإنّما هي أمر حسن، وحال جهنّم حال السجون التي تُبنىٰ في جميع الدول من أجل معاقبة المجرمين المستحقّين للعقوبة، فكما أنّ بناء السجون أمر حسن وضروري حتى في الدول الديمقراطية التي تنادي بحقوق الإنسان، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها بحال، فإنّ خلق النّار كذلك؛ لأنّ كلّ دولة تريد أن تقيم العدل، وتنتصف للمظلوم من الظالم، لا بدّ أن تعاقب المجرمين والمسيئين بالعقوبات التي يستحقّونها، ولعلّ من أكثر العقوبات المتداولة في العصر الحاضر هي الحبس في السجن ولو بشكل مؤقّت، وهذا يقتضي بناء سجون كثيرة تستوعب المجرمين المستحقّين للسجن.

وكذلك الحال في معاقبة الله تعالى للمجرمين والمسيئين الذين لم يعاقَبوا في الدنيا، وماتوا وهم يستحقّون العقاب، فإنّ مقتضى إقامة العدل أن ينتصف الله تعالى للمظلوم من الظالم، وأن يعاقب أصحاب الجرائم العظيمة التي اقترفوها ضدّ الإنسانية، وليس من العدل أن يعفو الله تعالى عن جميع الجرائم التي ارتُكبت في حقّ المظلومين والمحرومين والضعفاء، فإنّ العفو عن المسيء الظالم لعباد الله تعالى قبيح لا يصدر من الحكيم سبحانه، والله تعالى إنّما يعفو عمّا يتعلّق بحقوقه سبحانه، لا ما يتعلّق بحقوق الناس.

والأحاديث الكثيرة قد دلّت على أنّ الله تعالى آلى على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم، وقد عبَّر أمير المؤمنين عليه السلام عن مظالم العباد بعضهم لبعض بالذنوب التي لا تُغْفَر.

فقد روى الكليني قدس سره في (الكافي) أنّ أمير المؤمنين عليه السلام صعد المنبر بالكوفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيّها الناس إنّ الذنوب ثلاثة... فذنب مغفور، وذنب غير مغفور، وذنب نرجو لصاحبه، ونخاف عليه... أمّا الذنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدنيا، فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين، وأمّا الذنب الذي لا يُغفَر فمظالم العباد بعضهم لبعض، إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز[١] لخلقه أقسم قسماً على نفسه، فقال: وعزّتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم، ولو كَفٌّ بِكَفٍّ، ولو مسحة بكفّ، ولو نطحة ما بين القَرْناء إلى الجمَّاء[٢]، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض، حتى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثمّ يبعثهم للحساب، وأمّا الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه، ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة، ونخاف عليه العذاب[٣].

وكثير من المجرمين الذين تلطّخت أيديهم بدماء الأبرياء، وجنوا جنايات عظيمة على الإنسانية، ربّما يموتون من دون عقاب؛ لأنّهم كانت عندهم السلطة والمال والرجال والسلاح وغير ذلك من أسباب القوّة التي تجعلهم يفلتون من العقاب في الدنيا، ولكن بما أنّ الله تعالى قادر على إعادتهم للحياة من جديد، وإنزال العقوبة بهم، فإنّ مقتضى العدل معاقبتهم في الآخرة وفي نار جهنّم.

---

(١) بروز الله هنا كناية عن ظهور أحكامه وحسابه وثوابه وعقابه، ولا يراد به بروزه بذاته؛ لأنّ البروز بهذا المعنى من صفات الأجسام، والله منزَّه عن أن يوصف بها.

(٢) الجمّاء: الشاة التي لا قَرْن لها، والقَرْناء: التي لها قرنان.

(٣) الكافي ٢/ ٤٤٣.

وبهذا يتّضح أنّ النار ليست بِشَرّ، وأنّ خلقها ليس بقبيح، ولا يتنافى مع عدل الله تعالى، بل إنّ عدم خلقها هو المنافي للعدل؛ لأنّه يقتضي عدم معاقبة الظالم مع القدرة على معاقبته، وهو قبيح عقلاً، ولو أنّ الله تعالى أدخل جميع الناس في الجنّة، الظالمين منهم والمظلومين، ونعَّمهم فيها، لكان في ذلك تسوية بين الجلَّاد والضحية، وهذا خلاف العدل والإنصاف.

٢- ثبوت رحمة الله سبحانه: فإنّه سبحانه رحيم في الدنيا والآخرة، أمّا رحمته في الدنيا فواضحة؛ لأنّه تعالى خلق جميع الخلق، وأنعم عليهم بالنِّعم الكثيرة العظيمة، رغم أنّ كثيراً من خلقه جحدوه وأنكروه، بل حاربوه علانية، وخالفوا أوامره، إلا أنّه سبحانه لم يعاجلهم بالعقوبة على سوء أعمالهم، بل أعطاهم الفِرَص الكثيرة الكافية للتوبة وإصلاح حالهم، واستمرّ في الإنعام عليهم رجاء أن يتوبوا عن معاصيهم، ويقلعوا عن ذنوبهم، وكلّ من تاب وآب إليه قَبِلَ منه توبته، ولم يحاسبه على ما مضى منه، فأيّ غفران ورحمة أعظم من هذا؟!

وأمّا رحمته في الآخرة فإنّها تشمل كثيراً من عصاة خلقه الذين سيعفو الله عنهم ابتداءً، أو يشفع لهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والمؤمنون، فيدخلون الجنّة، ولا يجب لكي يتّصف الله سبحانه بالرحمة أن يرحم جميع خلقه حتى غير المستحقّين منهم.

٣- قبح الرحمة المنافية للعدل: فإنّ الله تعالى قد آلى على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم، وأن ينتصف لكلّ مظلوم ممّن ظلمه، ورحمة المجرمين والعتاة والطواغيت المعاندين يوم القيامة وعدم معاقبتهم على ظلمهم يتنافى مع إقامة العدل بين العباد؛ لأنّ فيه تفويتاً لحقّ المظلوم مع القدرة على إرجاعه إليه، وفيه إحسان للظالم ومكافأة له، وتسوية بين الظالم والمظلوم، وهو قبيح عقلاً، لا يصدر منه تعالى.

٤ - أنّ الله تعالى يعذِّب العصاة وإن كانوا مؤمنين به: لأنّه تعالى يُدخل في النّار كثيراً من العصاة المؤمنين به سبحانه، فقد ورد في بعض الأحاديث المرويّة عن رسول الله ﷺ أنّ كثيراً من طوائف اليهود والنّصارى والمسلمين يدخلون النّار.

فقد روى الكليني قدس سره بسنده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنّه قال في حديث: إنّ اليهود تفرّقوا من بعد موسى عليه السلام على إحدى وسبعين فرقة، منها فرقة في الجنّة وسبعون فرقة في النّار، وتفرّقت النّصارى بعد عيسى عليه السلام على اثنين وسبعين فرقة، فرقة منها في الجنّة، وإحدى وسبعون في النّار، وتفرّقت هذه الأمّة بعد نبيّها ﷺ على ثلاث وسبعين فرقة، اثنتان وسبعون فرقة في النّار، وفرقة في الجنّة...[(١)].

وأخرج ابن ماجة بسنده عن عوف بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنّة، وسبعون في النّار، وافترقت النّصارى على ثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النّار، وواحدة في الجنّة، والذي نفس محمد بيده لتفترقنّ أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنّة، وثنتان وسبعون في النّار...[(٢)].

فما زعمه السائل من أنّ الله تعالى يعذّب بالنّار غير المؤمنين به فقط غير صحيح.

مضافاً إلى ذلك أنّا بيّنا فيما تقدّم أن بعض الأخبار دلّت على أنّ بعض الكفّار وإن دخلوا النّار إلا أنّهم لا يُعذَّبون فيها، مثل كلّ ملك عادل، وكلّ من قدّم خدمات جليلة للإنسانية.

(١) الكافي ٨/ ١٨٨.

(٢) سنن ابن ماجة ٢/ ١٣٢٢، صحّحه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ٢/ ٣٦٤، وسلسلته الصحيحة ٣/ ٤٨٠.

بل إنّ بعض الكفّار لا يدخلون النّار أصلاً، وهم الذين لم تصلهم الحجّة، فلم يعلموا بأيّ شريعة، وكذا المستضعفين من الرجال والنّساء الذين لا يستطيعون تمييز الحقّ من الباطل، فإنّ هؤلاء موكولون إلى رحمة الله تعالى التي وسعت كلّ شيء.

هل نجح الشيطان في مهمّته؟

السؤال (٢٥): ما دام أغلب البشر ليسوا مسلمين، وبالتالي جزاؤهم هو الدخول في النّار، فهل نجح الشيطان في مهمّته، ونجح الشَّر، وانهزم الخير، ولم يتحقّق الهدف من خلق الإنسان وهو عبادة الله؟ وهل تحقّقت نبوءة الملائكة؟

والجواب:

١ - سعة رحمة الله: فإنّ أغلب البشر وإن كانوا في هذا العصر وما قبله غير مسلمين إلا أنّا لا نعلم أنّ جزاءهم هو الدخول في النّار، ولا نجزم بذلك؛ لاحتمال أنّ أكثر الناس يدخلون الجنّة برحمة الله وبعفوه؛ لأنّنا لا نحتم على الله سبحانه بشيء، والله أعلم بواقع الحال منّا، والأمر كلّه بيد الله تعالى، يفعل ما يشاء، لا ما يشاء غيره.

خصوصاً أنّ كثيراً من غير المسلمين ليست عندهم العقول التي تؤهّلهم لمعرفة الحقّ وتمييزه عن الباطل، وهم الموصوفون في كتاب الله العزيز بالمستضعَفين، وهؤلاء مُرْجَون إلى رحمة الله تعالى التي وسعت كلّ شيء، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

والأحاديث التي أوضحت سعة رحمة الله تعالى يوم القيامة كثيرة.

منها: ما روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: إنّ الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة، فجعل في الأرض منها رحمة، منها تعطف الوالدة على ولدها، والبهائم بعضها على بعض، والطير كذلك، وأَخَّر تسعة

وتسعين إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة[١].

وعنه ﷺ قال: إنّ الله تعالى كتب كتاباً بيده لنفسه قبل أن يخلق السماوات والأرضين، ووضعه تحت العرش، فيه: رحمتي سبقتْ غضبي[٢].

وعنه ﷺ قال: والذي نفسي بيده إنّ الله تعالى أرحم بعبده من الوالدة المشفقة بولدها[٣].

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته، حتى يطمع إبليس في رحمته[٤].

قلت: إذا كانت رحمة الله يوم القيامة بدرجة بحيث يطمع فيها إبليس، فإنّ في ذلك دلالة واضحة على أنّ الله تعالى سيرحم كثيراً من الخلائق، بل سيرحم حتى الذين لم تكن الرحمة تُرجىٰ لهم.

٢- دخول بعض أهل النّار في الجنّة: فإنّ بعض الآيات القرآنية وإن دلّت على أنّ كثيراً من الكفّار يدخلون في نار جهنّم ولا يخرجون منها أبداً، أي أنّهم سيكونون خالدين فيها أبد الآباد، إلا أنّ جملة من الأحاديث دلّت على أنّ بعض أهل النّار يخرجون منها بعد حين، أي بعد أن يمكثوا فيها إلى ما شاء الله تعالى، ولم أجد في الآيات أو الروايات ما يدلّ على أنّ جميع الداخلين في النّار يخلّدون فيها أبداً.

ومن الروايات التي دلّت على أنّ بعض أهل النّار يخرجون منها بعد حين ما رواه ابن أبي جمهور في (عوالي اللئالي) أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ أهل النّار

---

(١) روضة الواعظين: ٥٠٢. تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧. صحيح مسلم ٤/ ٢١٠٨.

(٢) روضة الواعظين: ٥٠٢. وليس المراد بيده في الحديث أنّ الله تعالى له يد تليق بجلاله كما يقول المجسّمة، وإنّما المراد باليد هنا هو القدرة.

(٣) نفس المصدر: ٥٠٣.

(٤) أمالي الشيخ الصدوق: ٢٧٤.

يموتون ولا يحيون، وإنّ الذين يخرجون منها وهم كالحمم والفحم، فيُلقَون على نهر يقال له: الحياة، أو الحيوان، فيرش عليهم أهل الجنّة من مائه فينبتون، ثمّ يدخلون الجنّة وفيهم سيماء أهل النّار، فيقال: هؤلاء جهنّميون. فيطلبون إلى الرحيم عزّ وجلّ إذهاب ذلك الاسم عنهم، فيُذهبه عنهم، فيزول عنهم الاسم، فيلحقون بأهل الجنّة(١).

وعن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: يكون في النّار قوم ما شاء الله أن يكونوا، ثمّ يرحمهم الله، فيكونون في أدنىٰ الجنّة، فيغتسلون في نهر الحياة، يسمّيهم أهل الجنّة: الجهنّميون، لو أضاف أحدهم أهل الدنيا لأطعمهم وسقاهم وفرشهم ولحفهم وروحهم لا ينقص ذلك(٢).

وعن محمد بن مسلم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الجهنّميين، فقال: كان أبو جعفر عليه السلام يقول: يخرجون منها، فيُنتهىٰ بهم إلى عين عند باب الجنّة تسمّى عين الحيوان، فيُنضح عليهم من مائها، فينبتون كما ينبت الزرع: لحومهم وجلودهم وشعورهم(٣).

وعن حمران، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّهم يقولون: ألا تعجبون من قوم يزعمون أنّ الله يُخرج قوماً من النّار، فيجعلهم من أصحاب الجنّة مع أوليائه؟ فقال: أما يقرؤن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، إنّها جنّة دون جنّة، ونار دون نار، إنّهم لا يساكنون أولياء الله...(٤).

ومن طرائف الأخبار ما دلّ على علم إبليس بسعة رحمة الله، وأنّه كان يأمل أن يُخرَج من النّار بعد أن يبرّ الله قسمه فيه في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا

(١) عوالي اللئالي ١/ ١٢٣. الزهد: ٩٦.

(٢) نور الثقلين ٣/ ١٤٧.

(٣) الزهد: ٩٥.

(٤) نفس المصدر.

مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨].

فقد روى الشيخ الصدوق ﷺ في كتاب الأمالي عن ابن عباس أنّ امرأة رأت إبليس ساجداً على صخرة صمّاء، تسيل دموعه على خدّيه، فقامت تنظر إليه تعجّباً، ثمّ قالت له: ويحك يا إبليس، ما ترجو بطول السجود؟ فقال لها: أيّتها المرأة الصالحة، ابنة الرجل الصالح، أرجو إذا أبرَّ ربّي عزّ وجلّ قسمه، وأدخلني نار جهنّم، أن يُخرجني من النّار برحمته(١).

٣- إضلال الشيطان لكثير من الخلق: فإنّ من نظر إلى هذا العالم، ونظر في الحوادث الجارية في عصرنا هذا وما قبله من العصور، يجد أنّ الشيطان قد استطاع أن يضلّل أكثر الخلق، وتمكّن من أن ينشر الرذيلة والشرّ في النّاس، وأن يُشعل العالم بالنزاعات المسلّحة والصراعات التي أدّت إلى حروب مدمّرة قُتل فيها مئات الملايين من البشر بلا أيّ فائدة.

إنّ نجاح الشيطان في مهمّته راجع إلى سوء اختيار النّاس، حيث اختاروا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الله سبحانه، وزهدوا في عمل الخير، والله تعالى نهى النّاس عن عبادة الشيطان، وبيّن لهم أنّه عدوّ مبين لهم، وأمرهم بالحذر منه، فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠]، وقال: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

والله تعالى يعلم أنّ أتْباع الشيطان سيكونون كثيرين، وقد ذكر ذلك في الحوار الذي جرى بينه وبين الشيطان بعد أن استكبر على أمر الله تعالى له بالسجود لآدم عليه السلام، فقال: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ

(١) أمالي الشيخ الصدوق: ٢٧٣.

فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٧٥ - ٨٥].

ولكن في الواقع أنّ إضلال النّاس ليس نجاحاً للشيطان كما توهّم السائل؛ لأنّ إضرار الناس ليس بإنجاز، خصوصاً أنّه لا يعود على الشيطان بأيّ فائدة، وإنّما يعود عليه بالمضرّة الدائمة والعذاب الأليم.

وأمّا نجاح الشَّرّ، وانهزام الخير فهذا أمر معلوم منذ أن خلق الله الخليقة إلى عصرنا هذا، وهو غير قابل للإنكار، ولكن كما يقال: «إنّ للباطل جولة، وللحقّ دولة»، والدولة الدائمة ستكون للخير والحقّ إذا ظهر المنقذ العالمي، وهو الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما مُلئت ظلماً وجوراً، فإنّ الصراع بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشّر لم ينته بعد، والحرب لا تزال قائمة، ونتائج الحرب إنّما تكون في نهايتها، والله تعالى وعد المؤمنين بالنصر، حيث قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وأمّا صحّة نبوءة الملائكة التي ذكرها السائل، وهي أنّ الناس سيفسدون في الأرض، ويسفكون الدماء، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، فهي أمر غير قابل للإنكار؛ لأنّها حقيقة واقعة، والله جلّ وعلا لم يخطّئ الملائكة في ذلك،

ولكنّه سبحانه أجابهم بأنّه يعلم بالمصالح العظيمة من خلق الخلق، وبالحِكَم الداعية لجَعْل خليفة فيها، وأنّ كلّ ما يقع في الأرض من المفاسد لا يرجح على تلك المصالح المهمّة.

الإيمان بوجود النار

السؤال (٢٦): كيف تؤمنون بوجود النّار التي يُعذَّب فيها العصاة مع أنّها تتنافى مع الرحمة والحب؟

والجواب:

١ - إخبار الله تعالى بذلك: فإنّ الله تعالى أخبرنا بأنّه خلق النّار، فيما ذكره في كتبه السماوية المقدّسة، كقوله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿أُعِدَّتۡ﴾ بصيغة الفعل الماضي يدلّ على أنّ النّار مخلوقة في هذا الوقت على ما هو مقتضى دلالة الفعل الماضي الذي يدلّ على وقوع الفعل في الزمان السابق.

قال الشيخ الطبرسي قدّس سرّه:

> واستُدلَّ بقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على أنّ النّار مخلوقة الآن؛ لأنّ المُعَدّ لا يكون إلا موجوداً، وكذلك الجنّة بقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، والفائدة في ذلك أنّا وإن لم نشاهدهما فإنّ الملائكة يشاهدونهما، وهم من أهل التكليف والاستدلال، فيعرفون ثواب الله للمتّقين، وعقابه للكافرين[١].

قلت: لعلّ من فوائد وجود النّار والجنّة الآن هو أنّ وجود النّار ربّما يُرهب من تسوِّل له نفسه فعل المعصية، فيرعوي، ويرجع إلى رشده، نظير من تهدّده والده بضربه بالعصا مثلاً إن فَعَلَ الأمر الفلاني، فإنّ عِلْمَه بوجود العصا

---

(١) مجمع البيان ١/ ٦٤.

ربّما يمنعه عن مخالفة أوامر أبيه، بخلاف ما لو علم أنّ أباه لم يُحضر العصا بعد، فإنّ ذلك ربّما يجعله يتهاون في مخالفة أبيه.

وهكذا الحال في وجود الجنّة في هذا الوقت؛ فإنّ من علم أنّ الجنّة موجودة بقصورها وحورها ونعيمها ربّما يكون حماسه لعمل الطاعات أكبر، كما قال بُرير بن خضير وهو من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: فوالله ما هو إلا أن نلقىٰ هؤلاء القوم بأسيافنا، نعالجهم بها ساعة، ثمّ نعانق الحور العين[١].

وأنبياء الله ورُسُله وحُجَجه عليهم السلام بلّغوا ذلك عن الله أيضاً، وهم لا يختلفون في ذلك، ولا يختلف الناس فيه أيضاً، وحيث إنّه قد ثبت بالدليل الصحيح أنّهم عليهم السلام أنبياء الله تعالى وحُجَجه، فإنّه يجب علينا تصديقهم في كلّ ما يبلّغونه عن الله تعالى، ولا يجوز لنا تكذيبهم فيما لا تدركه عقولنا كخلق الجنّة والنّار ونحو ذلك.

٢- ضرورة إقامة العدل: فإنّ النّاس منذ أن بدؤوا يعيشون على هذه الأرض في مجتمعات بدائية، صاروا يتنازعون على خيرات هذه الأرض وكنوزها، فصار بعضهم يقتل بعضاً، ويعتدي بعضهم على بعض، ويسلب القويّ منهم حقّ الضعيف، ومن المعلوم أنّ كثيراً من الظالمين قَتَلوا مئات الألوف من الأبرياء، وشرّدوا كثيراً من الآمنين، وفعلوا الأفاعيل التي تشيب من هولها الولدان، ثمّ ماتوا لم يمسسهم سوء، ولم يأخذ واحد من المظلومين حقّه منهم.

وبما أنّ الله تعالى قادر على أن يقيم العدل، بإعادة الظالم والمظلوم إلى حياة أخرى من جديد، والانتصاف للمظلوم من الظالم، فإنّ العقلاء يرون أنّه يجب

---

(١) اللهوف في قتلى الطفوف: ٥٨.

على الله سبحانه أن ينتصف لأولئك المظلومين، وأن ينتقم لهم ممّن ظلمهم، ويعاقب الظالمين على أعمالهم القبيحة، وتركُ الظالم من دون محاسبة ولا عقاب قبيح عند العقلاء، يذّمون فاعله، ويوبّخونه، والله سبحانه لا يمكن أن يفعل القبيح بأيّ نحو، فينتج من كلّ هذا أنّ الله سبحانه وتعالى لا بدّ أن ينتصف للمظلوم من الظالم، وأن يعاقب الظالم على ما جَنَتْه يداه من الظلم.

والانتصاف من الظالم ومعاقبته لا يكون إلا في نار جهنّم التي أعدّها الله لذلك كما قال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وعليه فإنّ خلق النّار لعذاب الكافرين ومعاقبتهم على أعمالهم أمر لازم لا بدّ منه، تقتضيه إقامة العدل والعقاب على الظلم.

٣- **ردع العباد عن المعاصي والذنوب:** فإنّ عدم إيجاد النّار لمعاقبة المسيئين يعني أنّه لا عقاب على الذنوب والمعاصي، وأنّ كلّ واحد من النّاس له أن يفعل ما يشاء من دون أن يؤاخَذ على شيء من أفعاله القبيحة أو يعاقَب عليها، ولا شكّ في أنّ عدم المؤاخذة على الأفعال القبيحة يجعل حياة النّاس على الأرض لا تطاق؛ ويحوّلها إلى حياة أشبه ما تكون بحياة الغاب التي يأكل فيها القويُّ الضعيف؛ لأنّ عدم العقاب يغري أكثر النّاس بالجهل وارتكاب الفواحش والموبقات بلا حدود؛ لأنّ مَنْ أَمِنَ العقوبة أساء الأدب.

وهذا ما نلاحظه في الحالات التي تضعف فيها سلطة الدولة، حيث يحصل انفلات أمني، فتكثر السرقات، ويزداد القتل والنّهب والتعدّي وغير ذلك من الأفعال القبيحة التي مَنَع الناسَ عن ارتكابها سابقاً خوفُ الدولة ومؤاخذة القانون.

وعليه، فإنّ مصلحة النّاس تقتضي سنّ القوانين التي يلزم من مخالفتها

الوقوع تحت طائلة العقاب عاجلاً في الدنيا، أو آجلاً في الآخرة، والنّار ما هي إلا مكان يعاقَب فيه المسيئون المستحقّون للعقاب، لا أكثر من ذلك ولا أقلّ، فمتى ما قلنا بلزوم العقاب على الذنوب والمعاصي، فلا بدّ أن نقول بضرورة خلق النّار التي هي مكان لذلك العقاب.

وأمّا ما تصوّره السائل من أنّ المنافاة بين خلق النّار والرحمة والحب يوجب ضرورة عدم خلق النّار، فيمكن الجواب عليه بجوابين:

١- **أنّ النار مكان للعقاب:** فإنّ الله تعالى خلق النّار لكي يعاقب فيها العتاة والطواغيت والظالمين وغيرهم من المذنبين الذين يستحقّون العقاب على ما اقترفوه من الظلم والجرائم والذنوب والمعاصي.

ومن الطبيعي ألّا يكون في نار جهنّم مكان للرحمة والحبّ؛ لأنّها خُلقت لغير ذلك، ومن يطلب الرحمة والحبّ في نار جهنّم فقد أخطأ الطريق إليهما؛ لأنّها مكان غضب الله وعقابه، وأمّا مكان الرحمة والحبّ فهو الجنّة التي أعدّها الله لسعداء خلقه.

والنّار تشبه السجون التي تُنشِئُها الدول والحكومات لمعاقبة المجرمين والقتلة والسفّاحين ونحوهم، ومن الخطأ أن تُعاب الدولة المدنية بأنّها غير رحيمة بالشعب؛ لأنّها بَنَت السجون، أو تُعاب تلك السجون بأنّها خالية من الحبّ والرحمة بنُزَلائها.

ومن نفى وجود النّار بظنّ أنّ الله تعالى رحيم بعباده محبّ لهم، وأنّ رحمته الواسعة تقتضي أن يرحم جميع خلقه ويحبّهم، وألّا يعذِّب أحداً من النّاس، فهو واهم قطعاً؛ لأنّ الله تعالى كما أنّه رحيم بعباده المؤمنين الصالحين، فإنّه شديد العقاب لعباده الظالمين المجرمين.

ولو كانت رحمته التي وسعت كلّ شيء تقتضي ألّا يعذّب العصاة

والمذنبين والمجرمين والطواغيت والظلمة ونحوهم لما حسن منه سبحانه أن يكلّف الناس بتكاليف، أو يبعث أنبياء ورُسُلاً، أو يشرِّع شرائع وأدياناً، ولكان خلقه لهذا الكون بجميع ما فيه عبثاً، ولكانت الغاية من خلق الخلق غير مهمّة كالأكل والشرب ونحو ذلك، أو كانت الغاية سيّئة، وهي إغراؤهم بفعل المعاصي والقبائح، وظلم بعضهم بعضاً.

وهذا كلّه لا يصحّ؛ لقيام الأدلّة الصحيحة على خلافه.

ومن ينفي وجود النار لأنّها تتنافى مع الرحمة والحب يشبه من ينفي وجود سجن في بلادٍ ما؛ لأنّه يعلم أنّ حاكم تلك البلاد رحيم بشعبه محبّ لهم، فيتوهَّم أنّ بناء السجن يتنافى مع رحمته بشعبه؛ مع أنّ عقاب المسيئين والضرب على أيدي المعتدين هو الذي تقتضيه رحمته بشعبه وحبّه لهم، وإلّا فإنّ القوي سيأكل الضعيف، وسيعتدي بعض الناس على بعض.

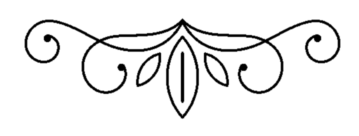
٢- أنّ أهل النّار مستحقّون لغضب الله: فإنّ مقتضى الحكمة أن يضع العاقلُ حُبَّه ورحمته ورضاه في مواضعها، ويضع بغضه ونقمته وسخطه في موضعها، وموضع حُبّ الله ورحمته هم عباده الصالحون المتّقون، وموضع بغضه ونقمته وسخطه هم العصاة الظالمون والعتاة والطواغيت الذين يَذُمُّ العقلاءُ من أحبّهم أو رضي عنهم.

ولهذا فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الجنّة، وجعلها محلًّا يتنعّم فيه عباده المؤمنون المتّقون بالنعيم الدائم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، وأفاض عليهم فيها من رحمته وحبّه ورضاه عنهم ما شاء، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ [سورة البينة: ٧، ٨].

كما أنّه سبحانه خلق النّار، وجعلها محلًّا يُعذِّب فيه العصاة والمجرمين،

ويعاقبهم على سوء أعمالهم، وهذا لا يتنافى مع رحمته سبحانه وحبّه اللذين ينبغي أن يكون لهما موضع آخر غير النّار وغير أهلها.

إثارات حول خلق
الأمراض والكواكب وغيرها



لماذا لا يدفع الله الأمراض والبلايا والظلم؟

السؤال (٢٧): الأمراض والبلايا والظلم في كلّ مكان، فأين هو الله من كلّ ذلك؟

والجواب:

١- كفاية قدرة الإنسان على دفع الأمراض والظلم: فإنّ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وأعطاه العقل والتدبير والعلم كما قال سبحانه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، وبيّن له أنّ كلّ ما حصل عليه من العلوم قليل، فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وحثّه على طلب المزيد من العلم، فقال سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ووعد الإنسان بكشف آفاق العلم إليه، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، مع ما وهبه من القدرة على الاكتشاف والابتكار والاستنتاج والاختراع وغير ذلك.

مضافاً إلى كلّ هذا فإنّه سبحانه سخَّر للإنسان كلّ إمكانات الحياة الهائلة جدًّا، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٢ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢ - ١٣].

إذا عُلم ذلك نقول: إنّ الله لما أعطى الإنسان كلّ هذه الإمكانيات صار قادراً على اكتشاف الأدوية والعلاجات لجميع الأمراض وعلى مكافحة الأوبئة، ونحن نعتقد أنّه ما من داء في الأرض إلا وقد خلق الله له دواء.

فقد روى ابنا بسطام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: أنزل الله

الداء، وأنزل الشفاء، وما خلق الله داءً إلا جعل له دواء[١].

ولهذا نجح الإنسان في معالجة كثير من الأمراض، وبقي عليه أن يبذل جهده في محاربة باقي الأمراض الأخرى، وقد استطاع الإنسان أخيراً أن يقضي على بعض الأمراض التي كان علاجها يُعَدُّ مستعصياً عليه، كمرض الجدري مثلاً الذي أعلنت منظمة الصحّة العالمية في عام ١٩٨٠م عن استئصاله من العالم بالكامل[٢].

وأمّا الظلم فإنّه بفعل الإنسان، والمظلومون قادرون على رفع الظلم عن أنفسهم إذا تضافرت جهودهم، ووحَّدوا صفوفهم، واتّحدوا ضدّ الظالم، فإنّ ذلك ربّما يكون من أسباب ارتفاع الظلم.

وبتعبير آخر: إنّ الله تعالى أعطى الإنسان القدرة على رفع الظلم عن نفسه، والله سبحانه لم يخلق ظالماً لا يُقهر، وحوادث التاريخ أدلّ دليل على صحّة ما قلناه، فكم من حاكم جائر اندحر وهلك لما ثار عليه المظلومون، وثأروا لأنفسهم.

٢- **جناية الإنسان على نفسه:** فإنّ كثيراً من الأمراض ربّما يصاب بها الإنسان بسبب إهماله وتقصيره في العناية بنظافة جسمه وطعامه، مثل الطاعون وغيره من الأمراض المعدية.

كما أنّ عدم تنظيم الإنسان لطعامه كمًّا وكيفاً، بتناول الأطعمة غير الصحّية بكميات كبيرة، ربّما يصيبه بكثير من الأمراض الخطيرة التي لا يتمكّن الأطباء بعد ذلك من معالجتها، وربّما تودي بحياته في نهاية المطاف، مثل ضغط الدم، ومرض السكّري، والسرطان وغير ذلك.

---

(١) طب الأئمة: ٦٣.

(٢) http://www.who.int/topics/smallpox/ar/.

مضافاً إلى أنّ سوء تصرّف الإنسان الذي لا يراعي القانون الإلهي قد يصيبه بكثير من الأمراض الفتّاكة، كالأيدز، والزُّهري، وغيرهما من الأمراض الجنسية التي تحدث عادة بسبب العلاقات غير المشروعة.

وبقول مختصر: إنّ إصابة الإنسان بالأمراض ناشئة في أكثر الأحيان من تقصيره وإهماله وعدم محافظته على صحّته.

فهل يحقّ للإنسان بعد ذلك أن يلقي باللوم على الله تعالى؛ لأنّه لم يعالجه من مرضه الذي تسبَّب هو فيه؟ مع أنّ الله تعالى بيَّن له بالتفصيل - قبل إصابته بالمرض - ما ينفعه وما يضرّه من المأكولات والمشروبات والأفعال القبيحة التي قد تودي بحياته، ثمّ حذّره من تناول تلك المأكولات والمشروبات وارتكاب تلك الأفعال الضارّة التي حرّمها عليه، حيث أباح للإنسان أكل الطيِّبات، ونهاه عن أكل الخبائث كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ومع ذلك فإنّه سبحانه خلق له المواد التي يمكن أن يصنع منها الدواء لكلّ داء، وأمره بالاستفادة منها.

وكذلك الحال في الظلم الذي يقع على الناس، فإنّه في أكثر الأحيان بسببهم هم؛ لأنّ الناس عندما يبتعدون عن تعاليم الله تعالى التي تكفل لهم الحياة السعيدة، فيرتكبون المعاصي، ويعملون الفواحش والموبقات، ويظلم بعضهم بعضاً، ولا ينكرون على الظالم ظلمه، بل يجاملونه، ويصحّحون أعماله القبيحة، ويشجّعونه عليها، أو يكونون من أعوانه الذين يعينونه في ظلمه، فإنّ الظالم سيتمادى في ظلمه، والله تعالى حينئذ لا يرفع عنهم هذا الظلم الذي وقع عليهم؛ لأنّه أصابهم بجنايتهم على أنفسهم؛ ولأنّهم لا يستحقّون أن يغضب الله لهم بسبب كثرة معاصيهم.



قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠].

٣- ابتلاء الله تعالى لخلقه: فإنّ الله تعالى لم يجعل الدنيا دار قرار ونعيم، وإنّما جعلها دار بلاء وامتحان؛ ليثيب المحسن على إحسانه في جنّته، ويعاقب المسيء على إساءته في نار جهنّم، فشرع للنّاس الشرائع السماوية، وأرسل لهم الأنبياء والرسل، وأنزل لهم الكتب، وبيَّن لهم ما ينفعهم وما يضرّهم، ليحيا من حيَّ على بيِّنة، ويموت من مات على بيِّنة.

والله تعالى نهى عباده عن ظلم بعضهم بعضاً، وتوعّدهم، وحذَّرهم من عواقب الظلم في الدنيا والآخرة، وآلى على نفسه ألّا يفوته ظلم ظالم، وأن ينتصف لكلّ مظلوم من ظالمه.

ولكنّ الله تعالى ابتلى بعض الخلق ببعض، فابتلى المظلوم بالظالم؛ ليرى هل يصبر أم يكفر، وابتلى الظالم بالمظلوم، فسلّطه عليه؛ ليرى هل يظلمه أم ينصفه.

والله تعالى وإن أمهل الظالم في الدنيا، فلم يعاجله بالعقوبة لحكمة سيأتي بيانها، إلا أنّه سبحانه سيعاقبه ولو بعد حين؛ لأنّه لا يفوته ظلم ظالم.

وأمّا الأمراض فمع أن المتسبِّب فيها كلّها هم الناس أنفسهم كما بيَّنا فيما تقدّم، إلا أنّها تدخل أيضاً فيما يبتلي الله تعالى به العباد، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين.

٤- معاجلة الظالمين بالهلاك: فإنّ الله تعالى عاقب كثيراً من الظالمين في الأرض، فعجَّل بإهلاكهم، ولم يُطِل أعمارهم كما كانوا يحبّون، وقضى مُدَدهم بأسرع ممّا كانوا يظنّون، وربّما أمرضهم بالأمراض الشديدة المؤلمة قبل أن يهلكهم كما حصل ذلك لكثير من العتاة والطواغيت:

منهم: يزيد بن معاوية (٢٥ أو ٢٦، أو ٢٧-٦٤هـ)، مات وعمره ٣٩

سنة أو ٣٨، أو ٣٧[١].

ومنهم: الحجّاج بن يوسف الثقفي (٤٠-٩٥هـ)، الذي هلك وله من العمر ٥٥ سنة لم يتجاوزها[٢].

ومنهم: أكثر الخلفاء الأمويين والعباسيين، فإنّهم كانوا ظالمين طواغيت، قد قصم الله أعمار أكثرهم بسبب ظلمهم وجورهم، كالوليد بن عبد الملك بن مروان (٥٠-٩٦هـ)، الذي مات وعمره ٤٦ سنة، وقيل: ٤٩، وقيل: ٤٤[٣].

وسليمان بن عبد الملك بن مروان (٥٤-٩٩هـ)، مات وعمره خمس وأربعون سنة، وقيل: ٤٣، وقيل: ٣٩[٤].

ويزيد بن عبد الملك بن مروان (٧٢-١٠٥هـ)، مات وعمره ٣٣ سنة، وقيل: ٣٥، وقيل: ٣٨، وقيل: ٣٩، وقيل: ٤٠ سنة[٥].

وهشام بن عبد الملك بن مروان (٧٢-١٢٥هـ)، مات وعمره ٥٣ سنة.

والوليد بن يزيد بن عبد الملك (٩٠-١٢٦هـ)، قُتل بسبب فسقه واستهتاره وتجاهره بالمنكرات، وكان عمره حينئذ ٣٦ سنة.

ويزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان (٩٠-١٢٦هـ)، ولي الخلافة ستّة أشهر، ومات بالطاعون، وعمره ٣٦ سنة.

قال ابن كثير: وأكثر ما قيل في عمره: ستّ وأربعون سنة، وقيل: ثلاثون سنة، وقيل غير ذلك، فالله أعلم[٦].

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٣٩.

(٢) نفس المصدر ٩/ ١٤٥.

(٣) نفس المصدر ٩/ ١٦٨.

(٤) نفس المصدر ٩/ ١٨٤.

(٥) نفس المصدر ٩/ ٢٤٢.

(٦) نفس المصدر ١٠/ ١٨.

وأمّا خلفاء بني العباس فأوّلهم: أبو العباس عبد الله السفاح الذي مات في سنة ١٣٦هـ.

قال ابن كثير:

توفّي بالجدري بالأنبار يوم الأحد الحادي عشر، وقيل: الثالث عشر من ذي الحجّة سنة ستّ وثلاثين ومائة، وكان عمره ثلاثاً، وقيل: اثنتين، وقيل: إحدى وثلاثين سنة، وقيل: ثمان وعشرين سنة، قاله غير واحد[(١)].

ومنهم: المهدي ابن المنصور: مات في سنة ١٦٩هـ، وكان مولده في سنة ١٢٦، أو ١٢٧، أو ١٢١هـ، فيكون عمره عند موته ٤٣، أو ٤٢ سنة أو ٤٨ سنة[(٢)].

ومنهم: موسى الهادي ابن المهدي العباسي (١٤٧-١٧٠هـ) ، مات وله من العمر ثلاث وعشرون سنة، ومدّة خلافته ستة أشهر[(٣)].

ومنهم: هارون الرشيد: توفي في سنة ١٩٣هـ.

قال ابن كثير:

كان مولده في شوال سنة ست وقيل: سبع، وقيل: ثمان وأربعين ومائة، وقيل: إنّه ولد سنة خمسين ومائة، وبويع له بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي في ربيع الأول سنة سبعين ومائة، بعهد من أبيه المهدي[(٤)].

فعلى هذا يكون عمره عند موته: ٤٧ سنة، أو ٤٦، أو ٤٥، أو ٤٣ سنة.

---

(١) نفس المصدر ١٠/ ٦٠.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ١٥٦.

(٣) نفس المصدر ١٠/ ١٦٣.

(٤) نفس المصدر ١٠/ ٢٢٢.

ومنهم: محمد الأمين ابن هارون الرشيد، وُلد في سنة ١٧٠هـ، وقُتل في سنة ١٩٨هـ، وعمره عند قتله ٢٨ سنة[(١)].

ومنهم: عبد الله المأمون ابن هارون الرشيد: توفّي في سنة ٢١٨هـ، وله من العمر ٤٨ سنة[(٢)].

ومنهم: محمد المعتصم ابن هارون الرشيد: ولد في سنة ١٨٠هـ، وتوفّي في سنة ٢٢٧، وله من العمر ٤٧ سنة[(٣)].

ومنهم: هارون الواثق ابن المعتصم: توفّي في سنة ٢٣٢هـ، وكان عمره ٣٦، وقيل: ٣٢ عاماً[(٤)].

ومنهم: جعفر المتوكِّل ابن المعتصم: قَتله ابنه المنتصر في سنة ٢٤٦هـ، وكان مولده سنة ٢٠٧هـ، فيكون عمره عند قتله ٣٩ سنة[(٥)].

وهكذا كثير منهم، كانت أعمارهم قصيرة.

وأمّا في العصر الحديث **فمنهم**: أدولف هتلر (١٨٨٩- ١٩٤٥م)، الذي انتهت حياته بالانتحار بعد أن هزمه الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، واحتلّوا برلين، وكان عمره ٥٦ سنة.

ومنهم: صدام حسين (١٩٣٧-٢٠٠٣م) الذي انتهت حياته بالسجن، والمحاكمة المهينة له، ثمّ بالإعدام شنقاً، وكان عمره ٦٦ سنة.

وغيرهم كثير، ولو أردنا أن نتتبّعهم لطال بنا المقام، وحال كثير من

---

(١) نفس المصدر ١٠/ ٢٥٢.

(٢) نفس المصدر ١٠/ ٢٩٣.

(٣) نفس المصدر ١٠/ ٣٠٩.

(٤) نفس المصدر ١٠/ ٣٢٣.

(٥) نفس المصدر ١٠/ ٣٦٤.

الحكّام الظلمة معروف، وسيرهم مشهورة ومدوّنة في الكتب، وأكثرهم قُصمت أعمارهم.

هذا ما يتعلّق بعقاب الظالمين في الدنيا، وأمّا الأمراض فإنّ الله تعالى أيضاً يعاقب بها الظالمين والعاصين، ويجعلها حجّة عليهم؛ لأنّه سبحانه لم يدفع عنهم الأمراض ليتوبوا، ويرعووا عن ظلمهم، فإذا لم يتوبوا قامت عليهم الحجّة.

كما أنّه سبحانه يثيب المؤمنين الموحّدين بما يصابون به من أمراض وعِلَل وأوجاع وما شاكل ذلك.

فقد روى الشيخ الكليني قدس سره بسنده عن أحدهما عليهما السلام قال: سَهَرُ ليلةٍ من مرض أو وجع أفضل وأعظم أجراً من عبادة سنة[١].

وبسنده عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: حُمّىٰ ليلة تعدل عبادة سنة، وحمّىٰ ليلتين تعدل عبادة سنتين، وحمّىٰ ثلاث تعدل عبادة سبعين سنة...[٢].

وبسنده عن محمد بن مروان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: حُمّىٰ ليلةٍ كفارةٌ لما قبلها ولما بعدها[٣].

٥- استدراج الظالمين: فإنّ الله تعالى ذكر في كتابه العزيز أنّه يملي للظالمين في هذه الدنيا، فلا يعاجلهم بالعقوبة، وإنّما يعطيهم ما شاؤوا من الأموال والرجال والسلاح وغير ذلك ممّا يزدادون به عتوًّا وبَطَراً وطغياناً وظلماً؛ لكي يزدادوا إثماً، ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

---

(١) الكافي ٣/ ١١٤.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر ٣/ ١١٥.

وقال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال عزَّ من قائل: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [المدثر: ١١-١٧].

والله سبحانه وتعالى إنّما يمهلهم لأنّه لا يخشى فوتهم منه وهربهم من عدله، ولا يَعْجَل إلا من يخاف الفوت، فعدم معاجلة هؤلاء الظالمين الطغاة بالعقوبة في الدنيا ليس خيراً لأنفسهم، وإنّما هو شرٌّ لهم.

وأمّا المريض فإن كان صالحاً فإنّ مرضه كفّارة لذنوبه كما مرّ، وكلّما طال مرضه أعطاه الله من الثواب ما يعطي الصابرين على بلائهم، وأمّا إذا كان المريض عاصياً فإنّ مرضه إمّا عقوبة له، أو تذكيراً له لكي يتوب ويندم على ما اقترفت يداه؛ لكي يَفِدَ على الله تعالى - إن تاب - وقد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمُّه.

٦- **محبة الله لأصوات الداعين:** فإنّ الله تعالى يحبُّ من عبده أن يجأر إليه بالدّعاء وطلب الحاجات، وأن يتوسّل إليه في قضائها، ومن تلك الحاجات طلب رفع الظلم عنه، وطلب شفائه من كلّ داء وسقم، وغير ذلك.

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال سبحانه فيما حكاه عن نبيّه نوح عليه السلام: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ [القمر: ٩،١٠].

فلو أنّ الإنسان لا يمرض ولا يُظلم ولا تصيبه أي بليّه لانقطعت صِلَتُه بربّه، ولعلّ ذلك يؤدّي به إلى التمادي في فعل الآثام والذنوب، والانحدار سلوكيًّا وأخلاقيًّا.

والحاصل أنّ عدم معاجلة الظالمين بالعذاب والهلاك، وعدم شفاء المرضى لا يدلّان على عدم وجود الله سبحانه كما توهّم السائل، بل كلّ واحد من هذين الأمرين وغيرهما من البلايا فيه مصالح كثيرة عرفنا بعضاً منها، ولعلّ ما خفي علينا أكثر ممّا عرفناه منها.

فائدة خلق المجرّات والنجوم والكواكب

السؤال (٢٨): إذا كان الله خلق الكون ليختبر الإنسان، فما فائدة وجود كلّ هذا العدد الهائل من المجرّات والنّجوم والكواكب؟

والجواب: أنّ الاختبار ليس هدفاً لله تعالى من خلق الكون، والله تعالى عالم بكلّ شيء، لا يعزب عن علمه شيء، كما قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[سبأ: ٣].

فهو سبحانه لا يحتاج لخلق الكون وخلق الإنسان لكي يختبره فيعرف حاله؛ لأنّ الله تعالى يعلم بما يوسوس له قلبه، وما يجول في خاطره، وما يعزم على فعله، وما سيفعله قبل أن يخلقه.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[ق: ١٦].

ولقد سبق أن بيّنّا فيما تقدّم أنّ الله تعالى خلق الإنسان لينفعه النفع الكثير الدائم في هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وجعل ابتلاءه في الحياة الدنيا سبباً لاستحقاقه دخول جنّته، ونيل النعيم الدائم فيها، فالابتلاء ليس غاية، إنّما هو طريق إلى الغاية.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[الملك: ٢].

وأمّا الكواكب والنّجوم والمجرّات فإنّ الله تعالى لم يخلقها عبثاً، وإنّما خلقها لِحِكَم ومصالح، منها:

١ - إثبات الذات الإلهية: فإنّ الكواكب والنّجوم تدلّ على عظيم قدرة الله تعالى، وتُثبت ربوبيّته سبحانه، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وكلّ من نظر في خلق السماوات والأرض، وما في السماوات من كواكب ونجوم كثيرة، ومجرّات عديدة، وتأمّل في سعة هذا الكون ونظامه الذي لا يختلّ، وتدبَّر في خلق الأرض، وسهولها وجبالها وأنهارها وهوائها، ونظر إلى ما فيها من عجائب المخلوقات، كالحيوانات بجميع أنواعها، والطيور والزواحف والحشرات، وكذا النباتات الغريبة، والأشجار الكثيرة بثمارها المتنوّعة، والزهور بألوانها الجذّابة المختلفة، وكذا الأسماك التي لا حصر لها، التي يختلف كلّ نوع منها عن النوع الآخر في الشكل والطعم، وغير ذلك ممّا أودعه الله تعالى في هذه الأرض ممّا خلقه للإنسان - يقطع بأنّ لهذا الكون خالقاً حكيماً مبدعاً مستحقًّا للعبادة، وأنّه لحكمته لم يخلق كلّ هذه المخلوقات عبثاً لا لغاية شريفة، وإنّما خلقها لحكمة بالغة.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: فأقام من شواهد البيِّنات على لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول، معترفةً به ومسلِّمةً له، ونعقت في أسماعنا دلائله على وحدانيته[١].

٢- معرفة الأوقات والجهات: فإنّ الإنسان يعرف بواسطة بعض

---

(١) نهج البلاغة: ٢٦٧.

الكواكب والنّجوم أوقات الليل والنّهار، والجهات والبلدان، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطبّ للأبدان، والنّحو للسان، والنّجوم لمعرفة الأزمان[١].

والناس قديماً كانوا يعرفون منتصف الليل، والثلث والسدس الأخيرين من الليل، بملاحظة النّجوم في السماء.

وكان من السهل عندهم معرفة جهة الشمال بالنّجم القُطبي أو نجم الشمال، وهو الذي يسمّيه القدماء: الجدي.

وبالجدي كان المسلمون في العراق يعرفون جهة القِبْلة.

قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره:

ويمكن أهل العراق أن يعرفوا قبلتهم بكون الجدي خلف منكبهم الأيمن، أو كون الشفق محاذياً للمنكب الأيمن، أو الفجر محاذياً للمنكب الأيسر، أو عين الشمس عند الزوال بلا فصل على حاجبه الأيمن[٢].

كما أنّ القدماء كانوا يعرفون قرب دخول الفصول ببعض النّجوم، فيعرفون قرب ذهاب فصل الصيف واعتدال الهواء إذا رأوا نجم سهيل Canopus.

---

(١) معدن الجواهر: ٤٠. لعلّ حصر العلوم في هذه الأربعة بلحاظ أنّها علوم ضرورية لا يستغني الناس عنها، بخلاف العلوم الأخرى، فكثير من الناس يستغنون عنها وإن كانت مهمّة في نفسها.

(٢) الاقتصاد: ٢٥٧.

وقد ورد في موسوعة ويكيبيديا في مادة (سهيل: نجم) ما يلي:

هو ألمع نجم في مجموعة النّجوم المكوِّنة لكوكبة القاعدة، وثاني ألمع نجم في السماء ليلاً بعد الشعرى اليمانية، ويأتي بعده مباشرة في الترتيب حارس السماء طبقاً لقائمة أشدّ النجوم سطوعاً. تسهل مشاهدته من نصف الكرة الأرضية الجنوبي، أمّا في النصف الشمالي فيظهر في أواخر الصيف باتّجاه الجنوب، وأحسن الفترات لرصده وسط فصل الشّتاء...

أمّا في النصف الشمالي حيث الجزيرة العربية تقع ضمن نطاقه، فلا يظهر في سمائها باتّجاه الجنوب إلا في أواخر أغسطس (آب)، وتحديداً في الرابع والعشرين منه، ويعني ظهوره بداية التغيّر الفصلي، وانتهاء ريح السموم حسب المقولة: «سهيل نجم بهيّ، طلوعه على بلاد العرب في أواخر القيظ».

ثمّ قال كاتب المقال:

بالحساب الفلكي يعتبر اليوم ٢٥ أغسطس يوم دخول نجم سهيل، وفي هذا اليوم تبدأ تظهر البوادر الدالّة على ظهوره، منها:

١- قِصَر النّهار.

٢- برودة الجوّ نسبيًّا.

إلى أن قال:

أمّا عن الحاضر فقد اتّخذته وكالة ناسا، وكالة الفضاء الأمريكية وسيلة من وسائل تحديد الملاحة الفضائية، حيث من خلال تحديد موقع نجم سهيل يتمّ تحديد ثمّ توجيه بعض السفن والمركبات الفضائية إلى مساراتها البعيدة عن الكون[1].

---

(١) موسوعة ويكيبيديا، مادة: (سهيل: نجم).

راجع: http://www.constellation-guide.com/canopus/

وقد كانت معرفة فصول السنة بواسطة النّجوم عند القدماء تفيدهم في معرفة أوقات الزَّرع والحصاد، ولولا اعتمادهم في معرفة الأوقات على النّجوم لما أمكنهم أن يزرعوا النباتات في أوقاتها الصحيحة.

كما أنّهم كانوا يتنبّؤون بملاحظة مواقع النّجوم واقتراناتها بكثير من الحوادث، كحدوث الخصب، ووقوع القحط، والجفاف، وغلاء الأسعار، وانتشار الأمراض، وحدوث الحروب، وغير ذلك.

أضف إلى ذلك أنّهم كانوا يعرفون بملاحظة النّجوم الأوقات المناسبة لعقد النكاح، والزفاف، والسفر، والبدء في البناء، والانتقال من مكان إلى مكان، ونحو ذلك.

ولعلّ الإنسان في المستقبل يكتشف لهذه النّجوم فوائد أخرى كثيرة تفوق ما ذكرناه، ومن الخطأ الاستعجال في الحكم عليها بأنّها لا فائدة فيها بمجرد عدم إدراك أيّ شيء من فوائدها العظيمة.

٣- **معرفة الإنسان قدر نفسه:** فإنّ الإنسان إذا رأى هذا الكون الفسيح فإنّه سيعرف حجمه الحقيقي، وسيتبيّن له مقداره في هذا الكون الكبير، وسيعلم أنّه مجرّد مخلوق صغير وضعيف جدًّا، ولو أراد أن يقيس نفسه بالكون فسيجد أنّه لا يساوي في الكون ما تساويه ذَرّة في جبل، وإذا علم أنّ الأرض التي يعيش فيها ليست هي كلّ الكون، وإنّما هي كوكب صغير جدًّا، من مليارات الكواكب والنّجوم التي تفوق حجم الأرض بآلاف المرّات، فسيعلم حينئذ سعة هذا الكون، وسيكتشف أنّ هذه السّعة فاقت جميع تصوّراته، وهذا وحده كافٍ في تعريفه بضآلة قدره، التي تفيده في الإقلاع عن عُجْبه بنفسه، وتكبّره على عبادة ربِّه، وشموخه بأنفه على غيره من عباد الله تعالى، وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا الدرس الأخلاقي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

ومن الواضح أنّ الإنسان إذا عرف حجمه الحقيقي في هذا الكون فإنّه لن يخطر في ذهنه أنّه مؤهّل لادّعاء الربوبية والألوهية كما صنع فرعون مصر الذي قال: أنا ربّكم الأعلى.

قال تعالى مخاطباً نبيّه موسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾[النازعات: ١٧-٢٦].

٤- تزيين السماء الدنيا: فإنّ الله سبحانه جعل المجرّات والنّجوم والكواكب وتعالى زينة للسماء، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [الملك: ٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر: ١٦]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[ق: ٦].

وكلّ من نظر في السماء ليلاً وتأمّل فيها لا يملّ من النظر إليها، ويستشعر جمالها وجاذبيّتها؛ لأنّه يجد أنّ النّجوم اللامعة فيها والكواكب المتناثرة في جميع أنحائها تضفي بهاءً وجمالاً على صفحة السماء الواسعة، خصوصاً أنّ منظر السماء يختلف من جهة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، ومن وقت لآخر؛ لأنّ كثيراً من النّجوم تسير في السماء، ولا تبقى في مكانها، ومن كان عنده علم بالكواكب المشهورة كالزُّهرة أو المشتري أو غيرهما، أو كان عنده إلمام بالبروج كبرج العقرب Scorpius، وكوكبة الميزان Libra وغيرهما، أو كانت عنده معرفة أكثر بمجموعات الكواكب المختلفة الأخرى كالدب الأكبر Ursa Major، والمرأة المسلسلة Andromeda، وكوكبة الجبّار Orion، وغيرها، إذا نظر إلى السماء، وصار يبحث عن هذه الكواكب ويدقّق فيها فإنّه سيجد أنّ النظر إلى السماء فيه متعة تجعله منجذباً لمعرفة المزيد من أسرار هذه السماء

الواسعة.

أضف إلى ذلك أنّك عندما تنظر في السماء تجد بين حين وآخر شهاباً لامعاً يشق عنان السماء يميناً أو شمالاً، وترى كواكب لامعة ونجوماً فيها من البريق ما يضفي على السماء في الليل جمالاً أخّاذاً، ولولا هذه النجوم المتفاوتة في لمعانها، والكواكب المختلفة في قربها وبعدها، لكانت صفحة السماء سوداء قاتمة تصيب الناظر إليها بالكآبة والملل.

لماذا خلق الله هذا الكون الواسع؟

السؤال (٢٩): إذا كان الله قد خلق الكون الواسع للبشر لكي يعبدوه، فما الفائدة من وجود المجرّات والكواكب التي لا يستفيد منها الإنسان، فإنّه يتمكّن من عبادته من دون كلّ هذه المجرّات والكواكب؟

والجواب: أنّ الذي يظهر من بعض الآيات القرآنية المباركة أنّ الله تعالى خلق للإنسان جميع ما في هذه الأرض التي نعيش فيها، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

قال الشيخ المجلسي قدس سره:

> ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ امتنان على العباد بخلق ما يتوقّف عليه بقاؤهم، ويتمّ به معاشهم، ومعنى ﴿لَكُم﴾ لأجلكم وانتفاعكم في دنياكم، باستعمالكم بها في مصالح أبدانكم، بوسط أو غير وسط، وفي دينكم بالاستدلال والاعتبار والتعرّف بما يلائمها من لذّات الآخرة وآلامها، وهذا ممّا يُستدلّ به على إباحة جميع الأشياء إلا ما أخرجه الدليل، و ﴿مَا﴾ يعمّ كلّ ما في الأرض[1].

وأمّا الكواكب والمجرّات الأخرى غير الشمس والقمر فلا يظهر لي من آيات الكتاب العزيز أنّه سبحانه خلقها للإنسان وإن كان الإنسان ينتفع ببعضها، كما ينتفع بالنجوم للاهتداء مثلاً، إلا أنّه لم يكن العلّة الأساس لخلقها.

وعلى هذا فيمكن أن نحتمل أنّ الله تعالى قد خلق ما في الكواكب الأخرى الصالحة للحياة لخلقٍ آخرين ينتفعون بها، كما ينتفع الإنسان في هذه

---

(١) بحار الأنوار ٥٧/ ٤.

الأرض بما خلقه الله تعالى له فيها.

وظاهر بعض أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الله تعالى خلق عوالم أخرى كثيرة قبل خلق عالمنا هذا، فقد روى الشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن جابر بن يزيد، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [ق: ١٥]، قال: يا جابر تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وسكن أهلُ الجنّة الجنّة، وأهلُ النّار النّار، جدَّد الله عالماً غير هذا العالم، وجدَّد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماءً غير هذه السماء تظلّهم، لعلّك ترى أنّ الله إنّما خلق هذا العالم الواحد، وترى أنّ الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميّين[١].

ولعلّ المراد بالعوالم المشار إليها في الحديث كواكب أخرى يقطنها بشر وُلدوا من آباء آخرين غير النبي آدم عليه السلام، ولعلّ هؤلاء البشر قد انقرضوا، ولم يعد لهم أيّ وجود، أو أنّهم لا يزالون يمارسون حياتهم الطبيعية على تلك الكواكب المتناثرة في هذا الكون الفسيح.

والإمام عليه السلام في هذا الحديث تكلّم عن خلق تلك العوالم الكثيرة، ولم يبيّن أنّ تلك العوالم هل لا تزال موجودة لحدّ الآن، أو أنّها انقرضت وانقرض أهلها، ولعلّ السبب في ذلك هو أنّ الناس في عصر الإمام عليه السلام ربّما كانوا لا يصدّقون بوجود عوالم أخرى فيها حياة بشرية غير هذا العالم الذي نعيش فيه، وربّما يعدّون القول بذلك نوعاً من الزندقة أو ضرباً من الهرطقة، ولهذا ترك الإمام عليه السلام الخوض فيه، خصوصاً أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا مستهدفين من قبل

---

(١) التوحيد: ٢٧٧.

حكّام عصرهم الذين كانوا يحاولون أن يتصيّدوا عليهم أيّ مقالة تصدر عنهم، يمكن التشنيع بها عليهم، وتأليب العامّة عليهم؛ لإسقاط محلّهم في قلوب النّاس.

ووجود حياة بشرية في كواكب أخرى لا يتنافى مع البحوث العلمية الحديثة، فإنّ علماء الفضاء في العصر الحاضر لم يقرّروا بعدُ ما إذا كانت هناك حياة على الكواكب الأخرى في مجموعتنا الشمسية، أو في أيّ كوكب آخر من كواكب مجرّتنا المعروفة بدرب التبّانة، أو كواكب المجرّات الأخرى البعيدة.

نعم، احتمل الفلكيّون أنّ هناك كواكب كثيرة فيها قابلية لأن تكون صالحة للحياة، فقد أعلن الفلكيّون في ٤ نوفمبر ٢٠١٣م، اعتمادًا على البيانات الواردة من المهمّة الفضائية كيبلر، أنّه قد يوجد حوالي ٤٠ بليون كوكب في مثل حجم الأرض، تدور في النِّطاق الصالح للسكن حول نجوم مماثلة للشمس ونجوم حمراء قزمة، وكلّها توجد في نطاق مجرّة درب التبّانة، ومن هذه الأجرام التي قد تكون كواكب، يحتمل أن يكون ١١ مليون جرم، منها نجوم مثل الشمس تدور في مدارات، ويعتقد العلماء أنّه قد يكون أقرب تلك الكواكب إلينا على مسافة ١٢ سنة ضوئية[(١)].

إنّ علماء الفضاء لحدّ الآن لم يكتشفوا في الكواكب القريبة أو البعيدة من كوكب الأرض أيّ حياة لكائنات بشرية أو أخرى مشابهة أو مغايرة لها كالكائنات الفضائية التي تُصوِّرها أفلام الخيال العلمي، ولم يتّضح لهم بعد أنّ البشر على الأرض هم الوحيدون في هذا الكون، ولهذا فإنّهم بنوا كثيراً في أبحاثهم العلمية التي يحاولون بها اكتشاف آفاق الكون على احتمال وجود بشر آخرين في بعض كواكب مجموعتنا الشمسية وغيرها، لكن لم يتمّ اكتشاف شيء

---

(١) موسوعة ويكيبيديا الالكترونية، مادة: مسكونية كوكبية.

من ذلك حتى الآن؛ لأنّ قدرات الإنسان العلمية في اكتشاف ما في هذا الكون الواسع لا تزال متواضعة جدًّا رغم تطوّرها الهائل في هذا المجال، والإنسان لا يزال عاجزاً عن اكتشاف آفاق الكون، ومعرفة ما في الكواكب القريبة، فضلاً عمّا في كواكب المجرّات الأخرى البعيدة.

وعلى ضوء ما تقدّم نقول: إذا كان الإنسان لم يكتشف لحدّ الآن ما في المجرّات الأخرى، ولم يثبت له خلوّها عن الحياة، فلا يمكنه أن يقرّر ما إذا كان الإنسان هو الوحيد في هذا الكون، أو أنّ الكواكب الأخرى حتى البعيدة منها غير مأهولة بالإنسان أو غيره من المخلوقات الأخرى، سواء أكانت مخلوقات بدائية، أم متطوّرة كالإنسان، أم أكثر تطوّراً منه.

إذن ما بنىٰ عليه السائل سؤاله من عدم وجود أيّ فائدة من خلق المجرّات والكواكب ما دامت الغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها هي العبادة، غير صحيح؛ لأنّا ذكرنا فوائد خلق المجرّات والنّجوم والكواكب في جواب السؤال السابق، ولأنّ فائدة خلق هذه الأجرام السماوية ليست منحصرة في الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان في هذه الأرض، وهي عبادة الإنسان لربِّه، إذ يمكن أن يكون كثير من تلك الكواكب عامرة بالحياة، وأنّ من فيها من الناس مخلوقون أيضاً لكي يعبدوا الله تعالى في تلك الكواكب، حالهم حال الإنسان على هذه الأرض.

هل أهملت الأديان السابقة بيان فوائد النجوم والكواكب؟

السؤال (٣٠): لماذا لم تكشف لنا الأديان عن فوائد الكواكب والنّجوم وكثير من المخلوقات، واقتصرت على بيان الوظائف الدينية فقط؟

والجواب:

١- عدم الاطلاع على جهود الأنبياء السابقين: فإنّا لا نعلم بما بذله الأنبياء السابقون عليهم السلام من جهود كثيرة في هذا المجال، وبما بلّغوه لأممهم وأقوامهم، فلعلّهم أوضحوا لأممهم فوائد خلق النّجوم والكواكب والأجرام وغيرها، ولكنّ أممهم إمّا أوصدوا آذانهم عن تلقّي هذه العلوم من الأنبياء عليهم السلام والاستفادة منها، فلم ينقلوه عنهم، أو أنّ بعض المؤمنين الذين تلقّوا كثيراً من العلوم عن الأنبياء عليهم السلام لم تتوافر عندهم الهمم أو الإمكانات لنقل تلك العلوم إلى من بعدهم، أو نقلوها عنهم، ولكنّها لم تصل إلينا، فإنّ كثيراً من علوم وتعاليم الأنبياء عليهم السلام إما لم تُدوَّن، أو دُوِّنت ولكنّها فُقِدت؛ لعدم عناية الناس بحفظ هذه الآثار المروية عنهم، أو عدم معرفتهم بطريقة حفظها مدداً طويلة وسنين متمادية.

وعليه، فلا يمكن الجزم بأنّ الأنبياء عليهم السلام لم يبلّغوا هذه العلوم لأقوامهم، أو أنّ الأديان لم تبيّن فوائد النّجوم والكواكب وغيرها وتجاهلتها.

٢- قيام الأنبياء بوظائفهم الموكولة إليهم: فإنّ وظيفة الأنبياء عليهم السلام هي بيان الشريعة الكاملة التي تنفع الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية، والتي بها يصل الإنسان إلى مدارج الكمال البشري في جميع أموره: الخاصّة، والعامّة.

وأمّا بيان الأمور الفلكية المرتبطة بالنّجوم والكواكب، وغير ذلك من

العلوم الأخرى التي يستفيد منها الإنسان، كالطبّ، والهندسة، والكيمياء، والفيزياء، والجيولوجيا، والزّراعة، والصّناعة، وغيرها، فليست من وظائف الأنبياء عليهم السلام، وإنّما هي موكولة إلى الإنسان يتعلّمها من أجل تطوير حياته إلى ما هو أفضل وأحسن.

ولا شكّ في أنّ الواجب على الأنبياء عليهم السلام أن يقوموا بوظائفهم الموكولة إليهم، دون غيرها من الأمور الأخرى التي لم يُكلّفوا بها، وانصرافهم عليهم السلام عن تعليم هذه الأمور لا يُنقصهم، ولا يقلّل من قيمة ما قاموا به من جهود عظيمة لهداية أقوامهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

٣- كثرة العلوم وتشعّبها: فإنّ كثرة العلوم المختلفة التي يستفيد منها الإنسان، وسعة كلّ علم، وتشعّبه، وكثرة اختصاصاته، كالطبّ والهندسة وغيرهما تجعل الإنسان يصرف كلّ عمره، فلا يتعلّم إلا النزر اليسير من بعض العلوم القليلة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وصدق من قال: إنّ العلم إذا أعطيتَه كُلَّك أعطاك بعضه.

ولو أراد نبيٌّ من الأنبياء أن يُعلِّم الناس علماً واحداً فقط كالطبّ مثلاً، لقضى كلّ عمره من دون أن يتمكّن من تعليم الناس كلّ ما يحتاجون إليه في هذا العلم بجميع تخصُّصاته، فضلاً عن باقي العلوم الأخرى المهمّة.

٤- عدم أهليّة كثير من الناس لتلقّي العلوم: فإنّ تعلُّم كثير من العلوم ليس بالأمر السهل الذي يتأتّى لعامّة النّاس، ولا سيّما أنّ أكثر النّاس في العصور السابقة كانوا غير مؤهّلين لتلقّي كثير من العلوم والمعارف؛ بسبب كثرة جهلهم، وعدم معرفتهم بالقراءة والكتابة، فضلاً عن مبادئ تلك العلوم، إذ كيف يمكن لعامّة النّاس في تلك العصور المظلمة أن يتعلّموا العلوم المهمّة التي صارت في هذا العصر من ضمن الدراسات الجامعية التي تحتاج إلى مستوى معرفي خاصّ؟!

وكلّ نبي إذا أراد أن يعلّم النّاس هذه العلوم فعليه أوّلاً أن يعلّمهم القراءة والكتابة، ثمّ يعلّمهم مبادئ العلوم، ولا شكّ في أنّ عمر النبي لا يسع لتعليم الناس مبادئ العلوم، فضلاً عن تعليمهم كلّ التخصّصات فيها.

٥- **إنكار الناس كثيراً من الحقائق العلمية في تلك العصور:** فإنّ كثيراً من هذه العلوم الطبيعية وغيرها لا يدركها كثير من الناس، بل ينكرونها، ويحاربونها، خصوصاً في العصور القديمة، فإنّ الجهل كان متفشّياً، والخرافات كانت تُعَدّ عندهم حقائق لا يجوز إنكارها أو التشكيك فيها، والناس بطبعهم أعداء ما جهلوا، وتعليم النّاس هذه العلوم في تلك العصور سابق لأوانه؛ لأنّ كثيراً من الحقائق العلمية ستجابه بالرفض والرَّدّ الشديدين، وكثير من الأمور التي صارت في عصرنا من ضمن الحقائق العلمية المتسالم عليها كدوران الأرض حول الشمس كانت حتى قرون قليلة سابقة تعتبر هرطقة وكفراً[1]، وإذا كان النّاس يقابلون العلوم بهذا النحو من العداء، فإنّ بيان كثير من تلك العلوم للنّاس ربّما تكون له مضارّ كثيرة تفوق ما يُتوقَّع لها من المنافع، ولذلك ذُكر أنّه ليس كلّ ما يُعلَم يُقال، ولا كلّ ما يقال قد حان وقته، ولا كلّ ما حان وقته قد حضر أهله.

٦- **نقل الشيعة لكثير من العلوم:** فإنّ الشيعة الإمامية نقلوا عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام كثيراً من العلوم في مجالات مختلفة.

---

(١) ظهر خلال عصر النهضة في سنة ١٥٤٣م عالم الفلك نيكولاس كوبرنيكوس، الذي صاغ نظرية أنّ الشمس هي مركز المجموعة الشمسية، وأنّ الأرض كوكب يدور في فلكها، وقد تبنّى هذه النظرية بعد ذلك العالم الشهير غاليليو غاليلي الذي نشر نظرية كوبرنيكوس ودافع عنها بقوة، وفي سنة ١٦٣٢م حوكم غاليليو من قبل محاكم التفتيش، واتُّهم بالهرطقة، وحُكم عليه بالسجن لإرضاء خصومه الثائرين، وفي اليوم التالي خُفِّف الحكم إلى الإقامة الجبرية، وتمّ منعه من الخوض في هذه الموضوعات، وأعلنت المحكمة أنّ كتاباته ممنوعة.

منها: ما يتعلّق بعلم الطب، مثل الرسالة الذهبية للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

ومثل كتاب توحيد المفضل بن عمر، الذي تحدّث فيه الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول علم الأجنّة بشكل مفصّل، حيث تكلّم عن أوّل نشوء الأبدان وتصوير الجنين في الرّحم، وولادته، وغذائه، كما تحدّث في علم وظائف الأعضاء، فتكلّم عن أعضاء البدن، وفوائد كلّ منها، وعن الحواس الخمس، والأعضاء المخلوقة أفراداً، وأزواجاً، وغير ذلك، وهو كتاب مطبوع ومتداول.

والشيخ محمد باقر المجلسي قدس سره كتب عدّة مجلّدات من موسوعته الكبيرة (بحار الأنوار) أسماها: كتاب «السماء والعالَم»، ذكر فيها ما يتعلّق بأحوال العرش والكرسي والأفلاك والعناصر والمواليد والملائكة، والجنّ، والإنس، والوحوش، والطيور، وسائر الحيوانات، وتحدَّث في المجلد رقم ٥٧ عن حدوث العالم، وبدء خلقه وكيفيته، وعن العوالم، ومن كان على الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، ومن يكون فيها بعد انقضاء القيامة، وفي المجلد ٥٨ تحدّث عن السماوات وكيفياتها وعددها، والنّجوم وأعدادها وصفاتها، والمجرّة، وعن الشمس والقمر وأحوالهما وصفاتهما، والليل والنّهار وما يتعلّق بهما، وبالنجوم وغير ذلك.

إذن، قول السائل: إنّ الأديان لم تبيّن فوائد المجرّات والنّجوم والكواكب غير صحيح، وهو ناشئ عن عدم اطّلاعه لا أكثر.

لماذا لم يشرح الله الأمور العلمية في كتابه؟

السؤال (٣١): لماذا لم يشرح الله لنا في كتابه أدلّة وجوده بصورة علمية، ويعطينا دليلاً علميًّا مقنعاً على الأسئلة التي تثار ضدّ الخالق؟

والجواب:

أمّا ما يدلّ على وجود الله تعالى، فإنّه سبحانه ذكر أدلّة علميّة كثيرة في كتابه العزيز في آيات كثيرة تدلّ على وجوده، وعلى أنّه تعالى هو خالق هذا الكون دون غيره.

منها: قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [الروم: ٢٠-٢٥].

وأمّا الإجابة على الأسئلة التي تثار ضدّ الخالق سبحانه فهي من وظائف أنبياء الله تعالى، ولا شكّ في أنّ الأنبياء عليهم السلام سألهم أقوامهم عن أمثال هذه الأسئلة، فإنّها ليست بجديدة، والأنبياء عليهم السلام أجابوا أقوامهم عن أمثال هذه التساؤلات، وليس من الضروري أن يذكر الله تعالى ذلك في كتبه السماوية ما

دام بيان ذلك موكول إلى الأنبياء عليهم السلام الذين قد تكفّلوا بالفعل بالإجابة عنها.

مضافاً إلى ذلك فإنّ الله تعالى وهب الإنسان عقلاً كاملاً يستطيع به أن يستكشف الأمور العلميّة في شتّى مجالات الحياة كما نراه اليوم في حياتنا المعاصرة، فإنّ العلماء في شتّى مجالات العلوم استكشفوا كثيراً من أسرار الكون وعظمة الخلق، ولا تزال أمامهم آفاق كثيرة يحتاجون لاستكشافها إلى سنين طويلة من البحث والتنقيب لمعرفة تلك الأسرار التي يزخر بها هذا الكون العظيم الذي يدلّ على عظمة خالقه.

وقد أشار الله تعالى إشارات خفيّة إلى تلك الأسرار في كتابه العزيز، وأمر الإنسان بالبحث والتفكّر والتنقيب؛ ليستجلي تلك الخفايا والخبايا التي أودعها الله تعالى في مخلوقاته.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

فإنّ الله تعالى بعد أن ذكر أنّ الأرض فيها آيات وعلامات يعرفها الموقنون بوجود الله تعالى المصدِّقون به، الذين يعلمون أنّها لا يمكن أن توجد هكذا صدفة من غير مُوجِد، ذكر أنّ الإنسان لو تأمّل في أسرار خلقته، وعجائب ما أودعه الله تعالى فيه، لأيقن بأنّه لا يمكن أن يوجد من دون خالق قادر مبدع حكيم.

وكذا قال سبحانه: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن

كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٣، ١٦٤].

فإنّه سبحانه بعد أن أكَّد على أنّ إله النّاس إله واحد، وهو الله تعالى، ذكر أنّه يمكن معرفة ذلك بالتأمّل في خلق السماوات والأرض، وما أودعه الله تعالى فيها من عجائب الخلق وبديع الصنع، فيما خلقه من البشر والحيوانات، والنباتات والأشجار، والأسماك ودوابّ البحر، والطيور والحشرات وغيرها، فإنّها مع كثرتها وعدم قدرة الإنسان على إحصائها حَوَتْ من عجائب الخلقة ما يحيِّر العقول.

وكذلك يمكن معرفته سبحانه بالنظر في الظواهر الفلكية المنتظمة التي تسير ضمن نظام دقيق، وهو ما عبَّر عنه سبحانه باختلاف الليل والنّهار، وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وغير ذلك.

والإنسان رغم قُدراته المحدودة إلا أنّه توصّل إلى معرفة كثير من أسرار الكون وعجائب الخلق في شتّى المجالات، وهي تدلّ بلا أدنى شكّ على أنّ لهذا الكون خالقاً مبدعاً حكيماً، وعِلْمُ الإنسان بذلك حجّة عليه حتى لو لم يبيّنه الله تعالى له في كتبه السماوية.

أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى لو أراد أن يبيّن للنّاس أسرار عضو واحد من أصغر مخلوقاته، ولنمثِّل له بعين حشرة صغيرة مثلاً، لاحتاج ذلك إلى عدّة مجلدات من الكتب لاستيفاء جميع ما أودعه الله تعالى من أسرار في تلك العين الصغيرة، فكيف بسائر أجزاء تلك الحشرة، فضلاً عن أسرار خلقة الإنسان وغيره من الحيوانات أو الأجرام السماوية التي خلقتها معقّدة جدًّا ومركّبة من أمور كثيرة مختلفة!!

وقد ذكر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في بعض خُطَبه، شيئاً من

بديع خلقة الخفّاش، فقال:

ومن لطائف صنعته وعجائب خلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش، التي يقبضها الضياء الباسط لكلّ شيء، ويبسطها الظلام القابض لكلّ حيّ، وكيف عشيتْ أعينها عن أن تستمدّ من الشمس المضيئة نوراً تهتدي به في مذاهبها، وتتّصل بعلانية برهان الشمس إلى معارفها، وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضيّ في سبحات[١] إشراقها، وأكَنَّها[٢] في مكامنها عن الذهاب في بلج ائتلاقها[٣]، فهي مسدلة الجفون بالنّهار على أحداقها، وجاعلة الليل سراجاً تستدلّ به في التماس أرزاقها، فلا يردّ أبصارها إسداف[٤] ظلمته، ولا تمتنع من المضي فيه لغسق دجنته، فإذا ألقت الشمس قناعها، وبدت أوضاح نهارها، ودخل من إشراق نورها على الضباب في وجارها[٥]، أطبقت الأجفان على مآقيها، وتبلّغت بما اكتسبت من فيء ظلم لياليها، فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً، والنّهار سكناً وقراراً، وجعل لها أجنحة من لحمها، تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران، كأنّها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنّك ترى مواضع العروق بيّنة أعلاماً، لها جناحان لما يرقّا فينشقّا، ولم يغلظا فيثقلا، تطير وولدها لاصق بها، لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتدّ أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان الباري لكلّ شيء على غير مثال خلا من غيره[٦].

ولا شكّ في أنّ غالبية النّاس في عصور الأنبياء السابقين عليهم السلام لا

---

(١) سبحات: أنوار.

(٢) أكنّها: سترها.

(٣) البلج: الضوء، والائتلاق: اللمعان.

(٤) الإسداف: مصدر أسدف، أي أظلم.

(٥) الوجار: جحر الضبع والأسد ونحوهما.

(٦) نهج البلاغة: ٢٤٧.

تستوعب عقولهم الأمور العلمية التي اكتشفها الإنسان بعد ذلك في العصور المتعاقبة، بل ربّما يكون ذكرها لهم من أسباب نفرتهم عن الإيمان بالنبي ﷺ، أو من دواعي اتّهامهم له بالجنون والهذيان وسفاهة العقل؛ لأنّ الناس أعداء ما جهلوا.

وعليه فإنّ ما تقتضيه الحكمة هو أن يبلّغ الأنبياء عليهم السلام النّاس من العلوم والمعارف والآداب ما يتناسب مع عصرهم، وتألفه عقولهم ممّا يفيدهم في حياتهم الخاصّة والعامّة، كالعبادات التي توطّد علاقتهم بخالقهم، وأحكام معاملاتهم حتى بها تحلّ مكاسبهم، وغيرها مما يرتقي بهم نحو الكمال الإنساني، ويُصلح لهم دنياهم وآخرتهم.

وأمّا الأمور العلمية المعقّدة الدقيقة التي لا يفهمونها، ولو فهموها لا يستفيدون منها، فإنّها تُترك للإنسان نفسه؛ لكي يكتشفها عبر العصور المتعاقبة؛ لتكون قناعته بها حاصلة له بالتدريج.

ما فائدة خلق حيوانات لا يحتاج إليها الإنسان؟

السؤال (٣٢): لماذا خلق الله حيوانات لا يحتاج لها الإنسان، أي لا يأكل لحومها، ولا يشرب لبنها، ولا يرتدي جلودها، ولا يستفيد منها بشيء؟ فمثلاً: لماذا خلق الله القرد والبلاتيبوس والباندا والسحلية والخرتيت والعقرب؟

والجواب:

١- أنّ كلّ شيء خُلق لحكمة: فإنّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٦، ١٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٢٧].

أمّا الحيوانات التي يستفيد منها الإنسان فالحكمة من خلقها ظاهرة وواضحة، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٥-٨].

وأمّا الحيوانات التي لم نطّلع على أيّ فائدة من خلقها فإنّ مقتضى حكمة الله تعالى وأنّه لا يخلق شيئاً عبثاً ولعباً، أن تكون لهذه الحيوانات فوائد مهمّة تنفع الإنسان، وإن كان الإنسان لا يعلم بتلك الفوائد، فإنّ الله تعالى أخبر في كتابه العزيز أنّه خلق للإنسان ما في الأرض جميعاً، قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

وجهل الإنسان بفائدة هذه الحيوانات وغيرها لا يدلّ على أنّها ليس لها أيّ فائدة، وفائدتها للإنسان ليست منحصرة في أكل لحومها، أو شرب ألبانها، أو ركوبها، أو الاستفادة من جلودها، بل لعلّ لها فوائد أخرى في غير هذه المجالات، فمن الخطأ الواضح إنكار فائدتها عند عدم معرفة أيّ فائدة لها، ولا سيّما أنّ الإنسان لم يبلغ القمّة في جميع العلوم، ولا زالت الأبحاث في شتّى المجالات مستمرّة، والاكتشافات لا تزال تتوالى يوماً بعد يوم، والإنسان إذا تطوّر علمه أكثر فأكثر لعلّه يكتشف فوائد مهمّة لهذه الحيوانات، التي ربّما يكون وجودها على الأرض ضروريًّا لاستقامة حياة الإنسان، أو ربّما يكتشف الإنسان أنّ هذه الحيوانات يمكن أن يستفاد منها في صنع الأدوية والعقاقير التي تفيد الإنسان في علاج بعض الأمراض المستعصية، أو ربّما يكتشف أنّ هذه الحيوانات لها فوائد مهمّة للبيئة، أو غير ذلك.

وبما أنّ الله تعالى لم يبيِّن لنا الحكمة من خلق أكثر مخلوقاته، فإنّنا لا نستطيع أن نعلم بتلك الحكم والمصالح الواقعية، وكلّ ما نقوله إنّما هو احتمال مجرّد، ولعلّه يكون صحيحاً، ولعلّه يكون خطأً، ولعلّ الحكمة من خلق بعض الخلق هي أمر واحد، أو أمور متعدّدة مجتمعة.

٢- **جميع المخلوقات لها فوائد مهمّة**: فإنّا وإن كنّا لم نطّلع على فوائد خلق أكثر المخلوقات، لكنّا نعلم بفوائد مخلوقات كثيرة أخرى.

ولو أخذنا الحشرات مَثَلاً لرأينا أنّ المختصّين يذكرون أنّ الحشرات المضرّة قليلة جدًّا، ومعظم الحشرات مفيدة للبشر والبيئة، وبدون الحشرات لا يمكن للبيئة أن تعمل كما تعمل الآن، ومن أهمّ الخدمات التي تقوم بها الحشرات هو تلقيح النباتات، وعلى الرغم من أنّ تلقيح بعض النباتات ذاتي، وتلقيح البعض الآخر بواسطة الرياح، إلا أنّ العديد من النباتات المزهرة تعتمد على الحشرات لنقل حبوب اللِّقاح إلى الزهور الأخرى.

ومن الفوائد الهامّة للحشرات دورها في تحليل المواد العضوية، فإنّ الحشرات تتغذّى على جميع أنواع النفايات، والأرض من دون الحشرات ستكون غارقة في أوراق المهملات الميّتة، وأمّا البكتيريا فهي التي تقوم بالتحاليل النهائية، حيث تقوم الحشرات أوّلاً بإعداد المواد النباتية للتحلّل من خلال تناول الأوراق وإنتاج الفضلات، ثمّ تقوم البكتيريا بتحليل تلك الفضلات[(١)].

وأمّا الحيوانات التي ذكرها السائل، وتساءل عن علّة خلقها، بِظَنّ أنّها لا فائدة فيها، وهي القرد والبلاتيبوس والباندا والسحلية والخرتيت والعقرب، فلها فوائد متعدّدة.

أمّا القرد فقد ورد في حديث عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في العلّة التي من أجلها حرّم الله تعالى لحم القرد، فقال عليه السلام: وكذلك حرَّم القرد؛ لأنّه مَسْخٌ مثل الخنزير[(٢)]، جُعل عظة وعبرة للخلق، ودليلاً على من مُسخ، على خلقته وصورته، وجُعل فيه شبهٌ من الإنسان ليدلّ على أنّه من الخلق المغضوب عليهم[(٣)].

ومراده عليه السلام أنّ الله تعالى أخبر في كتابه العزيز أنّه مسخ أقواماً من العصاة إلى قردة، فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ

(١) http://www.nsta.org/publications/news/story.aspx?id=50211
.https://www.si.edu/Encyclopedia_SI/nmnh/buginfo/benefits.htm

(٢) ليس المراد بالمسخ أنّ القرد الموجود كان إنساناً ثمّ مُسخ قرداً، وإنّما المراد هو أنّ القرد الموجود فعلاً على صورة قرود كانت ممسوخة من الإنسان، إلا أنّ تلك القرود الممسوخة انقرضت، وأمّا القرود الموجودة فهي مخلوقة ابتداءً على صورة تلك من أجل أخذ العبرة والعظة.

(٣) علل الشرائع ٢/ ١٩٧.

قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

والعظة والعبرة فائدة مهمّة وكافية لخلق القرد، وإن كان القرد لا يؤكل لحمه، ولا يستفاد من أيّ شيء من أجزائه.

مع أنّ العلماء في العصر الحديث استفادوا من القرود في أبحاثهم العلمية التي تسهم في فهم وتطوير لقاحات وعلاجات لبعض الأمراض الأكثر فتكاً وانتشاراً في العالم(١).

كما أنّ القوات الجوية الأمريكية في سنة ١٩٦١م قامت باستخدام قرد يُدعى هام Ham، موطنه الأصلي هو الكاميرون من إفريقيا كواحد من أوّل الحيوانات التي أُرسلت في رحلة إلى الفضاء، ثم تمَّ إرجاع كبسولة الفضاء التي تحوي القرد هام(٢).



وأما البلاتيبوس Platypus، وهو خُلْد الماء، أو منقار البطّ، أو الفأر الأعمى، فهو من عجائب المخلوقات؛ لأنّه حيوان ثديي من ذوات الدم الحارّ وفقاري، ولكنّه يبيض ولا يلد، مع أنّ الثدييات تلد ولا تبيض، وكلّ حيوان يبيض فإنّه لا يرضع صغاره، لكن البلاتيبوس يرضع صغاره، وهو أحد نوعين فقط من الثدييات التي تضع البيض، ويعيش في قارة أستراليا، وعلى الأخص في شرق أستراليا على شواطئ البحيرات والأنهار، ويتراوح حجمه ما بين ٦٠-٣٩ سم،

---

(١) راجع تقرير مجلة فايس نيوز الالكترونية Vice News :
https://news.vice.com/article/inside-the-monkey-lab-the-ethics-of-testing-on-animals.

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=M0x9LvPyLKc.

بالإضافة إلى أنّه حيوان برمائي وفريد من نوعه[١]، ولهذا حار العلماء في تصنيفه، فجعلوا له تصنيفاً خاصًّا به هو خلديات الماء.

ومن غرائب هذا الحيوان أنّه برمائي، وإذا نزل في الماء يبحث عن طعامه فإنّه يُغلق عينيه، ولديه حاشية في الأنف تنغلق، فلا يرى ولا يشمّ، ولكنّه يستعين في اكتشاف فريسته من صغار الروبيان أو القريدس مثلاً على التقاط النبض الكهربائي في ذيل الروبيان بين العصب والعضلة، فعندما يرسل العصب نبضاً إلى العضلة فإنّه يوجد نبض ضئيل، ولكن البلاتيبوس يلتقط هذا النّبض، وهذا يقوده إلى معرفة مكان الروبيان[٢].

ولو لم يكن في هذا الحيوان من الفوائد إلّا أنّه من عجائب الخلق التي تدلّ على قدرة الخالق لكفى، وربّما تكون له فوائد مهمّة أخرى لم يتوصّل إليها العلماء لحدّ الآن.

وأمّا الباندا ففائدته معلومة؛ لأنّه مصدر للفراء الناعم للسُّكّان المحلّيين في المناطق التي يعيش فيها الباندا، وكان صيد الباندا غير المشروع سبباً رئيساً في صيرورة الباندا من الحيوانات المهدّدة بالانقراض[٣].

وأمّا السحلية أو الوزغ أو سام أبرص Gecko فقد ذكر يوسف بن عمر الغسّاني التركماني في كتابه (المعتمد في الأدوية المفردة) أنّها من ذوات السموم، وإن كان فيها بعض الفوائد إلا أنّه أضرب عن ذكرها لقذارتها[٤].

وقال داود الأنطاكي في (تذكرة أولي الألباب) من فوائده في مادة (سام

---

(١) راجع موسوعة ويكيبيديا، مادة: خلد الماء.

(٢) راجع: http://www.platypus.asn.au/.

http://www.livescience.com/27572-platypus.html

(٣) راجع: موسوعة ويكيبيديا، مادة: باندا عملاقة.

http://www.livescience.com/27335-giant-pandas.html

(٤) راجع المعتمد في الأدوية المفردة: ٢١٧.

أبرص): وزبله يلحم الفتق إذا أُخذ في أوله مع المسك ولو في غير الصبيان[١].

وقال ابن البيطار:

> **سام أبرص**: هو الوزغ، ديسقوريدوس، في الثانية: صورا رأسه إذا دُقّ دقًّا ناعماً ويوضع على العضو انتزع منه السلاء وغيره ممّا غاص في اللحم، وقلع الثآليل التي تسمّى باليونانية النملية والبثور، والصنف الثاني من الثآليل التي يقال لها أيلون، وكبد صورا إذا وُضع على المواضع المأكولة من الأسنان سكن وجعها، وإذا شقّ صوراً ووُضع على لسعة العقرب خفّف الوجع. ابن سينا: بوله ودمه عجيب في فتق الصبيان، وقد يُجعل في بوله أو دمه شيء من المسك، ويُجعل في إحليل الصبي، فيكون بليغ النفع في الفتق[٢].

وأمّا الخرتيت وهو وحيد القرن أو الكركدن Rhinoceros، فهذا الحيوان صار مهدَّداً بالانقراض بسبب كثرة الصّيد غير المشروع له؛ للاستفادة من قرنه الذي صار يباع بأسعار تفوق سعر الذهب، ومن المعلوم أنّ قرن الخرتيت يُستعمل في صناعات متعدّدة، منها: مقابض السيوف والخناجر والسكاكين، ومنها: العكاكيز، والغليون وغيرها..[٣].

وأمّا العقرب فهي وإن كانت سامّة جدًّا، ويمكن الاستفادة من سمّها لأغراض متعدّدة إلا أنّ لها خواصًّا أخرى.

قال داود الأنطاكي:

> إذا شُدختْ [العقرب] ووُضعتْ على لسعتها سكنت، وجذبت سُمّها إليها، وإذا شُويتْ وأُكلت فعلت ذلك، وكذلك تبرئ من قروح

---

(١) تذكرة أولي الألباب ١/ ٤٣٢.

(٢) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٥.

(٣) راجع: http://www.livescience.com/27439-rhinos.html.

الصدر والسعال وفساد القصبة، وإن حُرقت في مزجج[١] فتَّتَ رمادُها الحصىٰ، وأسقط البواسير شرباً وطلاءً، وأحدَّ البصر مع خرء الفأر كحلاً، وقلع البياض والظَّفَرَة[٢] والجرَب والحكّة مع نحو الزنجبيل، لكنّ الآدمي لا يحتمل ذلك، وتزيل البرص والبهق والكلف والنّمش، وتدمل القروح المعجوز عنها طلاءً، وإن جُعلت حيَّةً في زيت سادس عشري الشهر وما بعده وشمعت أربعين يوماً كان دهناً مجرَّباً في النفع من الفالج والمفاصل والظهر والنسا والبواسير عن تجربة، وقيل: إنّ منافع العقرب موقوفة على أن يُتصرَّف فيها والطالع العقرب، ولم يبعد هذا عن الصواب. ومن خواصِّها: أنّها إذا عُلّقت على المرأة بالحياة لم تسقط، وأنّها إن لسعت المفلوج برئ، ومتى وقعت لسعتها على عصب قتلت بالتشنج، وهي تضرّ الرئة، ويصلحها الطين الأرمني وبزر الكرفس، وشربتها نصف درهم[٣].

وقال ابن البيطار عن عبد الرحمن بن الهيثم:

إن أُخذ عقرب واحدة وقد بقي في الشهر ثلاثة أيام أو أربعة، وجُعل في إناء، وصُبَّ عليها زيت، وسُدّ رأس الإناء، وتُرك حتى يأخذ الزيت قوّتها، ثم يُدهَن به من به وجع الظهر والفخذين فإنّه يُبرئه، وقيل: إن طُلي من هذا الدّهن على البواسير الظاهرة جفَّفها وأسقطها، وإن أُخذت عقرب ميّتة، وجُعلت في خرقة، وعُلّقت على المرأة التي تسقط أولادها، لم يسقط الجنين، وحفظه الله عليها[٤].

---

(١) الظاهر أن المراد به هو الإناء المطلي بما يشبه الزجاج.

(٢) هي جُلَيْدة تغشى العين، تنبت تلقاء المآقي، وربّما قُطعت، وإن تُركت غشيتْ بصر العين حتى تكل (تاج العروس ١٢/ ٤٧٣).

(٣) تذكرة أولي الألباب ١/ ٥٣٩.

(٤) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٧٥.

وهكذا كلّ مخلوقات الله تعالى لها فوائد كثيرة، عُلم بعضها وجُهل الكثير منها، والقدماء كانوا يعتنون بفوائد المخلوقات، وألّفوا في ذلك كتباً كثيرة، منها: كتاب (تذكرة أولي الألباب) لداود الأنطاكي، و(الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) لابن البيطار، و(المعتمد في الأدوية المفردة) ليوسف بن عمر الغسّاني التركماني، ولكنّ الغافل عن هذه الأمور ربّما يتوهّم أنّ كثيراً من المخلوقات لا فائدة فيها البتّة، وهو توهّم خاطئ ناشئ عن عدم الاطّلاع على فوائد تلك المخلوقات لا أكثر.

ومن غرائب ما قرأت في مخلوقات الله تعالى هذا الصرصور الذي ربّما يستحقره الواحد منّا، ويظنّ أنّه لا فائدة فيه، مع أنّه يدلّ على عظمة الخالق سبحانه، وأذكر أنّي لما كنت في المدارس رأيت فكّ الصرصور بالمجهر، فتعجّبت من روعة هندسته، وإبداع الخلقة فيه، سبحان مَنْ خلَقه.

وأشارت بعض الدراسات إلى عدّة حقائق مذهلة تتعلّق بالصراصير، منها:

١- أنّ الصراصير وُجدت على وجه الأرض منذ أكثر من ٢٠٠ مليون سنة، وهناك بعض الحفريات التي تحتوي على صراصير يعود تاريخها إلى ٣٥٠ مليون سنة، أي أنّها وُجدت في الأرض قبل وجود بعض الديناصورات.

٢- أنّ بعض الصراصير يمكن أن تبقى حيّة من دون تنفس لمدّة ٤٠ دقيقة إذا لزم الأمر، والبعض الآخر يمكنه البقاء تحت الماء على قيد الحياة مدّة تصل إلى ٣٠ دقيقة.

٣- أنّ معظم الصراصير يمكن أن تبقى حيّة من دون طعام لمدّة شهر، لكنّها تموت في غضون أسبوع إذا لم تحصل على الماء.

٤- أنّ الصرصور سريع جدًّا بالنظر إلى حجمه، إذ يمكنه أن يتحرّك

بسرعة تتجاوز ثلاثة أميال في الساعة.

٥- أنّ الصراصير تتحمّل الإشعاعات أكثر من الإنسان بـ ١٠ مرّات، لكنّها لا تبقى على قيد الحياة في حال حدوث انفجار نووي، ومع ذلك، هناك طرق سهلة جدًّا للتخلّص منها.

٦- أنّ جسم الصرصور يمكن أن يبقى على قيد الحياة من دون رأس لمدّة تصل إلى أسبوع؛ وذلك لأنّه يتنفس من خلال ثقوب صغيرة في جسمه، وله نظام الدورة الدموية المفتوحة، فلا يحتاج إلى رأسه للتنفّس، لكنّه يموت في نهاية المطاف إذا لم يشرب الماء بسبب الجفاف.

٧- أنّ الصراصير يمكن أن تعيش في أي مكان بين بضعة أشهر إلى بضع سنوات حسب نوع الصرصور(١).

٣- دلالتها على إبداع الخالق سبحانه: فإنّا لو سلّمنا أنّ هذه الحيوانات والحشرات ليس لها أيّ فائدة في الواقع، فيكفي أنّها تدلّ على صانع مبدع خالق لها عظيم القدرة على خلق الأنواع الكثيرة من غير مثال سابق لها، وهذا ما يعجز عنه غيره، كما قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

ولا شكّ في أنّ هذه الفائدة تقود كلّ إنسان إلى الإيمان بالخالق جلّ وعلا، وهي فائدة عظيمة جدًّا.

(١) https://www.terminix.com/pest-control/cockroaches/facts.

علة خلق الفيروسات

السؤال (٣٣): لماذا خلق الله الڤيروسات التي لا نستفيد منها بشيء؟

والجواب:

١- أن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً: فإنّه سبحانه خلق جميع مخلوقاته، من الڤيروس الضئيل الحجم، إلى المجرّة العظيمة التي لا يستطيع الإنسان الإحاطة بها، وخلق ما بينهما من المخلوقات الكثيرة، لحكمة مهمّة، وفائدة عظيمة ربّما لا نعلمها.

وعِلْمنا بأنّ الله تعالى خالق حكيم مدبِّر عالم بالمصالح والمفاسد، وأنّه لا يخلق شيئاً عبثاً، وإنّما يخلق الأشياء لِحِكَم ومصالح، يجعلنا نعتقد أنّ لهذه المخلوقات منافع عظيمة ومهمّة تدعو إلى خلقها، ونحن وإن كنّا لا نعلمها كلّها إلا أنّ الله يعلمها، ولعلّ العلم الحديث يكشف لنا عن بعضها في المستقبل القريب كما كشف العلم كثيراً من فوائد المخلوقات التي لم تكن معروفة فيما سبق.

٢- أنّ ما يُذكر من عِلَل الخلق مجرّد تخمين: فإنّ كلّ ما يجاب به عن هذا السؤال ونحوه ممّا يتعلّق بعلل خلق بعض المخلوقات، لا بدّ أن يُتلقَّى عن الله سبحانه بواسطة أنبيائه وحُجَجه عليهم السلام الذين ينقلون عنه؛ لأنّه سبحانه هو الخالق وحده، وهو العالم بالعلل الحقيقية التي من أجلها خلق الإنسان، أو الحيوان، أو الڤيروس، أو غير ذلك من المخلوقات، وكلّ ما يقال في بيان العلّة ممّا لم يُتلقَّ عن الله تعالى فلا يخرج عن كونه ظنوناً وتخمينات ربّما تكون صحيحة، وربّما تكون غير صحيحة، وقد يكون هذا المظنون الذي نتوقّع أنّه سببُ الخلق

علّةً تامّة للخلق، وربّما يكون جزء علّة، فيكون أحد أسباب الخلق، لا كلّها، أو ربّما لا يكون علّة أصلاً.

٣- أنّ الاعتقاد بألّا فائدة للڤيروسات خطأ: فإنّ السائل قد جزم بأنّ الڤيروسات لا فائدة فيها، اعتماداً على ما يراه من أضرار بعض الڤيروسات الخطيرة، حيث صُنّفت بأنّها أحد أهمّ أسباب الإصابة بالأمراض الفتّاكة، وهذا دليل غير تامّ، فإنّ وجود أضرار كثيرة لبعض الڤيروسات لا يستلزم بالضرورة عدم وجود أيّ فوائد أخرى لباقي الڤيروسات الأخرى؛ لأنّ الڤيروسات منها ما هو ضار، ومنها ما هو نافع، وكثير من الأمور التي نرى بعض مضارّها ربّما تكون لها فوائد أخرى من جهات أخرى، والله سبحانه وتعالى رغم أنّه حرّم الخمر والمَيْسِر وهو لعب القمار؛ لكثرة مضارّهما التي لا تخفى، إلّا أنّه سبحانه ذكر أنّ فيهما منافع للنّاس، ولكن ضررهما أكثر من نفعهما، حيث قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وكما أنّ القول بأنّ الڤيروسات لها فوائد يحتاج إلى دليل، كذلك نفي جميع الفوائد عنها يحتاج أيضاً إلى دليل، والسائل لم يذكر لذلك دليلاً، وإنّما أرسله إرسال المسلَّمات، وهذا خطأ منهجي واضح.

وعليه، فإنّه ينبغي للسائل أن يسأل عن العلّة التي من أجلها خلق الله الڤيروسات، لا أن يجزم بأنّ الڤيروسات لا فائدة لها أصلاً، من دون أن يكون عنده دليل يدلّ على ذلك، ثمّ يرتِّب على ذلك سؤاله المشعر ضمناً بالاعتراض على الخالق أو إنكاره!

٤- أنّ الڤيروسات لها فوائد مهمّة: فإنّ جزم السائل بأنّ الڤيروسات لا فائدة فيها، جعله يستنتج بأنّه ليس هناك أيّ سبب يدعو إلى خلقها كما يُفهَم من فحوى سؤاله، وفي الحقيقة أنّ كثيراً من النّاس لا يعلمون بأنّ الڤيروسات لها

فوائد مهمّة تقتضي خلقها، والنّاس أعداء ما جهلوا.

ومن فوائد الڤيروسات هذه اللِّقاحات التي تُعطى في هذا العصر للأطفال الصغار والبالغين الكبار بواسطة الحقن في الشرايين أو الأوردة، التي تحتوي على ڤيروسات ميّتة، مشابهة في تركيبها للڤيروسات الضارّة التي يمكن أن تنقل الأمراض للإنسان، وفائدة حقن تلك الڤيروسات الميّتة في الجسم هو أنّها تحفِّز الجسم للتعرّف على الڤيروسات الحيّة المشابهة بمجرد دخولها فيه، فيقاومها ويقضي عليها، وبهذا تمكّن الإنسان من الاستفادة من الڤيروسات في الوقاية من الأمراض بواسطة التطعيمات التي أصبحت ضرورية في هذا العصر لمختلف الأفراد في جميع البلدان.

وقد كشفت بعض الدراسات والأبحاث عن وجود أنواع من الأحياء الدقيقة لها منافع متبادلة مع الكائنات الحيّة التي تعيش فيها، بالإضافة إلى العديد من الفوائد الصناعية والزراعية، وفيما يختص بالڤيروسات تحديداً فقد كشفت دراسة حديثة للدكتورة ماريلين روسينك Marilyn J. Roossinck من جامعة بين ستيت الأمريكية نُشرت في مجلة علم الڤيروسات التابعة للجمعية الأمريكية للأحياء الدقيقة تفيد بأنّ الڤيروسات تحقّق هذا النوع من الفوائد. وهذه الدراسة ليست فريدة في نوعها، بل إنّها استندت إلى العديد من الدراسات الأخرى التي تؤكّد هذه الفوائد للڤيروسات، بل إنّ بعض هذه البحوث وصفت الڤيروسات بأنّها ضرورية للحياة، وجزمت بأنّ هناك العديد من الفوائد التي ستُكتشف لهذه الڤيروسات في المستقبل[١].

والإنسان وإن تطوّر كثيراً في الجانب العلمي والتقني إلا أنّه لا يزال يجهل كثيراً من الأمور، ولا يزال عاجزاً عن فهم كثير من الحقائق العلمية، كما قال

(١) http://jvi.asm.org/content/89/13/6532.full?sid=776dbcbf-bfa6-43d3-8450-fffdf42279ad#ref-1.

سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

والإنسان عبر مسيرته العلمية قفز قفزات واسعة في شتّى المجالات، خصوصاً بعد التطوّر التكنولوجي الكبير الذي أعانه على اكتشاف كثير من الأمور المحيطة به، إلّا أنّه لحدّ الآن لم يكتشف كلّ شيء، وبقيت مجهولاته في كلّ العلوم أكثر من معلوماته.

وعليه، فإنّ أقصى ما يمكن أن يقال هو: «أنّنا لا نعرف في هذا الوقت إلا فوائد قليلة للڤيروسات»، وربّما نتعرّف على كثير من فوائدها في المستقبل، وربّما تحصل عندنا بعد سنين قليلة قناعةٌ مستندة إلى حقائق علمية مؤكّدة بأنّ وجود الڤيروسات ضروري في هذه الحياة، وأنّ حياة الإنسان على الأرض ربّما لا تستقيم بدونها.

٥- دلالة وجود الڤيروسات على عظمة الخالق: فإنّ الڤيروسات والميكروبات ونحوها من الكائنات الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجرّدة تدلّ على عظمة الله سبحانه وإبداعه في الخلق، وأنّه سبحانه قادر على أن يخلق ما يشاء كيف يشاء، فكما أنّه سبحانه خلق الحيوانات الضخمة كالديناصورات والفيلة، خلق أيضاً كائنات متناهية في الصغر، لا يمكن رؤيتها إلا بالمجاهر المتطوّرة كالڤيروسات والميكروبات وكائنات أخرى دقيقة صغيرة الحجم جدًّا، وكما أنّ الخلق كلّهم عاجزون عن خلق أيّ حيوان ضخم مثل الفيل، فإنّهم أيضاً عاجزون عن خلق حيوان واحد ضئيل الحجم جدًّا مثل الڤيروس أو الميكروب أو النملة أو البعوضة أو الذبابة رغم ضآلة أحجامها، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣].

٦- فائدة الڤيروسات في إهلاك الطواغيت: فإنّ الله تعالى ربّما خلق الڤيروسات والميكروبات ونحوها ليعاقب بها من يشاء من عتاة خلقه، ممّن يتجبّرون ويتكبّرون ويظلمون بغير حقّ، فإنّه سبحانه يعاقبهم بأصغر خلقه وهو الڤيروس؛ من أجل بيان ضعف هذا الإنسان الذي يصرعه ڤيروس ضئيل جدًّا؛ لكي يعرف الإنسان قدر نفسه، ويعرف عظيم قدرة الله عليه؛ لكيلا يطغى ويتكبّر في الأرض وهو بهذه الحالة من الضعف الشديد.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: مسكينٌ ابنُ آدم، مكتوم الأجل، مكنون العِلَل، محفوظ العمل، تؤلمه البَقَّة، وتقتله الشرقة، وتُنْتِنُه العَرْقة[1].

وقد ورد في علّة خلق الذُّباب ما يشبه ما احتملناه في الڤيروسات، فقد روى الشيخ الصدوق قدس سره في كتابه (عِلَل الشرائع)، بسنده عن الربيع صاحب [أبي جعفر] المنصور، قال: قال المنصور يوماً لأبي عبد الله عليه السلام وقد وقع على المنصور ذبابٌ، فذبَّه عنه، ثمّ وقع عليه فذبَّه عنه، ثمّ وقع عليه فذبَّه عنه، فقال: يا أبا عبد الله لأيّ شيء خلق الله تعالى الذباب؟ قال: ليذلّ به الجبَّارين[2].

٧- فائدة نظافة الأبدان والطعام وغيرها: فإنّ الله تعالى ربّما خلق الڤيروسات ونحوها لكي يعتني الناس بنظافة أبدانهم وطعامهم وآنيتهم وملابسهم وبيوتهم وما يتعلّق بهم، فإنّ عِلْمهم بوجود الڤيروسات وبشدّة فتكها، وعظم مخاطرها، وأنّها يمكن تجنّبها بغسل الطعام، وغسل الأواني والأيدي، وتجنّب القذارات والأوساخ التي ينتقل الڤيروس من خلالها - يحثّهم على مزيد العناية بنظافة أبدانهم وطعامهم وسائر متعلّقاتهم، بخلاف ما لو لم يكن هناك ڤيروسات في الوجود، فإنّهم ربّما لا يعتنون بالنظافة أصلاً؛ لأنّهم لا

---

(١) نهج البلاغة: ٥٥٥.

(٢) علل الشرائع ٢/ ٢٠٩. وذكر ذلك أيضاً: المزّي في تهذيب الكمال ٥/ ٩٣، والذهبي في سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦٤.

يشعرون بأيّ دافع يدفعهم لذلك، وهو أمر غير محمود عقلاً وعرفاً وشرعاً.

٨- **دور المختبرات في إعداد أشدّ الڤيروسات فتكاً:** فإنّ الڤيروسات يمكن إعدادها في المختبرات، وهي مكونة من: (١) المادة الوراثية المصنوعة من DNA أو RNA، والجزيئات الطويلة التي تحمل المعلومات الوراثية، (٢) طبقة بروتينية تحيط بالمادة الوراثية وتحميها، (٣) مظروف من الدهون التي تحيط بطبقة البروتين عندما تكون خارج الخلية[١].

والمتتبّع لتاريخ الڤيروسات يجد أنّ أوّل ڤيروس اكتُشف هو ڤيروس مرض فسيفساء التبغ tobacco mosaic disease الذي اكتشفه العالم الهولندي مارتينوس بيجيرينك Martinus Beijerinck في عام ١٨٩٨م[٢]، وهناك من يذكر أن جملة من الڤيروسات التي انتشرت في السنين المتأخّرة ولم يكن لها وجود سابق كڤيروس مرض الأيدز الذي اكتشف في ٥ حزيران ١٩٨١م، وانفلونزا الطيور، وانفلونزا الخنازير، والأيبولا، وغيرها كلّها تمّت صناعتها في المختبرات[٣].

وعليه، فلعلّ الله تعالى لم يخلق ڤيروسات خطيرة، وإنّما صنعها الإنسان قديماً وحديثاً؛ لاستخدامها في الحروب البيولوجية، أو لأغراض أخرى.

---

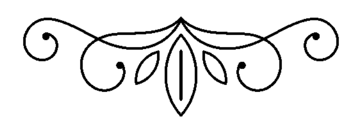
(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Virus.

(٢) https://en.wikipedia.org/wiki/Martinus_Beijerinck.

(٣) راجع: http://www.nbcnews.com/health/health-news/scientist-makes-mutant-infectious-flu-virus-lab-n128936.
https://www.theatlantic.com/health/archive/2014/05/when-viruses-escape-the-lab/371202/
https://www.lifesitenews.com/news/african-nobel-prize-winner-says-hiv-created-in-lab-for-biological-warfare
http://www.snopes.com/medical/disease/aids.asp

إثارات حول

الأديان عامّة والإسلام خاصّة



ما هي الحاجة إلى الدين؟

السؤال (٣٤): أنا أثق بقدرتي على سدّ احتياجاتي في جميع أموري، ولا حاجة لي بالدين، والدين يوجب عليَّ أموراً أنا غني عنها! ما الجواب؟

الجواب: أنّ الحاجة إلى الدين ليست منحصرة في سدّ الاحتياجات المعيشية من أكل وشرب ولباس ومسكن وغير ذلك، فإنّ هذه الأمور يمكن توفيرها من دون الحاجة فيها إلى الدين، ولعلّ غير المتديِّن الذي لا يلتزم بصلاة أو صوم أو حجّ أو غيرها، ولا يلتزم باكتساب خصوص الحلال دون الحرام، يكون أقدر من غيره على اكتسابٍ سهل لأموال أكثر؛ لأنّه أتاح لنفسه مجالاً أوسع من غيره لاكتساب الأموال، من دون أن يتقيّد بقيود تحدّ من الحصول على الأموال.

ولكن بما أنّ الدين الإسلامي هو مجموعة القوانين الإلهيّة التي يجب على الإنسان المسلم أن يتقيَّد بها في جميع شؤونه الحياتية، الخاصّة والعامّة، وفي السّرّ والعلانية، وفيما يحبّ أو يكره، وبما أنّ هذه القوانين الشاملة لجميع شؤون الحياة قد وضعها ربّ العالمين لمصلحة عباده، ولكي يصلوا بها إلى سعادتهم في الدنيا والآخرة، فلا بدّ أن تكون الحاجة إليها ماسّة من جميع الجوانب، ويمكن لنا أن نبيِّن شدّة الحاجة إلى العمل بأحكام الله من عدّة جوانب:

١ - الجانب الإنساني:

إنّ الالتزام بقوانين الإسلام وأحكامه من شأنه أن يبني الإنسان الكامل من جوانبه المتعدّدة، فيتّصف بمكارم الأخلاق التي حثَّ عليها الإسلام، فيحبُّ للآخرين ما يحبّه لنفسه، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه، ويعامل النّاس بما

يجب أن يعاملوه به، فيكون خلوقاً، ودوداً، صادقاً، وفيًّا، كريماً، عفيفاً، يتعامل مع عامّة الناس بالعدل والإنصاف والإيثار والأمانة، والعفو والصفح، وما شاكل ذلك.

ومن ناحية أخرى فإنّ المسلم يلزمه أن ينزّه نفسه عن مساوئ الأخلاق ورذائل الصفات، فلا يكذب، ولا يظلم، ولا يعتدي، ولا يسرق، ولا يبهت، ولا يسبّ أو يفحش في القول، أو يقتل بغير حق، أو يزني، أو يتجسّس على النّاس، أو يتلصّص على خصوصيّات الناس، أو يطّلع على عوراتهم، أو يُلحق الأذىٰ بأيّ أحدٍ كائناً من كان.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر لما جعله والياً على مصر:

وأَشْعِرْ قلبك الرحمة للرعيّة، والمحبّة لهم، واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخٌ لك في الدّين، وإمّا نظير لك في الخَلْق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحبّ أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنّك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاك، وقد استكفاك أمرهم، وابتلاك بهم[1].

٢- الجانب الروحي:

إنّ حاجة الإنسان إلى قوانين الإسلام لإشباع جانبه الروحي تنشأ من تعرّض الإنسان إلى مصاعب مختلفة ومصائب متعدّدة في هذه الحياة، كالفقر، والمرض، وفقد الأحبّة والأولاد، والخوف من كيد الأعداء وجور الحكّام والسلاطين، وغير ذلك.

ولمواجهة كلّ هذه المصاعب والمصائب فإنّه يحتاج إلى أن يكون مسلَّحاً

---

(١) نهج البلاغة: ٤٥٠.

بقناعات متعدّدة يستطيع بها مواجهة كلّ هذه الأمور بأقل الخسائر، وتتمثّل هذه القناعات في الآتي:

١- **الوثوق بالقادر الحكيم:** بأنْ يعلم أنّ كلّ ما أصابه من المصائب والابتلاءات هو بنظر الله سبحانه، وأنّ الله ليس بغافل عما أصابه من قليل أو كثير، كما قال الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: هوَّن ما نزل بي أنّه بعين الله[1].

٢- **الوثوق بالعِوَض:** بأن يتيقّن بأنّ الله سيعطيه ما لا يتوقَّعه من التعويض الكثير الدائم عن هذه المصائب التي ألَـمَّت به فاجتازها بنجاح.

٣- **الصبر برجاء المثوبة:** أنْ يعلم أنّ عليه أن يقابل جميع هذه الابتلاءات بالصبر والشكر والتجلّد، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٤- **الوثوق بعد دوام البلاء:** بأن يقنع نفسه بأنّ كلّ ما يصيب الإنسان من مصاعب ومصائب إنّما هي ابتلاءات مؤقّتة في هذه الدنيا، وأنّها لن تدوم إلى الأبد، إمّا بذهابها أو بالذهاب عنها.

٥- **حصول الأمل:** بأن يستيقن بأنّ الله قادر على رفع تلك المصائب، وتخليصه منها، خصوصاً مع العمل الصالح والدعاء والصدقة، وبهذا يحصل عنده أمل قويّ بأنّه سيتخلّص من كلّ ابتلاءاته في القريب العاجل.

٦- **القناعة بأنّ الحياة مؤقَّتة:** بأن يستحضر أنّ هذه الحياة إنّما هي حياة مؤقّتة، وأنّها لا تعدو أن تكون قنطرة للعبور منها إلى الحياة الأخرى، وأنّ الحياة الحقيقية هي تلك الحياة الأخرى كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ

(١) عوالم العلوم والمعارف والأحوال (الإمام الحسين عليه السلام) ١٧/ ٢٨٩.

وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولهذا فإنّ الإنسان المسلم الذي يعلم أنّه سيموت حتماً ولم ينل كلّ ما كان يتمنّاه في هذه الدنيا، أو المثكول الذي فقد أحباءه، وعانىٰ من ألم فراقهم، يعي ويدرك أنّه بعد موته لن تنتهي حياته إلى الأبد، وإنّما سينتقل إلى حياة أخرى أفضل وأسمى وأرغد، وأنّه في تلك الحياة الأخرى سينال كلّ ما يتمنّى، وسيلتقي بأحبائه الذين فقدهم، أو الذين سيفقدونه في هذه الحياة التي يعيشها.

وجميع هذه الأمور من شأنها أن تخفّف على الإنسان المسلم آلام المصائب، وتجعل نفسه راضية بقضاء الله تعالى، ومطمئنة بوعده سبحانه، ومسلّمة له.

والفرد المسلم عندما تصيبه المصائب يفزع إلى مناجاة ربّه، وسؤاله، والشكوى إليه، وطلب المعونة منه، وهو يعتقد أنّ الله تعالى يسمعه ويراه، ويأمل في أن يستجيب له، ويحقّق له رغباته، وبهذا يكون عند المسلم متنفَّس لآلامه وأحزانه، ويجد من يبثّ إليه شكواه ممّن يكتم عليه سرّه، ويعينه في مصيبته، فلا يعاني من ألم المصيبة، وألم كبتها في نفسه، وألم اليأس من انقضائها.

ولأجل ذلك نجد أنّ نسبة الانتحار في البلاد الإسلامية متدنّية جدًّا، رغم أنّها من أكثر البلاد معاناة من الظلم والاضطهاد والإرهاب، في حين أنّ نسبة الانتحار عالية في البلاد غير المسلمة رغم توفّر جميع وسائل الراحة فيها، وعندما ننظر إلى قائمة الدول حسب نسبة الانتحار نجد أنّ البلاد الإسلامية تأتي في آخر القائمة[1].

٣- الجانب الصحّي:

لا ريب في أنّ تناول الأطعمة ينعكس إيجاباً أو سلباً على صحّة الإنسان،

---

(١) راجع موقع منظمة الصحة العالمية:

http://apps.who.int/gho/data/node.main.MHSUICIDE?lang=en#
http://gamapserver.who.int/gho/interactive_charts/mental_health/suicide_rates/atlas.html.

فإذا تناول أطعمة فاسدة فإنّه سيتضرّر بلا ريب، وفي المقابل إذا تناول الأطعمة الطيّبة فإنّ ذلك سينمّي جسمه، ويصلحه ويقوّيه، وبما أنّ أكثر النّاس لا يعلمون بالأطعمة الطيّبة في الواقع، فإنّهم كثيراً ما يتناولون الأطعمة السيّئة وهم لا يعلمون بمساوئها أو ربما يعلمون، فتتضرّر أجسامهم، ويصابون بكثير من العلل والأمراض المستعصية.

لكنّ الإنسان المسلم الذي يتّبع نظاماً صحّيًّا كاملاً وضعه له ربُّه العالم بمصالح الأشياء ومفاسدها، الذي بيَّن له نظامه الغذائيّ المشتمل على تحديد ما يصنعه الإنسان إذا أراد الأكل، وما هي الأطعمة التي يأكلها، ومتى يأكل، ومقدار ما يأكل، وما يفعله وهو على المائدة، وما يفعله إذا فرغ من طعامه، فإنّه لا يصاب بالأمراض التي تنشأ عادة من تناول الأطعمة غير الصّحّية، وما أكثرها.

ومن الأمثلة التي يناسب ذكرها للتدليل على ذلك أنّ الله تعالى حرّم من الأسماك ما لا فَلْسَ له، وأباح للنّاس كلّ ما له فلس، ومن ضمن أنواع الأسماك المحرّمة ما هو سامّ شديد السُّمّية، مثل سمكة التنّين، وسمكة القراض، وسمكة الأرنب(١)، وهي كلّها من الأسماك التي لا فلس لها، وكذلك سمكة فوغو التي يأكلها بعض اليابانيين، والتي لا يقوم بإعدادها إلا طبّاخون متمرِّسون ومرخَّصون؛ لأنّها شديدة السُّمّيّة(٢).

وكلّ من لا يلتزم بالقانون الإلهي ربّما يأكل من هذه الأسماك من دون أن يعلم بمخاطرها، فيفقد حياته هكذا بسهولة.

---

(١) لمعرفة المزيد: راجع موقع ويكيبيديا، مادة: (سمك القراض)، و(سمكة التنين)، و(عقارب البحر)، وراجع أيضاً موقع الهيئة العامة لتنمية الثروة السمكية بمصر؛ لمعرفة بعض أنواع الأسماك السامّة: http://www.gafrd.org/posts/636003

(٢) http://www.bbc.com/news/magazine-18065372

كما أنّه سبحانه بيّن للإنسان متى ينام، وما يصنعه قبل النوم، وعلى أيّ جانب ينام، وأين يضع يده حال نومه، ومتى يستيقظ.

وبيَّن له آداب التنظّف والسواك، ودخول الحمام، وآداب الجماع، وحلق الشعر وقصّ الأظافر، وآداب اللباس، وغير ذلك ممّا يكون له تأثير كبير على صحّته.

ولا يخفى أنّ اتّباع هذا النّظام الصحّي الكامل له بالغ الأثر على دوام الصحّة واعتدال المزاج، وهذا هو الملاحظ في العلماء الأجلّاء الذين يلتزمون بهذه الآداب في كلّ شؤون حياتهم، فإنّهم أطول النّاس أعماراً، ويعيشون حياتهم وهم في أتمّ صحّة رغم عظم مسؤولياتهم وكثرة مشاغلهم.

٤- الجانب الأُسَري:

فإنّ الله تعالى خلق الإنسان، وجعله يعيش في ضمن أُسرة، وجعل الأسرة تعيش في ضمن مجتمع، وجعل للأسرة قانوناً متكاملاً، يحمي كلّ أسرة عن التفكّك، ويعزّز استقرارها، ويمنع كلّ فرد من أفرادها من أن يجور على بعضها الآخر، أو يقصّر في القيام بمسؤولياته تجاه الآخرين.

وقد لاحظتُ من واقع المشاكل الأسرية الكثيرة التي اطّلعت عليها، أنّ أهمّ سبب من أسباب الخلافات الزوجية بين المسلمين هو مخالفة الزوج أو الزوجة لأحكام الله تعالى المتعلّقة بالحقوق والواجبات الأسرية، وكلّ زوجين يلتزمان بأحكام الله تعالى في هذا الموضوع فإنّهما يحفظان علاقتهما الزوجية من التفكّك والانهيار.

وبسبب عدم عمل الناس في البلاد الغربية التي لا تدين بالإسلام بأحكام الله، ورجوعهم في خلافاتهم الزوجية إلى القوانين المدنيّة فإنّ علاقاتهم الزوجية غالباً لا تدوم إلا سنين قليلة، ونِسب الطلاق في تلك البلاد مرتفعة

بشكل كبير جدًّا، فإنّه ذُكر في إحصائية سنة ٢٠١١م أنّ نسبة الطلاق في الولايات المتحدة هي ٥٣٪، وفي بريطانيا والسويد والنمسا وبلغاريا وسلوفاكيا ٤٧٪ حسب إحصائية ٢٠١٠م، وفي روسيا وسويسرا ٥١٪، وفي فرنسا ٥٥٪، وفي أسبانيا ٦١٪، وفي ألمانيا ٤٩٪، وفي كندا ٤٨٪، وفي جمهورية التشيك ٦٦٪، وفي المجر ٦٧٪، وفي البرتغال ٦٨٪، وفي بلجيكا ٧١٪[1].



ولا شك في أنّ هذه النِّسَب كلّها نِسَب مرتفعة جدًّا، وأمثال هذه النِّسب لا نجدها في البلاد الإسلامية، رغم أنّ كثيراً من المسلمين غير ملتزمين بأحكام الإسلام، ولو التزموا بها حقيقة لكانت النِّسَب ضئيلة جدًّا، ومع ذلك فإنّ هذه الإحصائيات فيها دلالة واضحة على أنّ الابتعاد عن أحكام الإسلام فيما يتعلّق بالعلاقات الأسرية كافٍ في انهيار الأسرة من أساسها.

٥- الجانب الاقتصادي:

ممّا لا شكّ فيه أنّ النّاس يحتاجون إلى المعاملات التجارية من أجل الحصول على ما يحتاجونه من السلع، وتحقيق الأرباح المالية.

ولكن كثيراً من التجّار والمنتجين يسعون إلى تحقيق الأرباح على حساب

(١) راجع موقع ويكيبيديا، مادة: معدّل الطلاق.
https://en.wikipedia.org/wiki/Divorce_demography

المستهلك الذي يقع في الضرر عندما يشتري بعض السلع المغشوشة، ممّا يؤدي إلى وقوع المنازعات بين التاجر أو المنتج والمستهلك.

ولهذا فإنّ الله تعالى وضع قوانين شاملة عادلة تحفظ حقوق جميع الأطراف، وتحقّق الفوائد المطلوبة من هذه المعاملات، ولا تكون سبباً لوقوع النزاعات بين أطراف المعاملات، وجعل الخيار في فسخ المعاملة لمن رأى في السلعة عيباً، أو علم بأنّه مغبون في معاملته، وغير ذلك ممّا هو مفصَّل في كتب الفقه الإسلامي.

وكثيراً ما تقع الاختلافات والنزاعات بين المتعاملين، الذين لا يرون بدًّا من اللجوء إلى المحاكم الرسمية لفضّ تلك المنازعات.

وكثيراً ما يتحايل بعض المتعاملين على الأنظمة، فيحصل على أرباح غير مشروعة بالتحايل على القانون أو يأخذها بالقانون.

وأمّا في القانون الإلهي فإنّ كل من يحتال على الآخرين، فيأخذ منهم مالاً بغير حقّ، فإنّه يأكل حراماً وسحتاً، ويجب عليه حينئذ أن يردّ هذا المال الذي أخذه بغير حقّ إلى صاحبه مهما تطاول الزمان، وأمّا من أخذ مالاً بغير حقّ بحكم القانون فإنّه لا يفكّر في إرجاعه إلى صاحبه؛ لأنّ القانون أعطاه الحقّ في أخذه، ولم يلزمه بإرجاعه بعد أخذه.

ولأجل كلّ ذلك فإنّ الحاجة تمسّ إلى الأخذ بالقانون الإلهي الكامل، دون القانون البشري الذي فيه كثير من الثغرات التي يمكن للمحتالين استغلالها.

٦- الجانب الاجتماعي:

من المعلوم أنّ أكثر المجتمعات لا تخلو من الفقراء والمحتاجين والضعفاء والبائسين، وأغلب الذين لا يتديَّنون بدين سماوي لا يحرّكون ساكناً لمواساة

أولئك الفقراء والمساكين، ولا يتحمّسون لإطعامهم أو إيوائهم أو الإحسان إليهم؛ لأنّهم يرون أنّ كلّ مال ينفقونه في هذا السبيل فإنّه مال تالف بلا أيّ فائدة تعود عليهم، كما أنّهم يرون أنّهم غير مسؤولين عن مساعدة أولئك الفقراء أو بذل أيّ نفقات لهم.

ولهذا فإنّ الفقراء المحتاجين في البلاد الغربية قد يلجؤون إلى الأكل من صناديق القمامة، والنوم على جوانب الطرقات، وهم الذين صاروا يُعرفون بـ homeless، وهؤلاء لا يسأل عنهم أحد، ولا يحاول الآخرون مساعدتهم، ولا يعني هذا أنّنا ننفي وجود محسنين في الغرب، إلا أنّه أمر غير شائع عندهم، بل هو بعيد عن ثقافتهم، وإذا رأيت عند بعضهم شيئاً من الإحسان فهو ممّا بقي عندهم من تعاليم الديانة المسيحية.

وأمّا في الإسلام فإنّ الله تعالى أوجب الزكاة على الأغنياء لإطعام الفقراء، كما حثّ على الصدقة المستحبّة في كلّ وقت، وبيّن أنّ الصدقة تَدفع البلاء المبرم، وأنّها تقع في يد الرَّبّ قبل أن تقع في يد الفقير، وجعل للفقراء حقًّا في أموال الأغنياء، فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

والله تعالى مدح الذين ينفقون أموالهم في سبيل الخير في آيات كثيرة، وبيّن ما أعدّه لهم من الثواب الكثير المضاعف، فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

كما أنّ نبيّنا الأكرم ﷺ حذّر كلّ مسلم من أن يتنصّل عن مسؤوليّاته تجاه

المحتاجين والمعوزين، ولا سيّما إذا كانوا من جيرانه، فيبات شبعاناً وهم جياع، فقال: ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره المسلم جائع[١].

وعن الإمام علي بن الحسين عليهما السلام قال: من بات شبعاناً وبحضرته مؤمن طاوٍ، قال الله تبارك وتعالى: ملائكتي أشهدكم على هذا العبد أنّي أمرته فعصاني، وأطاع غيري، فوكلته إلى عمله، وعزَّتي وجلالي لا غفرتُ له أبداً[٢].

وممّا قلناه يتبيّن شدّة حاجة جميع المجتمعات إلى القانون الإلهي؛ لكي يعطف غنيّهم على فقيرهم، ويرحم قويّهم ضعيفهم، ويحنو كبيرهم على صغيرهم.

٧- الجانب السياسي:

كلّ من يقرأ التاريخ يرى أنّ أكثر الحروب والفتن كانت دوافعها سياسية، إمّا من أجل الوصول إلى السلطة، أو لفرض الهيمنة والنفوذ على بلاد أخرى، وفي سبيل تحقيق ذلك سُفكت الدماء، وهُتكت الأعراض، وانتُهكت الحرمات، ووقع من الجرائم ما يندى له جبين الإنسانية.

وقد ابتُلي المسلمون بهذه البليّة العظمى، فزحزحوا الخليفة الشرعي عن خلافة المسلمين، وهو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وتنازعوا على الخلافة والحكم من بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى يومنا هذا، فعمّت الفتن بلادهم منذ ذلك الوقت إلى عصرنا الحاضر.

إنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله نصَّ على من يتولّى الخلافة من بعده، وبيّن أنّ الخلفاء من بعده اثنا عشر خليفة، يكون الإسلام بهم عزيزاً منيعاً، ويكون أمر النّاس بهم ماضياً، وهؤلاء الخلفاء هم الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته عليهم السلام.

---

(١) وسائل الشيعة ٦/ ٣٢. المعجم الكبير للطبراني ١/ ٢٥٩.

(٢) المحاسن ١/ ٩٨.

وكما أنّ المسلمين عانوا من ظلم سلاطين الجور فإنّ جميع الشعوب الأخرى عانت كذلك، والتاريخ شاهد على ذلك.

ولو أنّ المسلمين اتّبعوا ما أمرهم به النّبي الأكرم ﷺ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ولأنزلت السماء ماءها، وأخرجت الأرض بركاتها، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴾ [الجن: ١٦].

وبإذن الله تعالى ستثبت الأيام القادمة أنّ الإسلام هو الحلّ الوحيد لجميع مشاكل الإنسانية المعذّبة إذا ظهر الإمام العادل المعروف بالمهدي الموعود، الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما مُلئت ظلماً وجوراً، وستسعد الإنسانية في زمانه ما لم تسعده من قبل، وإنّ الصبح لناظره قريب.

٨- الجانب الأخروي:

لا يخفى أنّ هذه الحياة الدنيا مليئة بالأكدار والآلام، والمنغِّصات والأحزان، والإنسان مهما نال منها فإنّه لا يستطيع أن ينال منها كلّ ما يتمنّى، وهو وإن نال منها الأموال والجاه والزعامة والنّساء وغير ذلك فإنّها تنتهي بالموت، ونعيمه فيها لا يدوم، وكلّ ما تعب في جمعه من الأموال فإنّه سيتركه إلى غيره.

إذن فالحياة الدنيا حياة مؤقّتة، والحياة الدائمة الحقيقية لكلّ واحد منّا هي حياته بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وهذه الحياة الدائمة هي الحياة التي ينبغي للإنسان أن يمهّد لها، وأن يجعل له رصيداً كبيراً فيها.

والتمهيد لهذه الحياة إنّما يكون بالعمل الصالح الذي يريده الله منّا، والذي من ضمنه عبادة الله تعالى كما أمر؛ لتتكامل نفوس العباد، وتتسامى أخلاقهم، وتصلح معاملاتهم، ولكي لا يعتدي بعضهم على بعض، ولا يظلم بعضهم بعضاً، ويؤدّي بعضهم حقوق بعض.

ومن دون الأخذ بأحكام الله تعالى فإنّنا سنتخبّط في الظلماء، ولن نهتدي إلى شيء صحيح، وستكون حياتنا مؤقّتة بهذه الحياة التي لا تمتدّ طويلاً ثمّ تنتهي بسرعة، من دون أن نأخذ معنا منها شيئاً من مكاسبنا التي حقّقناها فيها.

النتيجة:

من كلّ ما قلناه يتّضح خطأ من يعتقد أنّه ما دامت الحاجة إلى الدين في توفير المعاش غير موجودة فإنّ الدين لا قيمة له عنده، حيث جعل قيمة الأشياء مرتبطة بمقدار ما له علاقة بكسب القوت فقط، وهذا توهّم خاطئ؛ لأنّ الله تعالى شرع هذا الدين من أجل سعادة الإنسان في حياتيه الدنيوية والأخروية، ومن دون الالتزام بأحكام الدين فإنّ الإنسان سيكون في خسر كبير، ونحن بيّنا الحاجة إلى الدين من جوانب مهمّة متعدّدة، وهي كافية في إبطال أمثال هذه التوهّمات الخاطئة.

حرية اختيار الأديان

السؤال (٣٥): يدّعي المسلمون أنّ الإنسان حرٌّ في الدخول في الإسلام، ولكن كلّ من لم يعتنق الإسلام فإنّه يُعذَّب بنظرهم في النّار، فكيف يكون حرًّا في اختيار دينه؟

والجواب:

أنّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ [الكهف: ٢٩].

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يُكرِه النّاس على الدخول في الإسلام، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

والله تعالى لم يُكرِه الناس على دينه؛ لأنه يريد منهم أن يدخلوا في الإسلام بطواعية واختيار، واقتناع وتصديق، واعتقاد.

وإذا كان المطلوب للدخول في الإسلام هو الاعتقاد الجازم بالعقائد الإسلامية الحقّة، فإنّ هذا لا يتأتّىٰ بالإكراه والإجبار؛ لأن كلّ شخص وإن أمكن إجباره على أن يقوم بعمل ما، كفعل الصلاة، والصوم، والحجّ، إلا أنّه لا يمكن إجباره على أن يعتقد بعقيدة واحدة؛ لأنّه لا سبيل للمُكْرِه على قلب المُكْرَه وفكره.

ولأجل ذلك فإنّ المسلمين منذ ظهور الإسلام وإلى يومنا هذا لم يُكرهوا

غيرهم على الدخول في الإسلام، وحوادث التاريخ شاهدة على ذلك؛ لأنّ إكراه غير المسلمين على الإسلام، وإدخالهم في الإسلام ظاهراً لا فائدة فيه، ولا يحقّق الغرض المطلوب؛ لأنّ كلّ من دخل في الإسلام مكرَهاً، لم يدخل فيه حقيقة، وإن تظاهر بالإسلام وعمل بأحكامه ظاهراً، بل إنّ إظهاره خلاف ما يُضمر في قلبه يتسبّب عنه نشوء فئة من المنافقين الذين يضرّون بالإسلام أكثر ممّا ينفعونه؛ لأنّهم يكيدون له، ويعملون على هدمه من الداخل.

فإذا اتّضح ذلك نقول: إنّ الأديان بما أنّها مختلفة ومتعدّدة، والدّين الحقّ واحد من بين جميع هذه الأديان وهو الإسلام، وباقي الأديان المعاصرة كلّها باطلة، فلا ريب في أنّها غير مقبولة عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وبإيضاح أكثر أقول: إنّ الله تعالى لا يُكره النّاس لكي يكونوا مؤمنين، وهو سبحانه قد أقام الحجج والدلائل على أنّ الدين الحقّ هو الإسلام، وأوجب على كلّ من عنده مقدرة عقلية على تمييز الحقّ من الباطل أن يبحث في الأديان؛ لكي يعتقد بالدين الواجب الاتّباع، ويترك ما عداه، فمن تبيّن له أنّ الإسلام هو دين الله الذي لا يرتضي غيره، فإنّه يجب عليه أن يترك دينه السابق، ويعتنق الإسلام؛ لأنّ الحقّ أحقّ أن يُتّبَع دون غيره.

لكنّه لو تعصّب لدينه الذي كان عاكفاً عليه، فلم يتركه، بل بقي متمسّكاً به، مدافعاً عنه، عاملاً على نشره وترويجه، فإنّه يستحقّ العقاب الدائم بسبب محاربته لدين الله تعالى، وترويجه للباطل ولو بتكثير سواد أتباعه، وعدم طاعته لله سبحانه كما سنبيّنه قريباً.

وأمّا من لم يميِّز الحقّ لأنّه لا قدرة له على تمييزه، فإنّه موكول إلى رحمة الله التي وسعت كلّ شيء. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٧ – ٩٩].

قال الفيض الكاشاني قدس سره:

الإيمان الكامل الخالص المنتهي تمامه هو التسليم لله تعالى، والتصديق بجميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم لساناً وقلباً على بصيرة، مع امتثال جميع الأوامر والنواهي كما هي، وذلك إنّما يمكن تحقّقه بعد بلوغ الدعوة النبوية إليه في جميع الأمور.

أمّا من لم تصل إليه الدعوة في جميع الأمور أو في بعضها؛ لعدم سماعه، أو عدم فهمه، فهو ضالٌّ أو مستضعف، ليس بكافر ولا مؤمن، وهو أهون النّاس عذاباً، بل أكثر هؤلاء لا يرون عذاباً، وإليهم الإشارة بقوله سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾.

ومن وصلت إليه الدعوة فلم يسلم، ولم يصدِّق ولو ببعضها؛ إمّا لاستكبار وعلوّ، أو لتقليد للأسلاف وتعصّب لهم، أو غير ذلك، فهو كافر بحسبه – أي بقدر عدم تسليمه وترك تصديقه – كفر جحود، وعذابه عظيم على حسب جحوده، وإليهم الإشارة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[البقرة: ٦، ٧][1].

لا يقال: إذا كان الله تعالى لا يقبل منّا إلا الإسلام، وإذا لم نسلم فإنّه يعذّبنا؛ لقوله: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾، فمعنى ذلك أنّ الله يُكْرِه خلقه على هذا الدين الذي ذكر أنّه لا إكراه فيه.

لأنا نجيب: بأنّ الله تعالى له حقّ الطاعة على عبيده، والإنسان يدرك ذلك

---

(١) الوافي ٤/ ٩٩.

بعقله؛ لأنّ الله تعالى هو الخالق له والمنعم المتفضّل عليه بجميع النعم، وإذا ثبت لله تعالى حقّ الطاعة على عبيده فإنّ العقل يحكم حينئذ بأنّه يجب على الإنسان أن يطيع الله سبحانه في جميع أوامره ونواهيه؛ لكي يؤدّي إليه هذا الحقّ الواجب عليه، أو لكي يقوم بشكره؛ لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً.

وبتعبير آخر أقول: إنّ طاعة الله سبحانه إنّما صارت واجبة؛ لأنّ العقل قد حكم بوجوبها، لا لأنّ الله تعالى أمرنا بإطاعته، وإلا لزم الدور، حيث يتوقّف وجوب إطاعته سبحانه على أمره، ويتوقّف أمره على وجوب إطاعته، والدور كما هو معلوم باطل؛ لأنّه يلزم منه توقّف الشيء على نفسه، وهو باطل.

وحقُّ الطاعة هذا هو الذي يفعّل القوانين الإلهية والعرفية، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد سنَّ القوانين التي تنظّم حياة الفرد والمجتمع، وأمر خلقه بالأخذ بها وعدم مخالفتها، ولولا هذا الحقّ لأمكن لكلّ واحد أن يسرق، ويقتل، ويزني، ويكذب، ويفتري، ويفعل ما يشاء، من دون أن يراعي لأحد حرمة أو كرامة؛ لأنّه لا يجب عليه أن يطيع أحداً، ولا حقّ لأحد في أن يجبره على شيء، ومثل هذا المنطق لا يقبله جميع العقلاء؛ لأنّه يحوّل حياة النّاس إلى جحيم، ويحوّل الأرض إلى غابة يأكل فيها القويُّ الضعيف.

ولولا حقّ الطاعة هذا لما استطاعت الدول أن تسنّ أيّ قانون، فإنّ جميع القوانين مبنيّة على هذا الحقّ الذي تفرضه الدولة لنفسها على جميع مواطنيها، وإلا فإنّ كلّ مواطن يسعه أن يخالف جميع القوانين بدعوى أنّه لا يجب عليه إطاعة قوانين الدولة، وأنّ الدولة ليس لها الحقّ في فرضها عليه وإجباره على عدم مخالفتها، ولا شكّ في أنّ جميع الدول لا تقبل مثل هذا المنطق من أيّ مواطن من مواطنيها؛ لأنّها ترى أنّ لها حقّ الطاعة عليه، وأنّه مُلزَم بأن يطيع جميع أوامرها من دون أيّ مخالفة.

إذا اتّضح ذلك نقول: إنّ أكثر الناس يرون أنّ كلّ دولة لها حقّ الطاعة

على مواطنيها، مع أنّ حقّ الدولة على النّاس ليس كحقّ الله تعالى عليهم، فإنّه هو الذي خلقهم، ورزقهم، ولا يزال يُنعم عليهم بأعظم النِّعم، بخلاف الدولة فإنّها تقدّم لهم بعض الخدمات التي لا تقاس بها ينعمه الله تعالى على النّاس، وعليه، فحقّ الله أعظم من حقّ غيره، وطاعته أوجب وأولى.

ودين الإسلام هو مجموع قوانين الله تعالى التي أمر خلقه بالعمل على طبقها، ونهاهم عن مخالفتها، والواجب عليهم بمقتضى حقّ الطاعة له عليهم هو العمل بهذه القوانين الإلهية دون غيرها.

وإذا كان حقّ الطاعة ثابتاً لله تعالى على عبيده، فإنّه يحقّ لله تعالى أن يعاقب من خالف وتمرّد وأبى، كما يحقّ للدولة أن تعاقب من خالف قوانينها وتمرّد عليها.

وحاصل الكلام: أنّ الله تعالى لو شاء أن يُكره النّاس على الإسلام لكان ذلك عليه سهلاً يسيراً، ولكنّه أمرهم بالتمسّك بدينه، والأخذ بتعاليمه باختيارهم وطواعية أنفسهم، فمن خالف جاز له سبحانه أن يعاقبه؛ لأنّ له حقّ الطاعة عليه، فلا منافاة بين عدم إكراهه للنّاس على الإيمان به، ومعاقبته لهم على عدم طاعتهم له.

لماذا يجب على كل شخص أن يكون مسلماً؟

السؤال (٣٦): أنا شخص جيِّد، وذو خلق، ولا أضرّ الآخرين، فلماذا يجب عليَّ أن أسلم، وإذا لم أفعل أُعذَّب؟

والجواب: أنّ أكثر الناس يحكمون على أنفسهم بأنّه جيّدون، ولعلّ بعضهم أشخاص غير جيّدين، والسبب في ذلك أنّ غالبية الناس يرون محاسن أنفسهم، ولا يرون مساوئهم.

ولكنّا مع ذلك نجاري السائل، فنقول: حتى لو كنتَ رجلاً جيّداً بنظرك فإنّه يجب عليك أن تكون مسلماً؛ لعدّة أمور:

١- وجوب طاعة الرَّبّ سبحانه: فإنّ الله تعالى هو خالقنا ومدبّرنا والأعرف بمصالحنا، وهو سبحانه أرسل الأنبياء الذين بلّغوا رسالاته للنّاس، وأمروهم بأن يكونوا مسلمين مؤمنين بالرّبّ الواحد الأحد، وأن يعبدوه كما أمر، ويلتزموا بقوانينه وأحكامه التي تنظّم علاقاتهم معه سبحانه، وعلاقاتهم مع بعضهم، وعلاقاتهم مع باقي المخلوقات.

فإنْ ثبتتْ نبوّة هؤلاء الأنبياء، وثبت أنّهم رسل من قبل الله تعالى، وأنّهم صادقون فيما بلّغوا عن الله تعالى، فإنّه يجب على الخلق أن يكونوا مسلمين مؤمنين بالله تعالى ومصدِّقين لأنبيائه عليهم السلام، ويجب عليهم أن يمتثلوا أوامره، وينتهوا عن نواهيه، سواء كان النّاس رجالاً صالحين أم لم يكونوا، وسواء كانوا لا يضرّون غيرهم أم لا.

وأمّا إذا لم تثبت نبوّة أولئك الأنبياء، بل ثبت أنّهم كاذبون مفترون، فإنّه لا يجب على النّاس أن يتديّنوا بما قاله هؤلاء الرجال، ولا يجب عليهم أن

يأخذوا بشرائعهم، أو يطيعوهم في شيء.

إذن فالذي يلزم البحث فيه هو أنّ هؤلاء المدَّعين للنبوّة هل ثبتت نبوّتهم أم لا.

وحيث إنّه قد ثبت لدينا صحّة نبوّة نبيّنا الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ، وقامت الأدلّة القطعية على أنّه نبيّ مرسَل من قِبَل الله تعالى، كما ثبت لدينا أيضاً بالتواتر أنّه ﷺ أمر النّاس بأن يكونوا مسلمين، إذ بلّغ عن الله تعالى أنّه قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، فإنّه يجب حينئذ اعتناق الإسلام؛ لأن ذلك هو إرادة الرّبّ سبحانه، ولا يسع العبد الغارق في نِعَم الله تعالى أن يخالفه أو يتمرّد على أوامره.

٢- وجوب شكر المنعم: فإنّ الله تعالى قد أنعم على الإنسان بنعم كثيرة جلَّتْ عن أن تُحصى أو تُحصر، كما قال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ولا يخفى على كلّ منصف أنّ بعض تلك النعم لا يُقدَّر بثمن، كالحياة التي هي أساس النّعم كلّها، وكنعمة العقل والسمع والبصر والحواس الأخرى، واليدين والرجلين وغيرها من الجوارح التي لا يُستغنى عن أيٍّ منها، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

كما وهب للإنسان المال، والزوج أو الزوجة، والأولاد، وسخَّر له هذا الكون بكامله، حتى صار لا يحتاج إلى شيء إلا وجده على هذه الأرض، ووجد غيره ممّا لا يحتاج إليه. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩].

وهذا الذي قلناه هو ما ظهر لنا من نِعَم الله سبحانه، وإلّا فإنّ الإنسان كلّما ازدادت معارفه وتطوّر في علومه، فإنّه يكتشف من نِعَم الله تعالى ما لا يعلمه السابقون. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

فإذا عُلم ذلك نقول: إنّ أقلّ ما يستحقّه هذا المنعم العظيم أنْ نعبده كما يريد، ونطيعه فيما يأمرنا به، وينهانا عنه، وأن نتديّن بالدِّين الذي ارتضاه لنا، ولا سيّما إذا علمنا أنّه غنيّ عنّا وعن عبادتنا كما قال سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وأنّ منفعة عبادتنا تعود إلينا بالأساس، ولا تنفعه بشيء.

فإن ثبت أنّ الإسلام هو الدِّين الذي أراده الله سبحانه وارتضاه فإنّ على جميع خلقه أن يطيعوه في ذلك شكراً منهم له سبحانه؛ لكثرة نعمه عليهم، وإلا فعلى كلّ واحد من النّاس أن يبحث عن الدِّين الذي يرتضيه خالقه سبحانه، لكي يشكره بالطريقة التي يريدها، ولا ينبغي له أن يكتفي بأن يقول عن نفسه: «إنّه شخص جيّد، وذو خلق، ولا يضرّ الآخرين، فلا يجب عليه أن يسلم أو يتديّن بدين آخر»؛ لأنّ قول ذلك يعني تجاهل شكر الله تعالى الذي يدلّ على غاية الجحود لتلك النِّعم العظيمة التي حصل عليها الإنسان من خالقه العظيم الذي أسبغ عليه تلك النِّعم ابتداءً ومن دون استحقاق.

٣- الإسلام قانون إلهي شامل: فإنّ السائل لو كان شخصاً جيِّداً واقعاً، وكان ذا خُلُق عال، ولا يضرّ بالآخرين، فإنّ كثيراً من النّاس ليسوا كذلك، بل إنّ عشرات الملايين من البشر ذئاب ضارية في صورة بشر، وأدلّ دليل على ذلك ما نراه في هذا العصر وما قبله من العصور من كثرة القتل والاعتداءات، وتفشّي السرقات، وكثرة الجنايات الأسرية والاجتماعية التي لا حدّ لها، حتى صار

معلوماً واضحاً عند جميع الثقافات منذ أقدم العصور أنّ كلّ دولة تحتاج إلى رجال أمن وشرطة لضبط الأمن وكفّ الاعتداءات، وتحتاج إلى بناء السجون لمعاقبة المذنبين، ومن الملاحظ أنّ كلّ دولة تصاب باختلال أمني فإنّ الاعتداءات تكثر، والسرقات تتفشّى، وربّما تُغتصَب النّساء، ويَتعدّى ذلك إلى قتل الأبرياء، وتخريب الممتلكات العامّة والخاصّة، وغير ذلك مما هو معلوم لا يكاد يُنكر.

ولا يخفى أنّ أكثر هؤلاء السيِّئين يرون في أنفسهم أنّهم أشخاص جيّدون، وكلّ شخص سيّئ يرى في دخيلة نفسه - بسبب حبّه لذاته - أنّه على الأقل شخص جيّد إن لم ير أنّه أَولى النّاس بالتكريم والرعاية والاهتمام والتقديم.

ولو أنّنا قَصَرنا قانون التديّن بالإسلام على الأشخاص غير الجيّدين فإنّك لن تجد أحداً يعمل بأحكام الدين أصلاً، سواء أكان صالحاً أم فاجراً؛ لأنّ الصلحاء الخيّرين لا يحتاجون إليه بنظر السائل، والرجال السيّئين لا يسلّمون بأنّهم سيِّئون، ولو سلموا بذلك فلن يعملون بالدين أصلاً؛ لأنّهم إذا لم يلتزموا بالقوانين المدنية التي عقوبتها عاجلة، فكيف يلتزمون بقوانين الله تعالى التي عقوبتها آجلة، والتي ربّما لا يعتقدون بها أصلاً.

إذا اتّضح ذلك نقول:

إنّ حاجة المجتمعات الإنسانية التي فيها الأخيار والأشرار إلى تحقيق الاستقرار والأمان تقتضي جعل قانون إلهي يطبَّق على جميع النّاس من دون تمييز بين فرد وآخر، سواء كانوا صالحين أم غير صالحين كما هو حال القوانين المدنية التي وضعها البشر، رغم أنّ هذه القوانين لا تزال ناقصة من جوانب كثيرة، ويمكن لكثير أن يتحايل عليها بسبب ما فيها من الخلل الكبير والثغرات الكثيرة التي نلاحظها في قوانين الدول المختلفة التي لم تتّفق بعدُ على قانون

واحد.

ولأجل ذلك لا بدّ لكلّ فرد أن يعتقد بالدين السماوي الصحيح وهو الإسلام؛ ليطبّق القانون الإلهي في جميع شؤونه، وفي سرّه وعلانيته، وهي الميزة التي يختلف فيها الدِّين عن القانون المدني الذي يمكن مخالفته في الحالات التي يؤمن فيها من العقوبة.

٤- **حاجة المجتمعات لقوانين الإسلام:** فإنّ الرجل الجيّد ذا الخلق العالي الذي لا يضرّ بالآخرين، ويعيش في مجتمع من المجتمعات لا بدّ له من أن يلتزم بقوانين عامّة في كلّ شؤونه، وفي كلّ تعاملاته مع الآخرين، ويكون هذا القانون هو المرجع له ولغيره في الحقوق والواجبات، وفي حال النزاع والاختلاف.

وكلّ من يزعم أنّه لا يحتاج إلى أن يلتزم بأيّ نظام أو قانون؛ لأنّه رجل جيّد لا يضرّ بالآخرين، فإنّ زعمه هذا لا يقبله جميع العقلاء المنصفين؛ لأنّ مصلحة العمل بالقوانين ضرورية، فلا بدّ حينئذ من اختيار قانون متكامل يعمل به الناس في جميع شؤونهم.

وهذا النظام المتكامل هو الإسلام، الذي تكفّل ببيان جميع الحقوق والواجبات، وبيان ما يجب فعله والالتزام به، وما يجب تركه وتجنّبه في كلّ شؤون الحياة.

وأمّا القوانين المدنية فإنّها لا تتكفّل ببيان كلّ ذلك ولا سيّما في الأمور الشخصية الخاصّة المرتبطة بكلّ جوانب الحياة كالأكل والنوم واللباس والتنظّف والتطيّب وغير ذلك.

مضافاً إلى أنّ القوانين المدنية لا تحقّق العدل والمساواة بصورة كاملة، خصوصاً في العلاقات الكبرى بين الدول، فإنّ الذي يتتبّع الحوادث الجارية في هذا العالم على مرّ العصور يجد أنّ هذا العالم قد تحوّل إلى غابة، يأكل فيها القويُّ

الضعيف، وأنّ الدول الكبرى المتطوّرة القويّة تهيمن على دول العالم الثالث المتخلّفة، وتستنزف خيراتها، وتسحق شعوبها، وتزيدها فقراً ومرضاً وجهلاً وتخلّفاً.

والحروب والنزاعات في عصرنا الحاضر وفي العصور السابقة تعمّ كلّ بقاع الأرض، والنزاعات بين الدول وبين الأشخاص لم تتوقّف ولن تنتهي، مع أنّ كلّ الدول تنادي بضرورة الالتزام بالقانون الدولي، وتطبيق العدالة والمساواة والديمقراطية، وكلّ دولة تزعم أنّ الحقّ معها في نزاعها مع الدول الأخرى، وهذا أمر واضح معلوم لا يشكّ فيه منصف.

إنّ القانون الإلهي هو القانون الذي ينظّم العلاقات العادلة بين النّاس، ويحفظ حقوق الجميع، وأمّا القوانين الدولية فإنّها وُضعت من قبل الدول القوية، وفُصِّلت على حسب مصالحها التي تضمن لها هيمنتها على الدول الضعيفة، ولهذا فإنّ الدول العلمانية التي لا تعمل بالإسلام كأمريكا والدول الأوروبية تستعبد الدول الضعيفة، وتستنزف خيراتها، مع أنّها نُظُم تصف نفسها بأنّها ديمقراطية، وتنادي بحقوق الإنسان، ولو أنّ هذه الدول عملت بتعاليم الإسلام حقيقة لطوّرت نفسها، وأغنت شعوبها، ولم تحتج إلى سرقة خيرات الشعوب الأخرى واستعبادها.

ولا أظن أنّنا نختلف في أنّ تلك الدول الاستعمارية التي تدّعي الديمقراطية لو سُئلت: هل هي دول جيّدة أو دول سيّئة، فإنّها ستجيب حتماً بأنّها من أفضل الدول في العالم التي تكفل الحريات وحقوق الإنسان.

٥- **سعة الحاجة إلى الإسلام:** فإنّ السائل قد حكم على نفسه بأنّه شخص جيّد، وذو خلق عال، وأنّه لا يضرّ بالآخرين، وجعل هذه الأمور أسباباً كافية للحكم بعدم حاجته إلى الدين، مع أنّ هذه الأمور يمكن التشكيك في صحّتها من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الحاجة إلى الدين لا تقتصر على الاتّصاف بهذه

الأمور الثلاثة فقط، ويمكن بيان ذلك بأن نقول:

أمّا الكلام في الجهة الأولى فهو أنّ سبب التشكيك في أمثال هذه الأمور هو أنّ الحكم على هذا الشخص بأنّه جيّد أو غير جيّد لا يكون صحيحاً إلا إذا كانت الضوابط التي يُرجع إليها في هذه الأمور صحيحة؛ لكي نستطيع من خلالها أن نصدر مثل هذه الأحكام على الأشخاص والجماعات؛ لأنّ هذه الضوابط متى ما كانت غير صحيحة فإنّ الأحكام المترتّبة عليها لا محالة تكون حينئذ مختلفة غاية الاختلاف، ومتباينة أشد التباين.

ويمكن إيضاح ذلك بمثالين:

المثال الأول: هو أنّ المرأة السافرة في البلاد الغربية يمكن أن يُحكم عليها بأنّها امرأة جيّدة، ولكنّ المرأة السافرة في البلاد الإسلامية لا يُحكم عليها بمثل هذا الحكم، مع أنّ المرأة السافرة التي تعيش في البلاد الإسلامية ربّما تكون أفضل بكثير من المرأة السافرة التي تعيش في البلاد الغربية.

والمثال الثاني: هو أنّ من يشرب الخمر، ويزني، ويقيم علاقة جنسية مع امرأة خارج إطار الزواج في البلاد الغربية قد يوصف بأنّه رجل جيّد، وذو خلق عال، ولكنّه في البلاد الإسلامية يحكم عليه بأنّه رجل فاسق سيّئ غير محترم.

وكذلك الحال في مسألة الإضرار بالآخرين، فإنّها تتباين وتختلف باختلاف المقاييس التي يقاس بها الضرر من غيره، ولو أخذنا المثالين السابقين لرأينا أنّ الأمر لا يختلف فيهما كثيراً من هذه الناحية، فإنّ المرأة السافرة في البلاد الغربية لا يُنظر إليها أنّها بسفورها تضرّ بالآخرين، ولكنّها في البلاد الإسلامية تُعدّ ممن ينشر الفساد في المجتمع الإسلامي.

وكذا الرجل الذي يشرب الخمر أو يزني أو يقيم علاقة مع امرأة خارج إطار الزواج فإنّه لا يُعدّ في البلاد الغربية مسيئاً لغيره أو مضرًّا بمجتمعه، ولكنّه

في البلاد الإسلامية يعدّ كذلك.

وأمّا الكلام في الجهة الثانية، وهي أنّ الحاجة إلى الدين لا تقتصر على الاتّصاف بهذه الأمور الثلاثة فقط، فلأنّ كلّ من يعيش في مجتمع فإنّه يحتاج إلى قانون ينظّم علاقاته مع الآخرين، ويبيِّن له حقوقه وواجباته، ويكون هذا القانون هو المرجع له ولغيره في حال التنازع والاختلاف كما قلنا.

كما أنّ الإنسان ربّما لا يضرّ بالآخرين ولكنّه يضرّ بنفسه، فإنّ من شرب الخمر أو أكل لحم الخنزير ربّما لا يكون قد أضرّ بالآخرين، ولكنّه قد أضرّ بنفسه وتعدّى على صحّته، وكذلك من تناول المخدّرات، أو من عمد إلى الانتحار وما شاكل ذلك.

والإنسان كثيراً ما يجهل المأكولات التي تضرّ بصحّته فيتناولها، بل ربّما يفرط في تناولها من دون معرفة بضررها، ولهذا فإنّه يحتاج إلى من يَعْرِف حقائق الأشياء لكي يدلّه على ما ينفعه، ويمنعه عمّا يضرّه، ويبيّن له ما يجوز له أكله وما لا يجوز.

وكما أنّ الجناية على الغير جرم عظيم فإنّ الجناية على النفس كذلك، ولهذا حَرّمت الأديان ذلك، ومنعت القوانين المدنية كلّ شخص من أن يتعدّى على نفسه بقتل أو جرح أو غير ذلك من الجنايات، حتى لو لم تظهر عليه آثارها السيِّئة إلا بعد مدّة.

وحيث إنّ قوانين الإسلام تكفل للإنسان سعادته الدنيوية والأخروية، فإنّها تحرّم عليه فعل أو تناول ما يضرّه، أو يؤثّر تأثيراً سيّئاً على بدنه أو سلوكه.

والنتيجة: أنّ الإنسان يحتاج إلى أن يتديَّن بالدين الحقّ؛ لتهذيب سلوكه، وتجنُّب ما يضرّه روحيًّا وجسديًّا، وكفّه عن التعدّي على الآخرين، وحفظ حقوقه، وإلزامه بأداء حقوق الآخرين، والقيام بالواجبات المنوطة به تجاه نفسه،

وأسرته، والمحيطين به، وتجاه مجتمعه وأمّته، ومجرّد كونه شخصاً قد يُصنَّف بأنّه مواطن صالح، أو ذو خلق عالٍ، لا يضرّ بأحد، غير كافٍ في الاستغناء عن التدين بالدين الحق الذي يكفل له ما لا تكفله له القوانين المدنية الوضعية.

وجه تفضيل الإسلام على غيره من الأديان السماوية

السؤال (٣٧): لِـمَ تفضّلون الإسلام على غيره من الديانات، على الرغم من أنّ أغلب الديانات تدعو إلى إصلاح النفس وعدم الاعتداء على الآخرين.

والجواب: أنّ دين الإسلام أفضل من غيره من الديانات السماوية الأخرى لعدّة أمور، منها:

١ - **شمولية الإسلام:** فإنّ الإسلام دين كامل مشتمل على منهج عباديّ متكامل، يرسم لكلّ من ينتمي إليه جميع ما يحتاجه الإنسان من العبادات التي تربطه بخالقه سبحانه، والتي لها أثرها المهمّ في إصلاح حاله، وتهذيب نفسه، وتقويم سلوكه.

ومن أهمّ تلك العبادات: الصلاة، التي أوجبها الله تعالى على المسلمين خمس مرّات في اليوم، في أوقات مختلفة من النّهار والليل، وهي العمل الذي يوثّق الارتباط بين الإنسان وربّه سبحانه، والذي يعاهد المسلم فيه ربّه على الصلاح والاستقامة، والابتعاد عن كلّ ما حرّمه الله عليه من مساوئ الأفعال وقبائح الصفات.

والله سبحانه في كتابه الكريم بيّن أنّ من فوائد الصلاة أنّها تنهى صاحبها عن الفواحش والأعمال السيّئة، فقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقد روي عن النبي ﷺ أنّه قال: مَنْ لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعْداً[١].

---

(١) مجمع البيان ٥/ ٣٦٤.

وعنه ﷺ أيضاً أنّه قال: لا صلاة لمن لم يُطِع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء والمنكر(١).

قال الشيخ الطبرسي قدس سره:

ومعنى ذلك: أنّ الصلاة إذا كانت ناهية عن المعاصي، فمن أقامها ثمّ لم ينته عن المعاصي، لم تكن صلاته بالصفة التي وصفها الله بها، فإن تاب من بعد ذلك، وترك المعاصي، فقد تبيَّن أنّ صلاته كانت نافعة له ناهية وإن لم ينته إلا بعد زمان(٢).

وهكذا الحال في العبادات الأخرى كالصيام مثلاً، فإنّ الله سبحانه وتعالى بيَّن في كتابه العزيز أنّ من منافع الصوم بلوغ الصائم درجة التقوى، وهي الالتزام بفعل الواجبات، والانتهاء عن المحرّمات.

قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وكذلك الزكاة التي أخبر سبحانه أنّها تطهِّر النفس، وتنمّي الرِّزق، حيث قال تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومن الكلمات الجامعة في بيان عِلَل الشرائع وملاكات الأحكام ما ورد في خطبة سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام حيث قالت: فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشِّرْك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكِبْر، والزكاة تزكية للنفس، ونماءً في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحجّ تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً للفُرقة، والجهاد عزًّا للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامّة، وبرّ

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر ٥/ ٣٦٥.

الوالدين وقاية من السَّخط، وصلة الأرحام منساة في العمر ومنماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكائيل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرِّجْس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السرقة إيجاباً بالعفّة، وحرَّم الله الشِّرْك إخلاصاً له بالربوبية، فـ ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنّه ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾[1].

ومثل هذه العبادات - بكيفيّتها المعيّنة في الدين الإسلامي ذات الآثار المخصوصة التي لها هذه المقاصد الجليلة والفوائد العظيمة - غير موجودة في الأديان الأخرى المحرّفة، كالنصرانية واليهودية وغيرهما، فلهذا كان للإسلام هذه الميزة المهمّة التي تجعله هو الدين الوحيد الذي شرع العبادات التي تهذِّب أخلاق أتباعه، وتقوّم سلوكهم.

٢- **أنّ الإسلام منهج حياة متكامل**: فإنّه مشتمل على أدقّ التفاصيل في جميع ما يتعلّق بشؤون الفرد المسلم: سواء منها الشخصية أم الأسرية أم الاجتماعية أم غيرها، من الفترة السابقة لولادته إلى ما بعد موته، حيث تكفّل ببيان ما يجوز للمسلم وما لا يجوز في أكله، وشربه، ولبسه، وسائر أقواله وأفعاله، وبيَّن له حقوقه وواجباته تجاه دينه، ومجتمعه، ووالديه، وزوجته، وأسرته، وأرحامه، وجيرانه، وسائر النّاس، وبيَّن له المعاملات الجائزة، والمعاملات المحرَّمة، في البيع، والشراء، والإجارة، والشركة، والمضاربة، والوديعة، والوكالة، والصلح، والكفالة، والهبة، والضمان، والوصيّة، والمواريث، وأحكام إحياء الأرضين الميتة، وأحكام الطرق والشوارع العامّة، والمياه والأنهار والمعادن وغير ذلك.

ولنأخذ على ذلك مثالاً واحداً لما يجوز أكله وما لا يجوز في حيوانات

(١) الاحتجاج ١/ ١٣٤.

البحر مثلاً، فنقول:

إنّ جميع حيوانات البحر من غير الأسماك محرّمة، فيحرم التمساح، والسلحفاة، والضفدع، والسرطان، وحيّات البحر، وجراد البحر، وخنزير البحر، وفرس الماء، والأخطبوط، والفقمة وغيرها، إلا الإربيان فإنّه يحلّ.

وأمّا الأسماك فكلّها حرام إلا ما له فلس، وهو القشر الذي يكون على جلد السمكة، فيحرم سمك القرش، والدولفين، والحيتان، والكافيار، ونحوها.

ويحرم الميّت الطافي على وجه الماء، وبيض كلّ سمكة تابع لها في الحكم، فإنّ كانت السمكة حلالاً كان بيضها حلالاً، وإلا كان حراماً.

وأمّا الآداب والسُّنن فقد تكفّل الإسلام ببيانها في كلّ الأمور الخاصّة بالمسلم المتعلّقة بالطهارة، والأكل، والشرب، واللباس، والنوم، ودخول بيت الخلاء، والتنظّف، والتطيّب، والزينة، والمشي، والكلام، والجلوس في المجالس، والسلام، ومصافحة الآخرين، والسفر، والسُّكنى، وغير ذلك.

والنتيجة أنّ تعاليم الإسلام في الحقيقة دستور حياة كامل يتبعه المسلم في جميع جوانب حياته بلا استثناء.

وهذا بخلاف الأديان الأخرى بِنُسَخها المعروفة، فإنّها لا تمت لواقع حياة الفرد والمجتمع بأيّ صلة، ومكانها دور العبادة فقط، وفي أيام معيّنة من الأسبوع، ولا تتكفّل بتنظيم حياة الفرد في جميع جوانب حياته، ولا تبيِّن حقوق الفرد والجماعات، وأَتْباع جميع الديانات المعاصرة يعملون بالقوانين المدنية التي وضعها الإنسان في جميع أمورهم، ولا تجد لأديانهم أيّ تأثير مهم في سلوكهم؛ لأنّ أديانهم لم تبيّن لهم شيئاً من ذلك يعتمدون عليه.

٣- أنّ الإسلام فيه ما في الأديان الأخرى وزيادة: فكما أنّ الأديان

الأخرى تحثّ على المحبّة، والسلام، والعدل، ومكارم الأخلاق، وإصلاح النفس، وعدم الاعتداء على الآخرين وسلبهم حقوقهم، ونحو ذلك، فإنّ الإسلام كذلك، لكنّ الإسلام يمتاز على تلك الأديان بأنّه أيضاً ينظم حياة الفرد والأسرة والمجتمع، ويبيّن جميع الحقوق والواجبات، ويعرّف المسلم بما له وما عليه، وهذا ما تفقده الأديان الأخرى المعاصرة التي لم تبيّن شيئاً من ذلك كما بيّنّاه آنفاً، فلذلك كان اتباع الإسلام أولى وألزم.

٤- **أنّ الإسلام دين صالح لجميع العصور**: فإنّا لا نجد في أحكام الإسلام أحكاماً انتهت صلاحيتها، وصارت غير ملائمة لأهل هذا الزمان، حتى صار من الضروري استبدالها بأحكام أخرى، أو تغييرها بنحو ما، كحذف جزء أو شرط أو إضافتهما، رغم أنّ تلك الأحكام كثيرة جدًّا، وشاملة لجميع نواحي الحياة كما بيّناه آنفاً.

كما أنّا لا نجد أنّ أحكام الإسلام ناقصة تحتاج إلى إكمال، فبالرغم من أنّ حياة الإنسان المعاصر قد تطوّرت بشكل كبير جدًّا، والحياة المعاصرة قد تغيّرت بشكل جذري، إلّا أنّ سعة الفقه الإسلامي، وما اشتمل عليه من قواعد فقهية عامّة، جعلت فقهاء الإسلام يستنبطون منها أحكاماً لكلّ الأمور المستحدثة التي لم يُذكر حكمها صراحة في القرآن الكريم أو الروايات والأحاديث الصحيحة.

وهذا بخلاف الأديان الأخرى المعاصرة، فإنّها مضافاً إلى كونها لا تبيّن شيئاً يُذكر من الأحكام الشرعية المرتبطة بنواحي الحياة المختلفة، فإنّها أيضاً لا تواكب الحياة المعاصرة، ولا تنسجم مع متطلّبات العصور، فلا تجد فيها أحكام البنوك المختلفة مثلاً، ولا حكم الاستنساخ، أو التلقيح الصناعي، أو التأمين، أو التشريح، أو منع الحمل بطرقه المختلفة، أو بيع أوراق اليانصيب، وغير ذلك كثير.

٥- أنّ أديان الأنبياء السابقين عليهم السلام منسوخة: والأديان الباقية المنسوبة لبعضهم كاليهودية المنسوبة لموسى عليه السلام، والنصرانية المنسوبة لعيسى عليه السلام وغيرهما قد اعتراها التحريف والتغيير، ولم تبق على ما كانت عليه في زمان الأنبياء الماضين عليهم السلام.

أمّا نَسْخ الأديان السابقة فلأنّه قد ثبت عندنا بالدليل القطعي نبوّة نبيِّنا محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وأنّه خاتم الأنبياء، وأنّ دينه الإسلام خاتم الأديان وناسخها، وهو صلى الله عليه وآله قد أخبرنا عن الله تعالى أنّ دين الله هو الإسلام، وأنّه سبحانه لا يقبل غيره، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ولو كانت اليهودية والنصرانية وغيرهما من الأديان السماوية غير منسوخة ولا محرَّفة لجاز التعبّد بها، ولقبلها الله تعالى ممّن يتديّن بها، أمّا إذا إذا ثبت نسخها أو تحريفها فلا يجوز التعبد بها بحال؛ لأن صلاحيتها كأديان قد انتهت.

ومن أوضح الدلائل على تحريفها أنّ أتباعها حرّفوا التوراة والإنجيل، وأضافوا عليهما ما لم يكن فيهما، مثل عقيدة التثليث عند النّصارى وغيرها.

فقد ورد في الطبعة اليسوعية للكتاب المقدّس، في العهد الجديد، تحت عنوان: مدخل إلى رسائل يوحنّا، ما يلي:

> ولكن هناك فقرة كانت في الماضي موضوع مناظرة مشهورة، ومن الأكيد أنّها غير مثبتة، إنّها جملة معترضة وردت في (٥/ ٦-٨) وهي التي بين قوسين في هذه الجملة: «الذين يشهدون هم ثلاثة (في السماء، وهم: الآب، والكلمة، والرُّوح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون هم ثلاثة في الأرض): الروح والماء والدم، وهؤلاء

الثلاثة هم متّفقون». لم يرد هذا النصّ في المخطوطات في ما قبل القرن الخامس عشر، ولا في الترجمات القديمة، ولا في أحسن أصول الترجمة اللاتينية، والراجح أنّه ليس سوى تعليق، كُتب في الهامش، ثمّ أُقحم في النصّ في أثناء تناقله في الغرب[1].

وسنبيِّن ذلك بالتفصيل في جواب السؤال رقم (٤٥) حول الإنجيل: هل هو من كلام الله أم لا؟ وسنذكر عدّة نماذج من تحريفات الكتاب المقدّس، فانتظر.

مضافاً إلى ذلك فإنّ الأديان المعاصرة ناقصة جدًّا، ومتآكلة بشكل كبير، وهذا يجعلها غير قابلة لأن يُتديَّن بها، ودليل نقصها أنّها لا تشتمل على أحكام شرعية في أكثر جوانب حياة الفرد والمجتمع كما بيَّنّا فيما سبق، وأحكامها قليلة جدًّا لا تفي حتى بجزء يسير من متطلّبات حياة الإنسان المعاصر، ولهذا فإنّ اليهود والنّصارى وغيرهم لا يسيرون طبق منهج إلهي في أكثر شؤون حياتهم، وإنّما يعملون بأحكامهم وأهوائهم وما تشتهيه نفوسهم، من دون أن يكون عندهم أحكام إلهية يسيرون على طبقها، وهذا ما يجعل هذه الأديان غير صالحة لأن تكون منهجاً لحياة الفرد والمجتمع.

وهذا بخلاف الإسلام المتمثّل في مذهب أهل البيت عليهم السلام، فإنّه دين الله الذي أراد الله من الإنسان أن يتعبّد به، حيث رسم للفرد المسلم منهجاً كاملاً يسير عليه في جميع شؤونه.

ولأجل كلّ ما بيّنّاه يتّضح بجلاء أنّ تلك الأديان غير قابلة للقياس مع الإسلام في شيء، وإطلاق الدين عليها إطلاق مسامحي، وإلا فهي نُتَف يسيرة من أديان منسوخة محرَّفة.

---

(١) الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس/ العهد الجديد: ٧٦٤.

هل انتشر الإسلام بالسيف؟

السؤال (٣٨): انتشر الإسلام بالسيف، وكثير من الإرهابيين يدينون بالإسلام، فكيف لنا أن نؤمن بدين يأمر بالقتل؟!

والجواب:

١- أنّ هذه دعوى تحتاج إلى إثبات: فإنّ من يدّعي أنّ الإسلام انتشر بالسيف عليه أن يثبت دعواه بالأدلّة الصحيحة الموثّقة بحوادث تاريخية معلومة الثبوت، وأمّا الدعاوى التي تصدر من أعداء الإسلام كيداً له وإيغالاً منهم في حربهم له فلا قيمة لها، ومن الواضح أنّ هذا المدّعي لا يستطيع إقامة أيّ دليل على ذلك؛ لأنّ هذه الدعوى مهما حاول أعداء الإسلام الترويج لها فإنّها لم يقم على صحّتها أيّ دليل صحيح، بل قام الدليل التامّ على بطلانها، ولهذا فإنّ كلّ من يتّهم الإسلام بذلك لا يقيم على كلامه أيّ دليل، وإنّما يطلق هذه الدعوى من دون إثبات، على أساس أنّها حقيقة مسلَّمة، وإطلاق الدعاوى على الخصوم من دون أيّ إثبات لا قيمة له، ومن السهل اتّهام الديانات الأخرى المعروفة كالنصرانية واليهودية وغيرهما بمثل هذا الاتّهام، ولكنّ المهم هو إقامة الدليل على ذلك.

٢- شهادة التاريخ: فإنّ كلّ باحث منصف مطّلع على تاريخ المسلمين من زمان رسول الله ﷺ إلى وقتنا الحاضر يحصل له الجزم بأنّ الإسلام لم ينتشر بالسيف، وإنّما انتشر بالدعوة إلى الإسلام بالدليل والبرهان.

وكلّ من نظر في سيرة رسول الله ﷺ في الدعوة إلى الله تعالى يجد أنّه امتثل أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ

ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

فإنّ الله تعالى لم يأمر نبيَّه صلى الله عليه وآله بأن يُكره النّاس على اعتناق الإسلام، حيث قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقال عزّ اسمه: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]. وقال عزّ مِنْ قائل: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولهذا آمن بهذه الدعوة كثير من النّاس في مكّة في بدايات الدعوة الإسلامية مع أنّ النبي صلى الله عليه وآله لم تكن عنده قوّة يتمكّن بها من إكراه النّاس على الإسلام.

ثمّ بعد أن قام رؤساء قريش في مكّة بتعذيب المسلمين؛ ليردّوهم إلى عبادة الأصنام، أمرهم النّبي صلى الله عليه وآله بالهجرة إلى المدينة أو إلى الحبشة، واضطرّ النّبي صلى الله عليه وآله إلى الهجرة إلى المدينة المنوّرة لما أرادت قريش اغتياله في بيته، ولما هاجر إلى المدينة وجد فيها أنصاراً كثيرين مؤمنين بدعوته مسبقاً، وهم الذين آووه ونصروه بعد ذلك، فسُمّوا بالأنصار، ورغم أنّ المدينة كانت تضمّ في ذلك الوقت الوثنيّين من عُبّاد الأصنام، واليهود وغيرهم، إلا أنّ النبي صلى الله عليه وآله بعد أن كثر المؤمنون بدعوته، وصارت له قوّة في المدينة، تركهم يمارسون طقوسهم من دون أن يمارس عليهم أيّ ضغوط لإجبارهم على الدخول في الإسلام.

وحال المنتمين للإسلام بعد ذلك حال المنتمين له في أوائله، لا فرق بين الأمرين إلا أنّ الإسلام كان ضعيفاً، ثمّ أصبح قويًّا، وكان قليل الأتباع، فصار كثير الأتباع.

٣- انتشار الإسلام في هذا العصر من دون إكراه: فإنّنا ذكرنا أنّ الإسلام لم ينتشر في العصور السابقة بالسيف، وإنّما انتشر بالدعوة إليه من قبل المسلمين الذين خالطوا غيرهم في تجارتهم وأسفارهم، وأدلّ دليل على صحّة ذلك هو أنّنا إذا نظرنا إلى انتشار الإسلام في عصرنا الحاضر وتوسّعه في جميع بلدان العالم من دون إكراه ولا إجبار، فإنّنا نطمئن بأنّ الإسلام انتشر في العصور السابقة بنفس الأسباب التي انتشر فيها في هذا العصر.

فقد أكّدت كثير من الإحصائيات أنّ الإسلام هو أكثر الأديان انتشاراً في جميع أنحاء العالم، فهو الدين الأوسع انتشاراً في هذا العصر في أوروبا وأمريكا وأستراليا وغيرها، حيث تضاعفت أعداد المسلمين بصورة كبيرة جدًّا في سنين قليلة كما دلّت عليه الإحصائيات الصادرة عن العديد من الدول، حيث ذُكر فيها أنّ أعداد المسلمين في أمريكا الشمالية ازدادت منذ عام ١٩٨٩م بنسبة ٢٥٪، وفي أوروبا بنسبة ١٤٢,٣٥٪، وفي أستراليا بنسبة ٢٥٧,٠١٪.

وورد في إحصائيات أخر أنّ عدد المسلمين في هذا العصر هو ١,٦ مليار مسلم، ونسبتهم من مجموع سكان العالم هي ٢٣٪، ويُتوقع أن يصل عدد المسلمين في سنة ٢٠٣٠م إلى ٢,٢ مليار مسلم، وأنّ عَشراً من الدول الأوروبية سيتجاوز فيها عدد المسلمين ١٠٪ من مجموع سكانها، وهي:

عدد	الدولة	النسبة	عدد	الدولة	النسبة
١-	كوسوفو	٩٣,٥٪	٢-	ألبانيا	٨٣,٢٪
٣-	البوسنة	٤٢,٧٪	٤-	جمهورية مقدونيا	٤٠,٣٪
٥-	الجبل الأسود	٢١,٥٪	٦-	بلغاريا	١٥,٧٪
٧-	روسيا	١٤,٤٪	٨-	جورجيا	١١,٥٪
٩-	فرنسا	١٠,٣٪	١٠-	بلجيكا	١٠,٢٪

وأما كندا فيُتوقّع أن يتضاعف عدد المسلمين فيها ثلاث مرات في سنة ٢٠٣٠م، أي يتضاعف من ٩٤٠٠٠٠ مسلم، إلى ٢,٧ مليون[(١)].

ونشرت جريدة براﭬدا الروسية في شهر يوليو من عام ٢٠٠٨م مقالاً بعنوان: «الإسلام سيكون دين روسيا الأول مع حلول عام ٢٠٥٠»[(٢)].

ومن الواضح جدًّا أنّ المسلمين في كلّ هذه البلاد لا يستطيعون نشر الإسلام بالقوّة أو بالمال، وإنّما تمكّنوا من نشره بالدعوة لا غير.

٤ - علماء ومفكِّرون وسياسيّون أسلموا: فإنّ كثيراً ممّن دخلوا في الإسلام لا يُحتمل في حقّهم أنّهم أسلموا مُكْرَهين؛ لأنّهم كانوا من رجال الدين أو المفكّرين أو العلماء أو رجال السياسة الذين كان لهم نفوذ وقوّة.

وفي موسوعة ويكيبيديا تحت عنوان قائمة بالمتحوّلين للإسلام List of converts to Islam ذُكر عدد كبير من رجال الدين، والمفكرين، والسياسيّين، والعلماء والأطباء وغيرهم ممن اعتنقوا الإسلام.

فمن المختصِّين في علوم الدين:

١- السموأل بن يحيى المغربي: كان اسمه: شموائيل بن يهوذا بن آبونحيث، وصار اسمه بعد تحوّله للإسلام: السموأل بن يحيى بن عباس، وهو معروف باسم السموأل المغربي، (١١٣٠- ١١٨٠م)، وهو عالم في الرياضيات ومهندس وطبيب مسلم، من عائلة يهودية، ووالده حاخام كبير في المغرب، انتقل مع أسرته من فاس إلى بغداد لفترة، ثمّ انتقل لبلاد فارس، اعتنق الإسلام سنة ١١٦٣. من مؤلّفاته: بذل المجهود في إفحام اليهود، وهو أشهر مؤلّفاته، والباهر في الرياضيات، وإعجاز المهندسين، والموجز في الحساب، وكتاب في

(١) http://www.pewforum.org/2011/01/27/the-future-of-the-global-muslim-population/.

(٢) http://english.pravda.ru/russia/history/105837-russia-islam-0.

المياه، وغاية المقصود في الرَّدِّ على النّصارى واليهود[١].

٢- **عبد الأحد داود:** وُلد سنة ١٨٦٧ في أروميّة في إيران، ومات ١٩٤٠، اسمه السابق ديفيد بنجامين كلداني David Benjamin Keldani، كان أستاذاً في علم اللاهوت، وقسّيساً لطائفة الكِلدان الكاثوليك، ومطّلعاً على عدّة لغات. وبعد دراسة للكتاب المقدّس يمكن الاطلاع على بعضها في كتابه (محمد في الكتاب المقدّس) اعتنق الإسلام في مدينة اسطنبول[٢].

٣- **القس إبراهيم فيلوبوس:** ماجستير في اللاهوت من جامعة برنستون الأمريكية. من كتبه (محمد في التوراة والإنجيل والقرآن)، و(المسيح إنسان لا إله)، و(الإسلام في الكتب السماوية)، و(اعرف عدوك إسرائيل)، و(الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية)، و(المبشِّرون والمستشرقون في العالم العربي الإسلامي). وقد كان راعياً للكنيسة الإنجيلية، وأستاذاً للاهوت، أسلم على يديه عدد كبير من الناس[٣].

٤- **آرثر ميلاسنتوس:** تَسمّى بعد إسلامه بخالد ميلاسنتوس، حاصل على دكتوراه في اللاهوت، وكان الرجل الثالث في مجمع كنائس قارّة آسيا، أسلم سنة ١٩٨٣م[٤].

٥- **الدكتورة إنجريد ماتسون Ingrid Mattson:** أستاذة الأديان بكلية هارت فورد في ولاية كونيتيكت الأمريكية، وُلدت ونشأت في مدينة أونتاريو الكندية، ودرست الفلسفة في جامعة ووترلو، دخلت ماتسون في الإسلام في آخر سنة من سنوات دراستها الجامعية، وسافرت إلى باكستان عام ١٩٨٧م،

---

(١) موقع ويكيبيديا، مادة: السموأل بن يحيى المغربي.

(٢) المصدر السابق، مادة: عبد الأحد داوود.

(٣) http://www.islam-love.com/ar/topic/97

(٤) موقع ويكيبيديا، مادة: خالد ميلاسنتوس.

حيث عملت متطوِّعة لإغاثة اللاجئين هناك مدّة سنة، وحصلت على الدكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة شيكاغو في عام ١٩٩٩م، واختيرت رئيسة للجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية سنة ٢٠٠٦م[١].

ومن العلماء والمفكّرين الذين اعتنقوا الإسلام:

١- **رينيه غينون** René Guénon: تَسمَّى بعد إسلامه بعبد الواحد يحيى، وُلد لعائلة كاثوليكية سنة ١٨٨٦، وتوفي في القاهرة سنة ١٩٥١، درس الرياضيات والفلسفة، له العديد من الكتب، منها: (زمن الكمية وعلامات العصر)، و(رمزية الصليب)، و(مقدمة لدراسة العقائد الهندوسية)[٢].

٢- **جيفري لانج** Jeffrey Lang: أمريكي من مواليد ٣٠ يناير ١٩٥٤ في مدينة برديجبورت بالولايات المتّحدة، درس في مدرسة كاثوليكية؛ لأنّه كان من عائلة كاثوليكية، وهو بروفيسور في الرياضيات، حصل على شهادة الفلسفة من جامعة باردو سنة ١٩٨١، وكانت الرسالة عن سطح زاريسكي (Zariski surface). أعلن إسلامه في بدايات ١٩٨٠م، ويعمل حالياً في قسم الرياضيات في جامعة كنساس[٣].

٣- **تيموثي وينتر** Timothy Winter: مفكّر بريطاني، وُلد في عام ١٩٦٠. درس في كلية ويسمينيستر، وحصل على درجة الماجستير من جامعة كامبريدج في اللغة العربية في عام ١٩٨٣، ثم توجّه بعدها إلى جامعة الأزهر في مصر، وتخصّص في الدراسات الإسلامية حتى عام ١٩٨٩. تسمَّى بعد إسلامه بعبد الحكيم مراد. حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد. مجال اهتماماته البحثية العلاقات الإسلامية المسيحية، وأخلاق الإسلام. له العديد

---

(١) موقع ويكيبيديا، مادة: انغريد ماتسون. وغيره.

(٢) نفس المصدر، مادة: ريني غينون.

(٣) نفس المصدر، مادة: جيفري لانج.

من المؤلّفات، حيث قام بترجمة أجزاء من كتب الغزالي، مثل: (إحياء علوم الدين)، وكتاب (النفس والروح)، وهو المحرّر العام لمجمع النصوص الإسلامية وسلسلة الغزالي، وهو أيضاً رئيس جمعية أصدقاء البوسنه والهرسك البريطانية. يشارك بانتظام ببرنامج إذاعي في هيئة الإذاعة البريطانية[١].

٤- **جيولا جرمانوس** (١٨٨٤ - ١٩٧٩م) مستشرق مجري، تسمّى بعد إسلامه بعبد الكريم جرمانوس. تعلّم من اللّغات الغربية: اليونانية، واللاتينية، والإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والمجرية، ومن اللّغات الشرقية: الفارسية والأوردية، وأتقن العربية والتركية، وصنَّف كتابًا بالألمانيّة عن الأدب العثماني ١٩٠٦م، وآخر عن تاريخ أصناف الأتراك في القرن السابع عشر، وفي عام ١٩١٢م عاد إلى بودابست، فعُيِّن أستاذًا للّغات العربية والتركية والفارسية، وتاريخ الإسلام وثقافته في المدرسة العليا الشرقية، ثمّ في القسم الشرقي من الجامعة الاقتصادية. دعاه الشاعر الهندي (طاغور) إلى الهند ليعمل أستاذًا للتاريخ الإسلامي، فدرَّسه في جامعات: دلهي، ولاهور، وحيدر آباد (١٩٢٩-١٩٣٢م)، وهناك أشهر إسلامه في مسجد دلهي الأكبر، وألقى خطبة الجمعة، وتَسَمَّى بـ (عبد الكريم)، وقدم القاهرة وتعمَّق في دراسة الإسلام على شيوخ الأزهر، ثمّ قصد مكّة حاجًّا، وزار مسجد الرسول ﷺ، وصنّف في حجّته كتابه: (الله أكبر)، وقد نُشِر في عدّة لغات ١٩٤٠م، وقام بتحرِّيات علميّة (١٩٣٩-١٩٤١م) في القاهرة والسعوديّة، نشر نتائجها في مجلَّدين: (شوامخ الأدب العربي) ١٩٥٢م، و(دراسات في التركيبات اللّغوية العربية) ١٩٥٤م. وفي ربيع عام ١٩٥٥م عاد فقضى بضعة أشهر في القاهرة والإسكندريّة ودمشق بدعوة من الحكومة؛ ليحاضر بالعربيّة عن الفكر العربيّ المعاصر. عُيِّن أستاذاً ورئيساً للقسم العربي في جامعة بودابست ١٩٤٨م، وظلّ يقوم فيه بتدريس

(١) موقع ويكيبيديا، مادة: عبد الحكيم مراد.

اللّغة العربية، وتاريخ الحضارة الإسلامية، والأدب العربي قديمه وحديثه، حتّى أُحيل إلى التقاعد ١٩٦٥م. توفي في ٧ نوفمبر ١٩٧٩م، وقد بلغ عامه السادس والتسعين، ودُفِنَ حسب الشعائر الإسلامية في مقبرة من مقابر بودابست[١].

٥- **أبو بكر غاليغو Abu Bakr Gallego** : اسمه الأصلي خوسيه جافيير غاليغو José Javier Gallego، مؤلّف ومفكّر أسباني، وُلد في مدينة سرقسطة في أسبانيا عام ١٩٥٥، درس في كلية الجغرافيا، ثمّ في كلية التاريخ في جامعة سرقسطة، ثم غادر بلاده إلى باريس، فدرس الأدب في السوربون، والفلسفة في فنسن، ثمّ بدأ سلسلة أسفار، فطاف أرجاء أوروبا وأمريكا، وفي عام ١٩٨٢ عاد إلى إسبانيا حيث بدأ عمله كأستاذ للّغات بعد أن استقرّ وشكّل أسرة صغيرة.

وبعد رحلة بحث طويلة ومضنية تعرّف على الإسلام، وتحول إليه سنة ١٩٩٥، وتَسمَّى بـ«أبو بكر»، ثمّ انتقل إلى إسطنبول وعاش فيها، وهناك أصدر مجلّة فكرية إسلامية بالإسبانية باسم سكانداتي Skandati، ثمّ توقّف عنها. وبدأ بكتابة كتابه الإنكليزي: (قبل أن تُطوى الشمس) Before The Sun is Folded up، بالإضافة إلى أعمال أخرى بالإسبانية في الأدب والفلسفة والإسلام، سافر إلى دمشق عام ٢٠٠٠، وسكن فيها، وعمل مديراً لقسم اللغة الإسبانية بمعهد الفتح الإسلامي، ومستشاراً ثقافيًّا في المعهد الإسباني ثربانتس.

صدر له بالعربية حتى الآن: رحلة إلى نور المعرفة: شهادات سبعة غربيين اعتنقوا الإسلام ديناً. مذكرات بحار: قراءة في ثنائيات معاصرة. بني المجتمع الغربي على ثلاثة: الملحمة والاستعراض والمخدّرات[٢].

---

(١) موقع ويكيبيديا، مادة: عبد الكريم جرمانوس.

(٢) موقع ويكيبيديا، مادة: أبو بكر غاييغو.

٦- **محمد أسد** (ليوبولد فايس سابقاً)، ولد في الإمبراطورية النمساوية الهنجارية عام ١٩٠٠م، وتوفي في أسبانيا عام ١٩٩٢م، وهو كاتب وصحفي ومفكّر ولغوي وناقد اجتماعي مسلم، وكان قبل إسلامه يهوديًّا، درس الفلسفة في جامعة ڤيينا؛ وعمل مراسلاً صحفيًّا، وبعد استقلال الباكستان عن الهند سنة ١٩٤٧م مُنح الجنسية الباكستانية، فتولّى عدّة مناصب، منها منصب مبعوث باكستان إلى الأمم المتّحدة في نيويورك، وعمل رئيساً لمعهد الدراسات الإسلامية في لاهور، ثمّ طاف العالم، واستقرّ في إسبانيا، وتوفّي فيها، ودُفن في غرناطة، ويعتبر محمد أسد أحد أشهر مسلمي أوروبّا في القرن العشرين.

من مؤلّفاته: (منهاج الإسلام في الحكم)، و(الإسلام على مفترق الطرق)، و(الطريق إلى الإسلام)، و(رسالة القرآن)، و(الطريق إلى مكة)، وترجمة وتعليقات على صحيح البخاري[1].

٧- **مارتن لنجز** Martin Lings (١٩٠٩-٢٠٠٥م): مفكّر وأديب إنجليزي، وُلد في لانكشير بإنجلترا في كانون الثاني ١٩٠٩م، وأمضى طفولته الباكرة في أمريكا حيث كان يعمل والده، وكان يدين بالنصرانية شأن أسرته التي لا تعرف عن الدين شيئًا إلا أنّها نصرانية بالوراثة.

وبعد عودته إلى وطنه التحق بكلية كلينتون، ثمّ انتقل منها إلى اكسفورد لدراسة اللغة والأدب الإنجليزي، فحصل على شهادة الـ A-B في الآداب الإنجليزية، وفي عام ١٩٤٠م سافر إلى مصر لدراسة الإسلام واللغة العربية، وفي تلك الأثناء اعتنق الإسلام، وغيَّر اسمه إلى «أبو بكر سراج الدين»، وبعد قيام الثورة في مصر سنة ١٩٥٢م رجع إلى إنجلترا، وهناك أكمل دراسته للعربية في المدرسة الخاصّة بالدراسات الشرقية والأفريقية بلندن، وفي عام ١٩٥٥م

---

(١) نفس المصدر، مادة: محمد أسد.

عمل لينجز بالمتحف البريطاني في قسم المخطوطات الشرقية، وصدر له كتابان عن المخطوطات العربية، تمّ وضعهما في المتحف البريطاني عام ١٩٥٩م، والمكتبة البريطانية عام ١٩٧٦م.

وفي عام ١٩٦٢م حصل على الدكتوراه على كتابه الذي نشره بعنوان (وليٌّ صوفي من القرن العشرين).

من مؤلّفاته: كتاب (محمد رسول الله وحياته اعتمادًا على أقدم المراجع)، وذلك عام ١٩٧٣م، ونال عنه جائزة الرئيس الباكستاني.

توفي في مايو ٢٠٠٥م، بعد احتفاله بمولده السادس والتسعين[(١)].

٨- **روجر جارودي أو روجيه جارودي Roger Garaudy**: هو فيلسوف وكاتب فرنسي، وُلد في مرسيليا بفرنسا في ١٧ يونيو ١٩١٣م، من أمّ كاثوليكية وأب ملحد، واعتنق البروتستانتية وهو في سنّ الرابعة عشرة. درس في كلّ من جامعة مرسيليا وجامعة إيكس أون بروفانس، وانضمّ إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، وفي عام ١٩٣٧ عُيِّن أستاذاً للفلسفة في مدرسة الليسيه من ألبي، وفي عام ١٩٤٥ انتُخب نائباً في البرلمان، وصدر أوّل مؤلّفاته عام ١٩٤٦. حصل جارودي على درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٩٥٣ من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، ثمّ حصل على درجة الدكتوراه الثانية عن الحرّية عام ١٩٥٤ من جامعة موسكو. طُرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة ١٩٧٠م؛ وذلك لانتقاداته المستمرّة للاتحاد السوفياتي، وفي ٢ يوليو ١٩٨٢ أشهر جارودي إسلامه، في المركز الإسلامي في جنيف، وكتب بالمناسبة كتابيه (وعود الإسلام) Promesses de l'Islam، و(الإسلام يسكن مستقبلنا) L'Islam habite notre avenir، فعرفه الجمهور العربي والإسلامي

---

(١) http://islamonline.net/2690

لأوّل مرّة بهذه المناسبة، وسطع نجمه في المؤتمرات والندوات وضيفاً في المنتديات. نال جائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٨٥ عن خدمة الإسلام؛ وذلك عن كتابيه (وعود الإسلام) و (الإسلام يسكن مستقبلنا)؛ ولدفاعه عن القضية الفلسطينية. له كثير من المؤلّفات، منها: الإسلام دين المستقبل، المسجد مرآة الإسلام، الإسلام وأزمة الغرب، حوار الحضارات، كيف أصبح الإنسان إنسانيًّا، وغيرها. توفّي في فرنسا في ١٣ يونيو ٢٠١٢، وله من العمر ٩٨ عاماً[١].

ومن السياسيّين الذين اعتنقوا الإسلام:

١- **كيث إليسون Keith Ellison**: وُلد في ٤ أغسطس ١٩٦٣م في ديترويت، وهو محامٍ أمريكي، اعتنق الإسلام وهو في سن التاسعة عشرة، وهو أوّل نائب ديمقراطي مسلم في الكونغرس الأمريكي عن ولاية مينيسوتا، حيث فاز بعضوية المجلس في انتخابات شهر نوفمبر ٢٠٠٦م[٢].

٢- **أرنود فان دورن Arnoud Van Doorn**: من مواليد ١٩٦٧م، في مدينة لاهاي بهولندا، سياسي، نائب رئيس الحزب الهولندي الحاكم السابق، وهو حزب من أجل الحرية (PVV) أكثر الأحزاب اليمينية تطرّفاً وتشدّداً ضدّ الإسلام والمسلمين، الذي أنتج فيلم (فتنة) المسيء للنبي ﷺ، اعتنق الإسلام مطلع ٢٠١٣م، حالياً هو عضو المجلس البلدي في لاهاي، ورئيس مجلس إدارة حزب الوحدة، وهو حزب مبني على مبادئ إسلامية، وسفير علاقات المشاهير في جمعية الدعوة الإسلامية الكندية في أوروبا[٣].

٣- **دانيال سترايش Daniel Streich**: سياسي سويسري، مدرّس للعلوم العسكرية، وعضو سابق في حزب الشعب السويسري SVP الذي كان السبب

---

(١) موقع ويكيبيديا، مادة: روجيه غارودي.

(٢) نفس المصدر، مادة: كيث إليسون.

(٣) نفس المصدر، مادة: أرنود فان دورن.

في منع بناء المآذن في سويسرا، وهو مسيحي سابق، تحوّل إلى الإسلام في نوفمبر ٢٠٠٥[١].

٤- **عمر بونجو أوندمبا:** كان اسمه ألبرت بيرنارد بونجو، وُلد سنة ١٩٣٥، وتوفي في ٢٠٠٩، ويعتبر من أقدم الحكّام في السلطة في العالم، حيث تولّى السلطة في الغابون من ٢ ديسمبر عام ١٩٦٧ حتى وفاته في ٨ يونيو ٢٠٠٩. كان مسيحيًّا ثمّ اعتنق الإسلام في عام ١٩٧٣، وغيَّر اسمه الأول إلى عمر، وهو رئيس الحزب الديموقراطي الجابوني، أُعيد انتخابه في انتخابات رئاسية متعدّدة الأحزاب أعوام ٩٣ و ٩٨ و٢٠٠٥م[٢].

٥- **الدكتور روبرت كرين Dr. Robert Dickson Crane:** مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون، ويعتبر أحد كبار الخبراء السياسيّين في أمريكا، ومؤسِّس مركز الحضارة والتجديد في أمريكا. يتقن ست لغات حيّة. في عام ١٩٥٩م حصل على شهادة الدكتوراه في القانون العامّ، وبعد حصوله على شهادة الماجستير في الأنظمة القانونية المقارنة من جامعة هارفارد، أسّس صحيفة هارفارد للقانون الدولي، وتسلّم منصب الرئيس الأول لجمعية هارفارد للقانون الدولي، وعمل لمدّة عقد من الزمن في المراكز الاستشارية لصُنّاع السياسة في واشنطن، وفي عام ١٩٦١م شارك في تأسيس مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية، وفي عام ١٩٦٣م وحتى عام ١٩٦٨م كان أكبر مستشاري الرئيس الأسبق ريتشارد نيكسون في السياسة الخارجيّة، وفي عام ١٩٦٩م عيَّنه نيكسون نائباً لمدير مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض، وفي عام ١٩٨٠م أعلن إسلامه، وأطلق على نفسه اسم: فاروق عبد الحق، وفي عام ١٩٨١م عيّنه رونالد ريغان سفيراً للولايات المتّحدة في دولة الإمارات

(١) نفس المصدر، مادة: دانيال شترايش.

(٢) نفس المصدر، مادة: عمر بونغو.

العربية المتّحدة(١).

٦- مراد ويلفريد هوفمان Murad Wilfried Hofmann: مفكّر ألماني مسلم، كاثوليكي المولد، وُلد سنة ١٩٣١ في بلدة أشافنبورغ بألمانيا، دبلوماسي ومؤلّف بارز. بدأ بدراسة القانون بعد حصوله على شهادة البكالوريس في ميونخ، وتخرّج من هارفارد، وحصل بعدها على الدكتوراه في القانون. عمل منذ الخمسينات في سفارة ألمانيا الإتحادية في الجزائر. له العديد من الكتب التي تتناول مستقبل الإسلام في إطار الحضارة الغربية وأوروبا. في عام ١٩٨٠ أعلن إسلامه. عمل خبيراً في مجال الدّفاع النّووي في وزارة الخارجية الألمانية، وكان إسلامه موضع جدل بسبب منصبه الرّفيع في الحكومة الألمانية. عمل مديراً لقسم المعلومات في حلف الناتو في بروكسل من عام ١٩٨٣ حتى ١٩٨٧، ثم سفيراً لألمانيا في الجزائر من ١٩٨٧ حتى ١٩٩٠، ثم سفيراً في المغرب من ١٩٩٠ حتى ١٩٩٤م. من مؤلّفاته: الإسلام كبديل، وكتاب الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود، وكتاب رحلة إلى مكة(٢).

وأكثر هؤلاء كان لهم دور بارز في نشر الإسلام في بلادهم وغيرها.

وقد ذكر مارتن لنجز Martin Lings أنّ رينيه غينو René Guénon (عبد الواحد يحيى) كان له تأثير حاسم على فكره، حيث قال:

> إنّ ما أثّر عليَّ وجعلني أهتم بالإسلام، هو كتب مؤلِّف كبير كان مثلي اعتنق الإسلام، وأصبح من قمم المتصوّفة، إنّه الشيخ (عبد الواحد يحيى)، لقد تأثّرت بكتبه التي صنّفها عن الإسلام، حتى إنّني لم أقرأ كتبًا من قبل في مثل عظمة كُتُبِه؛ ممّا دفعني لأن أسعى لمقابلة مَن كان سببًا في إسلامي، فجئت إلى مصر حيث كان يعيش فيها وقتئذ.

---

(١) نفس المصدر، مادة: روبرت كرين.

(٢) نفس المصدر، مادة: مراد هوفمان.

ثمّ يضيف فيقول: لقد استفدت منه كثيراً، فقد كان بحق عالماً عاملاً بعلمه، وأكثر ما تعلّمته منه الزهد في الدنيا، وهو ما تسمّونه أنتم (التصوّف)(١).

٦- **وجود أجيال من اليهود والنّصارى في بلاد المسلمين**: فإنّ كثيراً من البلاد العربية والإسلامية التي كانت حكوماتها مسلمة عبر قرون متمادية كان يعيش فيها يهود ونصارى وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى ولا يزالون، مثل مصر والعراق وبلاد الشام والمغرب وغيرها، وبقي هؤلاء على أديانهم جيلاً بعد جيل، ولم تعمل أيّ حكومة من الحكومات المتعاقبة على حكم تلك البلاد على إكراه أولئك اليهود والنّصارى وغيرهم على الدخول في الإسلام.

وهذا أوضح دليل على أنّ الحكومات المسلمة لم تعمل على نشر الإسلام في البلاد الأخرى التي لا تدين بالإسلام بالسيف والقوّة؛ لأنّ نشر الإسلام بالقوّة لو كان من ضمن أولويّاتها لأجبرت اليهود والنّصارى وغيرهم ممّن كانوا تحت سلطتها على الدخول في الإسلام، وحيث إنّها لم تفعل ذلك فإنّ ذلك يكشف عن أنّ تلك الحكومات المتعاقبة لم تكن تتّخذ أسلوب القهر والسيف وسيلة لتحقيق ذلك.

٧- **انتشار الإسلام في بلاد لم تكن تحت سلطة المسلمين**: فإنّ بلاداً كثيرة تحوّل أكثر سكّانها إلى مسلمين، أو صار فيها ملايين المسلمين، مع أنّ جيوش مسلمة لم تصل إليها، حتى يمكن احتمال أنّ أهلها دخلوا في الإسلام بالسيف، مثل إندونيسيا التي هي أكثر دولة تحتوي على مسلمين، حيث يبلغ عدد سكانها ٢٣٨ مليون نسمة(٢).

وكذلك ماليزيا التي غالبيتها مسلمة، إذ تبلغ نسبة المسلمين فيها حوالي ٦٠٪ ، ويصل عدد سكانها إلى ٣٥٣, ٠٧٣, ٣٠ شخصاً حسب إحصائية سنة

---

(١) http://investigate-islam.com/al5las/showthread.php?t=2996

(٢) راجع ويكيبيديا، مادة (إندونيسيا).

٢٠١٠م[١].

ولا يُحتمل أنّ ازدياد عدد المسلمين في هاتين الدولتين إنّما كان بسبب هجرة المسلمين إليهما وتكاثرهم فيهما؛ لأنّ هجرة المسلمين إلى هاتين الدولتين كانت قليلة جدًّا، ومن غير المعقول أن يكون تكاثُر هذا العدد القليل من المهاجرين سبباً لجعل غالبية السكّان مسلمين.

٨- **مميّزات الإسلام على سائر الأديان:** فإنّ من أسباب انتشار الإسلام هو أنّ الإسلام اتّصف بعدّة مميِّزات لم تتّصف بها سائر الأديان الأخرى المعروفة.

منها: أنّ الإسلام منهج حياة متكامل: فإنّ تعاليم الإسلام قد تكفّلت ببيان الأحكام الشرعية المرتبطة بجميع جوانب حياة الفرد المسلم، وبيان ما له من حقوق وما عليه من واجبات، وتفصيل ما يصحّ من جميع المعاملات وما لا يصحّ، وبيان أحكام الأمور العامّة كأحكام إحياء الأرضين الميّتة، وأحكام الطرق والشوارع العامّة، والمياه والأنهار والمعادن وغير ذلك.

وهذه الميزة لا نجدها في جميع الأديان الأخرى بِنُسَخها الموجودة في عصرنا، فإنّ حدودها لا يتعدّى دور العبادة، ولا يمسّ واقع الحياة من قريب أو بعيد، إلا في أمور قليلة جدًّا، لا تكاد تُذكَر.

ومنها: أنّ الإسلام دين العقل والفِطرة: فإنّ مبادئ الإسلام متوافقة مع العقل من جهة، وغير متنافية مع الفطرة السليمة من جهة أخرى، فلا تجد حكماً من أحكام الإسلام يتنافى مع العقل، أو لا يلتئم مع الفطرة السليمة.

وأمّا الأديان الأخرى بحسب ما هي عليه الآن فإنّ كثيراً من أحكامها يتنافى مع العقل أو الفطرة، ولنأخذ لذلك مثالاً في الديانة النصرانية، فإنّها تحرّم

(١) راجع ويكيبيديا، مادة (ماليزيا).

على الرجل أن يطلّق زوجته لأيّ سبب كان، مع أنّه من المعلوم أنّ الزوج والزوجة ربّما تكثر المشاكل بينهما لدرجة أنّهما لا يستطيعان أن يستمرّا معاً في حياتهما الزوجيّة، والديانة المسيحية تحرِّم في الوقت نفسه تعدّد الزوجات، فالرجل لا يستطيع أن يطلّق زوجته، ولا يستطيع أن يتركها ويتزوّج امرأة أخرى غيرها، فيضطر أحدهما إلى قتل الآخر كما صنع بعض حُكّام أوروبا في العصور الوسطى[1]، أو يلجأ إلى تكوين علاقات غير شرعية خارج إطار الزواج.

ومنها: **أنّ الإسلام دين الخلق الرفيع**: فإنّه يدعو المنتمين إليه إلى مكارم الأخلاق وحميد الصفات، وينهى عن رذائل الأخلاق ومساوئ الصفات، ولذلك أوجب على الفرد المسلم أن يكون عادلاً منصفاً حتى مع أعدائه، وأن يقول الحقّ ولو على نفسه، وأن يردّ الأمانة إلى من ائتمنه ولو كان عدوًّا له، وأن يبرَّ والديه وإن كانا كافرين، ويصل أرحامه وإن قطعوه، ويتفقّد جيرانه وإن كانوا من اليهود أو النّصارى.

وحثّ كلّ مسلم على أن يرتقي بنفسه في مدارج الكمال، فيعطي مَنْ حَرَمَه، ويَصِلُ مَنْ قطعه، ويعفو عمّن ظلمه، ويُؤْثر غيره على نفسه وإن كان محتاجاً، وأن يقابل الإساءة بالإحسان، وأن يتصدّق على الفقراء، ويرحم

(١) مثل هنري الثامن ملك بريطانيا الذي اتّهم زوجته آن بولين بالخيانة العظمى؛ لأنّها فشلت في ولادة وريث ذَكَر لعرشه، وبعد أن تعرّضت للإجهاض ثلاث مرات، بدأ هنري في التطلّع إلى الزواج من جين سيمور، وبحلول مارس ١٥٣٦م أمر هنري بالتحقيق مع آن بتهمة الخيانة العظمى. وفي ٢ مايو ١٥٣٦م، أُلقي القبض عليها، وأرسلت إلى برج لندن، حيث جرت محاكمتها، وأدينت في ١٥ مايو، وقطع رأسها في ١٩ مايو. (موسوعة ويكيبيديا، مادة: آن بولين).

راجع ترجمة هنري الثامن لتعرف أن رغبته في فسخ زواجه من كاثرين أراغون، لكي يتزوّج من آن بولين أحدثت أزمة بين كنيسة روما وكنيسة انجلترا، سببت الانفصال بين الكنيستين.

المساكين، ويحنو على الأيتام والضعفاء، وأن يعامل الناس بما يحبّ أن يعاملوه به، وأن يحبّ لهم ما يحبّه لنفسه.

وحرَّم عليه الظلم والبغي والفساد في الأرض، ونهاه عن الكذب، وقول الزور، والغيبة، والنميمة، وأكل أموال الناس بغير حقّ، وقتل النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحقّ، والسرقة، والزنا، وسائر الفواحش، ما ظهر منها وما بطن.

هذه هي تعاليم الإسلام السمحة، وأحكامه هي التي جعلت النّاس يدخلون في الإسلام حتى انتشر في أرجاء المعمورة، فصار المسلمون في البلاد الغربية والأمريكية يُعدّون بالملايين، ومن الواضح جدًّا أنّ جميع هؤلاء لم يسلموا بالسيف ولا بالإرهاب.

وأمّا الإرهابيّون المنتسبون للإسلام فإنّهم بعيدون عن تعاليم الإسلام، ولا يعملون بشيء من أحكامه، وإنّما يتظاهرون بالإسلام الذي هو منهم بريء، فهم إمّا جهّال بالإسلام، لم يفهموا منه إلا اسمه، وإمّا أنّهم عملاء للغرب الذي يسعى لبسط نفوذه في البلاد الإسلامية، وتجنيد الإرهابيين لصالحه، وتزويدهم بالسلاح من أجل زعزعة الأمن في بلاد المسلمين، وإشغال المسلمين فيما بينهم عن عدوّهم اللدود الذي يريد بهم وببلاد المسلمين شرًّا.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦]، فهو أمر من الله تعالى بقتال كفّار قريش وغيرهم من مشركي جزيرة العرب الذين كانوا يحاربون المسلمين ويعادونهم، ويكيدون لهم، ويحيكون المؤامرات ضدّهم، لا الكفّار غير المؤمنين بالدعوة، الذين كانوا لا يحاربون المسلمين ولا يقصدونهم بسوء، والآيات القرآنية الأخرى تبيّن ذلك بوضوح، فإنّه سبحانه أمر بقتال الذين يقاتلون المسلمين، فقال عزَّ شأنه: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[البقرة: ١٩٠]، وهؤلاء الكفّار هم الذين كانوا يسكنون

مكّة، وقد أشار إليهم في بعض الآيات بأنّهم يسكنون البلاد التي تلي بلاد المسلمين، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وهؤلاء المشركون إن كفّوا شرّهم عن رسول الله ﷺ، وأرادوا مسالمته، فإنّ الله تعالى أمره بإيقاف الحرب وقبول الصلح معهم ومسالمتهم.

قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وأمّا الكفّار الذين لم يقاتلوا المسلمين، ولم يظاهروا عليهم، فلا سبيل للمسلمين عليهم، قال سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٠].

بل إنّ هؤلاء لا محذور على المسلمين في برّهم والإحسان إليهم. قال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ – ٩].

وأمّا الحديث المرويّ عن النبي ﷺ أنّه قال: أُمرتُ أن أقاتل النّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّ الإسلام، وحسابهم على الله[(١)].

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٢. صحيح مسلم ١/ ٥٢، ٥٣.

فإنّه على فرض صحّته وتسليم صدوره عن رسول الله ﷺ فالمراد به أنّ الله تعالى أمره بقتال المشركين الذين كانوا يحاربونه، ويعادونه، ويكيدون له، إلى أن يدخلوا في الإسلام، ويؤدّوا شعائر الإسلام، فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقّ.

ويدلّ على ما قلناه أنّ قوله: «أقاتل» فيه معنى المشاركة، أي أنّ المقاتلة تتحقّق بطرفين، كلٌّ منهما يقاتل الآخر، فيكون معنى الحديث: أنّي أُمِرْتُ أن أقاتل من يقاتلني، والنبي ﷺ لم يقل: «أُمِرْتُ أنْ أَقْتُلَ النّاس»، الذي معناه أنّ القتل يصدر عن طرفه ﷺ فقط.

الإسلام والتطوّر

السؤال (٣٩): الإسلام يدعو إلى التديّن والتبحّر في الدين، ولو التفت الإنسان إلى ذلك لم يتمكّن من تطوير البلاد، والخوض في مجالات الطبّ والهندسة وعلوم الصناعة والطيران! فهل يريد الإسلام من الإنسان أن يكون متخلِّفاً غير مواكب لتطور العصر؟

والجواب:

١- أنّ الإسلام دين الاعتدال: فإنّه يدعو الإنسان إلى الاعتدال في جميع الأمور، ولا يأمره بأن يولي أمور دينه كلّ اهتماماته بحيث يغفل عن أمور دنياه، ويقصّر في طلب معيشته، فكما أنّ التديُّن والاستقامة مطلوبان منه لتنمية جانبه الروحي والسلوكي والأخلاقي والاجتماعي، فكذلك الاهتمام بشؤون حياته مطلوب أيضاً؛ لكي يحيا حياة كريمة، ولكي يعينه ذلك على أمور دينه، ومصائب دهره، ولا يجوز للمسلم أن يجعل أحد هذين الجانبين يطغى على الجانب الآخر.

وهذا المعنى ذكره الله تعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧].

ومدح الذين يوفّقون بين الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وفي الحديث المروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قال: رضوان الله والجنّة في الآخرة،

والمعاش وحسن الخلق في الدنيا(١).

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: ليس منّا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه(٢).

وعن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً(٣).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سلوا الله الغنى في الدنيا والعافية، وفي الآخرة المغفرة والجنّة(٤).

وعنه عليه السلام قال: لا خير فيمن لا يحبّ جمع المال من حلال، يكفُّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويَصِلُ به رَحِمه(٥).

وعن ابن أبي يعفور قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: والله إنّا لنطلب الدنيا، ونحبّ أن نؤتاها. فقال: تحبّ أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأَصِلُ بها، وأتصدَّق بها، وأحجُّ وأعتمر. فقال أبو عبد الله عليه السلام: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة(٦).

٢- **لا تنافي بين الدين واكتساب العلوم**: فإنّ التديّن والاستقامة بالنّحو الذي بيّنّاه لا يتنافى مع العمل على تطوير البلاد في مجالات الطبّ والهندسة والكيمياء والفيزياء والصناعة والطيران والفضاء وغيرها، فإنّ الإسلام يحثّ على ذلك، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة.

---

(١) الكافي ٥/ ٧١. تهذيب الأحكام ٦/ ٣٢٧. من لا يحضره الفقيه ٣/ ١٥٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه ٣/ ١٥٦.

(٣) نفس المصدر.

(٤) الكافي ٥/ ٧١.

(٥) نفس المصدر ٥/ ٧٢.

(٦) نفس المصدر.

فمن الآيات التي حثّت على دراسة علم الفلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ لقمان: ٢٩]، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٥]، وقوله: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

ومن الآيات التي أشارت إلى علم الأجنّة قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ [الطارق: ٥-٧]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

ومن الآيات التي أشارت إلى علم النبات قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

ومن الآيات التي أشارت إلى علم الأحياء قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧].

ومن الآيات التي أشارت إلى فضل الصناعة قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقوله: ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧].

ومن الآيات التي حثّت على تصنيع الأسلحة المتطوّرة قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ومن الآيات التي حثّت على دراسة التاريخ وأحوال الأمم السالفة قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والآيات في ذلك كثيرة، لا حاجة لاستقصائها.

قال العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي قدس سره:

يدعو القرآن الكريم في كثير من آياته (لم ننقلها هنا لوفرتها) إلى التفكّر في الآيات السماوية، والنّجوم المضيئة، والاختلافات العجيبة في أوضاعها، والنظام المتقن الذي تسير عليه.

ويدعو إلى التفكّر في خلق الأرض، والبحار، والجبال، والأودية، وما في بطون الأرض من العجائب، واختلاف الليل والنّهار، وتبدّل الفصول السنوية.

ويدعو إلى التفكّر في عجائب النبات، والنّظام الذي يسير عليه، وفي خلق الحيوانات وآثارها، وما يظهر منها في الحياة.

ويدعو إلى التفكّر في خلق الإنسان نفسه، والأسرار المودعة فيه، بل يدعو إلى التفكّر في النفس وأسرارها الباطنية وارتباطها بالملكوت الأعلى، كما يدعو إلى السير في أقطار الأرض والتفكّر في آثار الماضين،

والفحص في أحوال الشعوب والجوامع البشرية، وما كان لهم من القصص والتواريخ والعِبَر.

بهذا الشكل الخاصّ يدعو إلى تعلّم العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية والأدبية وسائر العلوم التي يمكن أن يصل إليها الفكر الإنساني. يحث على تعلّمها لنفع الإنسانية وإسعاد القوافل البشرية.

نعم يدعو القرآن إلى هذه العلوم شريطة أن تكون سبيلاً لمعرفة الحقّ والحقيقة، ومرآة لمعرفة الكون التي في مقدّمتها معرفة الله تعالى.

وأمّا العلم الذي يشغل الإنسان عن الحقّ والحقيقة فهو في قاموس القرآن مرادف للجهل، قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]. وقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

القرآن الكريم بترغيبه إلى تعلّم مختلف العلوم، يعلّم دورة كاملة من المعارف الإلهية وكلّيّات الأخلاق والفقه والفقه الإسلامي [١].

ولما عمل المسلمون السابقون بهذه الآيات ونحوها تقدّموا في مجالات متعدّدة كالطبّ والهندسة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم التي سبقوا بها الغرب بقرون، وبرز من المسلمين علماء كثيرون، منهم: جابر بن حيّان، وابن سينا، والفارابي، وابن الهيثم، وأبو بكر الرازي، ونصير الدين الطوسي وغيرهم.

٣- وجوب تعلّم العلوم كفاية: فقد أفتى فقهاء المسلمين بأنّ كلّ علم لا يستغني عنه النّاس فتعلّمه واجب كفائي، إذا قام به من يُكتفَى به سقط عن الباقين، وكما أنّهم أفتوا بوجوب طلب العلم الديني كفاية، كذلك أفتوا بأنّ طلب هذه العلوم الحديثة التي يحتاج إليها المسلمون واجب كفائي أيضاً.

---

(١) القرآن في الإسلام: ١١٢.

وقد قُسِّم التعلّم تقسيماً جميلاً، مستقىً من فتاوى مراجع الشيعة، وهو:

١ - التعلّم الواجب:

يجب على النّاس وجوباً عينيًّا أو كفائيًّا طلب كلّ علم يُعدّ مقدّمة للبناء المادي أو المعنوي، الدنيوي أو الأخروي، الفردي أو الاجتماعي، وبدونه يتهدّد أساس الحياة المادية والمعنوية للإنسان:

أ : العلوم الواجب طلبها وجوباً عينيًّا.

كلّ علم يُعدّ مقدّمة للبناء الفردي، وبغيره لا يستطيع أفراد المجتمع القيام بواجباتهم الاعتقادية والعملية، فإنّ طلبه واجب على الجميع من منظار الإسلام، كمعرفة العقائد، ومعرفة الواجبات والمحرَّمات، أو القيم وضدّها في الإسلام، فهذه واجبة على أفراد المجتمع كلّهم، وإذا قام بها أحد فلا يسقط التكليف عن الآخرين.

ب : العلوم الواجب طلبها وجوباً كفائيًّا:

كلّ علم [يُعَدُّ] مقدّمة للبناء وتأمين الحاجات الاجتماعية، وبغيره لا يستطيع المجتمع مواصلة حياته، أو أنّه يواجه مشكلة جادّة، أو لا يتمكّن من الدفاع عن نفسه في مقابل الهجوم المحتمل للعدوّ، فإنّ طلبه واجب كفائي على كلّ مستطيع، أي يجب على جميع الذين لديهم الاستعداد لطلب ذلك العلم أن يتعلّموه، ولكن إذا نهض عدد منهم - بحدّ الكفاية - لتعلّمه، سقط التكليف عن الآخرين.

على هذا الأساس، تتباين الاختصاصات التي يكون طلبها واجباً كفائيًّا تبعاً لحاجات المجتمع في أزمنة متفاوتة. مثلاً، عندما لا يحتاج المجتمع الإسلامي إلى علم الذّرّة، فلا وجوب في تحصيله، ولكن إذا احتاج إليه من أجل الدفاع عن نفسه، فطلبه واجب كفائي، حسب الآية الكريمة: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾، وإذا كان عدد المستعدّين لطلبه محدوداً، وعجز الآخرون عن ذلك، فإنّ الوجوب

الكفائي يتبدّل إلى وجوب عينيّ عليهم.

٢ - التعلّم المستحب:

كلّ علم يمثّل مقدّمة لتقوية البنية المادّية أو المعنوية للفرد أو المجتمع، ولكنّ تركه لا يهدّد الحاجات الأساسية للإنسان فتعلّمه ممدوح ومستحب، وإذا تعلّمه المرء بدافع إلهي فهو مثاب ومأجور عند الله تعالى، ويعدّ تعلّم العلوم الخارجة عن الحاجات الضرورية للمجتمع، من مصاديق التعلّم الممدوح.

٣ - التعلّم الحرام:

كلّ علم يبعث على الفساد، ويضرّ الفرد أو المجتمع، فتعلّمه حرام من منظور إسلامي، كالسِّحر، والكهانة، والنّجوم التي كانت شائعة في غابر التاريخ، وكذلك العلوم التي تُستخدم باتّجاه الغزو الثقافي، وفساد الأخلاق في العالم المعاصر، أو علم أسلحة الدمار الشامل، إلا إذا كان للدّفاع أو لأغراض سلمية.

٤ - التعلّم المكروه:

هو تعلّم العلم الذي لا يُعدّ مقدّمة للفساد، ولكن ليس فيه فائدة أيضاً، كعلم الأنساب في الجاهلية، كما أُثِرَ في الأحاديث أنّ «علم النسب علم لا ينفع، وجهالته لا تضرّ». وإذا تمّ تقويم هذه العلوم من حيث هي فتعلّمها مباح. أمّا إذا قُوّمت من حيث إنّها تؤدّي إلى ضياع العمر، وتُبعد الإنسان عن هدف الإنسانية، فتعلّمها لغو ومذموم ومكروه، وعلى المسلم أن يتحاماه وفقاً للآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾.

٥ - التعلّم المباح:

العلوم التي تخدم المجتمع، إذا كان تعلّمها بِنِيّة القُرْبة والخدمة فهو مستحب.

وإذا كان لتمشية أمور المعيشة والمصالح المادّية فهو مباح، باستثناء العلوم الإسلامية، فإنّ الأحاديث شدّدت على ذمّ تعلّمها إذا كان لبواعث غير إلهية[١].

٤- أنّ سبب تأخّر المسلمين هو تركهم العمل بالإسلام: فإنّ هذا التأخّر الذي نراه في بلاد المسلمين في هذا العصر والعصور السابقة ليس بسبب تمسّكهم بالإسلام، وإنّما بسبب تركهم العمل بتعاليم الإسلام، وانشغالهم بالتنازع على السلطة التي صارت أكبر همّهم، حيث تولّى عليهم حُكّام جائرون طواغيت، استطاعوا أن يعبثوا بمقدّرات الأمّة، ويستعبدوا المسلمين طيلة عصور متتابعة، وعملوا على محاربة العلم والعلماء، وقاموا بتقريب العملاء والخونة والنفعيّين، وإبعاد المخلصين، فقادوا الأمّة إلى الجهل والتخلّف والانحطاط، حتى سبقتهم الأمم الأخرى في شتّى المجالات، وصاروا أضحوكة لغيرهم، وألعوبة بيد الدول الاستعمارية القوية.

(١) العلم والحكمة في الكتاب والسنة: ٢٩٩.

نظرية داروين

السؤال (٤٠): لِـمَ لا تؤمنون بنظرية داروين؟ ما الدليل على بطلانها؟

الجواب:

١- أنّ نظرية داروين مختلف في قبولها: فإنّ السائل فرض مسبقاً أنّ المسلمين يرفضون نظرية داروين، ويرون بطلانها، والحال أنّ هذه النظرية هي إحدى نظريات علم الأحياء، وعلماء المسلمين المعاصرين قالوا كلمتهم في هذه النظرية ما بين مؤيِّد لها ومعارض، حالهم حال علماء الغرب في هذه النظرية.

وأمّا علماء الشريعة فليس من دأبهم البحث في نظريات علم الأحياء أو الكيمياء أو الفيزياء أو الذّرّة أو غيرها، وبحوثهم منحصرة في علوم مختصّة بالشريعة وما يرتبط بها، كعلوم اللغة والمنطق والفلسفة ونحوها.

ولأجل ذلك فإنّ عامّة علماء الدين لم يذكروا رأيهم في نظرية داروين، تأييداً أو رفضاً، وإن كان بعض العلماء قد بحث هذه النظرية بإيجاز، مثل الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ في كتابه القيّم: (الإنسان بين الخلق والتطوّر)، حيث تكلّم حول هذه النظرية، وذكر ما فيها من خلل، فمن أراد الاطلاع على ذلك فليراجع كتابه المذكور.

وكذلك الشيخ محمد الرِّضا النجفي الأصفهاني (١٢٨٧-١٣٦٢هـ) في كتابه (نقد فلسفة داروين)، وهو مطبوع.

٢- أنّ نظرية داروين لا تستلزم الإلحاد: فإنّ صاحب هذه النظرية وهو تشارلز روبرت داروين Chales R. Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢م) قام ببحوث متعدّدة في علم الأحياء، وتوصّل إلى أمور مهمّة كان لها دور أساس في تطوير

هذا العلم.

والكلام حول هذه النظرية تارة يكون من جهة أنّها إحدى نظريات علم الأحياء، وأنّها صحيحة على حسب قواعد هذا العلم أم لا؟

وتارة أخرى في أنّ هذه النظرية هل تنفي وجود خالق للكون، أم لا؟

أمّا من الجهة الأولى فهو مجال المتخصّصين في علم الأحياء، ونحن لا شأن لنا بنظريات علم الأحياء عامّة؛ لأنّه خارج عن اختصاصنا، وعلماء الأحياء قالوا ما عندهم في هذه النظرية، والكلام في هذه النظرية لحدّ الآن لم ينته بعد.

وأمّا من الجهة الثانية، فإنّ بعضهم يظنّ أنّ نظرية داروين تستلزم الإلحاد وإنكار الخالق، وهذا غير صحيح؛ لأنّ المنقول عن داروين نفسه أنّه كان يعتقد بوجود الخالق سبحانه، حيث قال:

Reason tells me of the extreme difficulty or rather impssibility of conceiving this immense and wonderful of looking far into futurity, as the result of blind chance or necessity. When thus reflecting I feel compelled to look to a First Cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man; and I deserve to be called a Theist(1).

وترجمة كلامه ما يلي: قانون العِلّيّة يخبرني أنّ من الصعب جدًّا، بل من المستحيل، أن نتصوّر أنّ كوناً ككوننا، وبه مخلوق يتمتّع بقدراتنا الإنسانية الهائلة، قد نشأ في البداية بمحض الصدفة العمياء، أو الحاجة والضرورة، وعندما أبحث حولي عن السبب الأول وراء هذا الوجود، أجدني مدفوعاً إلى القول بمصمّم ذكي، ومن ثمّ فإنّي أؤمن بوجود الإله(٢).

ومن يزعم أنّ نظرية داروين تؤكّد الإلحاد وعدم الاعتقاد بالخالق فهو لم

---

(1) Charles Darwin,The Autobiography of Charles Darwin1809-1882 ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92-3. (عن كتاب كيف بدأ الخلق: ١٧٦)

(٢) كيف بدأ الخلق: ١٧٦ (بتصرّف طفيف منّا).

يفهم النظرية بصورتها الصحيحة، فإنّ داروين إنّما تناول ببحثه عصر ما بعد الخليّة، التي هي أساس الحياة بكلّ صورها، ولم يتناول عصر ما قبل الخليّة، وهو لم يكشف لقُرّائه كيف نشأت الحياة في هذه الخليّة البسيطة، ومن أين اكتسبت سرّ الحياة الذي جعل من المادة الجامدة كائناً حيًّا.

قال الدكتور عمرو شريف:

كان دارون يؤمن أنّ الخليّة الحيّة الأولى وراءها خالق عظيم، ثمّ تولّت الطبيعة تطويرها إلى ما نشهده الآن من مختلف الكائنات. انظر ماذا فعل تلامذة دارون ومريدوه بنظريّته، حتى صيّروه رمزاً للإلحاد[1].

وقال جورج حنّا:

كانت نظرية دارون لقرن مضى موضوعاً للنزاع والمساجلة.. كان الدِّين ينكرها.. وكانت الكنيسة تكفّرها.. باعتبارها إنكاراً لوجود الخالق، غير أنّ النظرية الداروينية لا تنفي وجود الخالق، كما أنّها لا تتعرّض لإثبات وجوده، ما تنكره هذه النظرية كون الإنسان خُلق إنساناً على الشكل الذي هو عليه الآن.. وتقول: إنّ الإنسان صار إلى ما هو عليه الآن عن طريق النّمو والتّحوّل والارتقاء بمقتضى ناموس الاصطفاء النوعي الطبيعي[2].

إلى أن قال:

أمّا دارون فلم يتطرّق إلى السؤال: من أين نشأت الحياة؟ أو كيف نشأت؟ ولم يتعرّض إلى البحث فيما إذا كانت الحياة هي خَلْق من قوّة فوق الطبيعة، أم هي حصيلة تفاعل بين موادّ غير ذات حياة[3].

---

(١) رحلة عقل (عن كتاب كيف بدأ الخلق: ١٦٣).

(٢) قصة الإنسان: ٨.

(٣) نفس المصدر: ٩.

٣- تطوُّر نظرية داروين: فإنّ النظرية التي جاء بها داروين قد تغيّرت تغيُّراً كبيراً، والنظرية التي يقول بها أتباع داروين مغايرة من جهات عديدة للنظرية التي جاء بها داروين نفسه، فإنّ داروين لا يرى أنّ نظريّته تنفي الخالق سبحانه كما مرّ، ولكنّ كثيراً من أتباعه يرون أنّها تتنافى مع وجود الخالق، مضافاً إلى أنّ داروين كان لا يقول بالطفرة، ويذهب إلى أنّ التطوّر قد حصل ببطء شديد جدًّا عبر ملايين السنين، وكلماته الكثيرة تدلّ على ذلك بوضوح شديد.

قال داروين:

> أمّا الأسباب التي حملتني على الشكّ في أنّ الأسباب الطبيعية قد تحوّلت بشكل فجائي... فعائدة إلى أنّ تجاربنا السابقة غالباً ما ساقتنا إلى الاعتقاد بأنّ التحوّل الفجائي ذا الأثر الواضح الجلي، لم ينشأ في الصور المؤلَّفة إلا بشكل فردي، ولم يحدث إلا في خلال فترات متباعدة من الزمان.

وقال أيضاً: أمّا القول بأنّ أنواعاً عديدة قد نشأت وتطوّرت متنقلة في التدرّج بطيئة جهد البطء، فذلك ما لا سبيل إلى التشكيك فيه بحال من الأحوال.

وقال في موضع آخر: إنّ علم النشوء الجنيني ليقوم حائلاً دون الاعتقاد بمثل هذه الطفرة النشوئية.

وصرّح بنفي اعتقاده بالطفرات فقال: إنّ آية الطبيعة الثابتة: أنْ لا طفرة في الطبيعة.

وقال:

> وهكذا فإنّ القانون الذي يقول: «ليس في الطبيعة طفرات»، والذي نحيل كلّ إضافة جديدة إلى معلوماتنا نحو تأكيد صحّته، يصبح على أساس هذه النظرية معقولاً بكلّ بساطة.

وصرّح في مواضع كثيرة من كتابه بأنّ التغييرات تحدث ببطء شديد، فقال: إنّ لدينا من الأسباب ما يجعلنا نعتقد ... أنّ كلّ التغيّرات تحدث في بطء.

وقال في موضع آخر:

> وحيث إنّ الانتخاب الطبيعي لا يعمل فقط إلا بتجميع التغيّرات الطفيفة المتعاقبة النافعة فليس في قدرته أن يُنتج تحوّرات فجائية أو كبيرة، إنّه يعمل بخطوات قصيرة بطيئة[1].

وقال أيضاً:

> الطريقة غير المتوقّعة التي تظهر بها فجأة مجموعات كاملة من الأنواع الحيَّة في بعض التكوينات قد قام جدال عليها بين العديد من الخبراء في علم الإحاثة... على أساس أنّها اعتراض قاتل للإيمان بتحوُّل الأنواع الحيَّة، وإذا كان العديد من الأنواع الحيَّة التابعة لنفس الطبقات أو الفصائل، قد بدأت حقيقة في الدخول إلى الحياة في وقت واحد، فإنّ هذه الحقيقة سوف تكون بمثابة ضربة قاتلة إلى النظرية الخاصّة بالارتقاء من خلال الانتقاء الطبيعي؛ وذلك لأنّ النّشأة بهذه الطريقة لمجموعة من الأشكال الحيَّة جميعها قد انحدر من سلف واحد ما، لا بُدّ من أنّها كانت عملية بطيئة إلى أقصى حدّ، وهذه الأسلاف لا بُدّ من أنّها قد عاشت في وقت طويل قبل ذراريها المعدَّلة[2].

وأمّا الداروينية الحديثة فهي معتمدة على الطفرة العشوائية والانتخاب الطبيعي.

قال الدكتور عمرو شريف:

---

(١) أصل الأنواع: ٤٥٠، ٤٥٢، ٥٠٠، ٦٢٨، ٧٥٠، ٧٥٧، ترجمة إسماعيل مظهر. (عن كتاب الإنسان بين الخلق والتطور: ١٠٥-١٠٦).

(٢) أصل الأنواع: ٥٢٣، ترجمة مجدي محمود المليجي.

قد واجهت النظرية العديد من الاعتراضات التي كادت أن تقضي عليها، وفي محاولات لإنقاذ الداروينية وُضعت العديد من النظريات لتلافي ما وُجّه إليها من نقد، وأصبح يُطلق على هذه النظريات اسم: الداروينية الحديثة[١].

إذا اتّضح ذلك نتساءل، فنقول: أيّ النظريتين يريد منّا السائل أن نؤمن بها، هل النظرية الأصلية لداروين؟ أو الداروينية الحديثة؟

٤ – أنّ نظرية داروين تتكوّن من شِقّين:

الشِّقّ الأول: هو أنّ الكائنات الحيّة تتطوّر وتتغيّر، والتطوّر في نفس النوع الواحد قد أصبح من المتسالم عليه في علم الأحياء في هذا العصر، بل صار حقيقة علمية ثابتة لا نقاش فيها.

وأمّا تطوّر الكائنات الحيّة من نوع إلى نوع آخر مختلف عنه في خصائصه الوراثية فإنّه لم يُتسالم عليه بعد، بل ردّه كثير من علماء الأحياء؛ لأنّ عمر الحياة على الأرض لا يكفي لتطوّر بعض هذه الكائنات إلى كائنات أخرى، فضلاً عن تطوّر الجميع.

مضافاً إلى أنّ العلماء ذكروا أنّ جميع الكائنات الحيّة وُجدت في العصر الكامبري في انفجار مفاجئ لأسلاف الحيوانات المعروفة الآن، والانفجار الكامبري Cambrian explosion ابتدأ من قبل ٥٤١ مليون سنة، واستمرّ مدّة تتراوح بين ٢٠–٢٥ مليون سنة، وهذه الفترة ليست كافية لتطوّر كلّ أنواع الكائنات الحيوانية والنباتية من خليّة واحدة فقط[٢].

---

(١) كيف بدأ الخلق: ١٧٧.

(٢) https://en.wikipedia.org/wiki/Cambrian_explosion

راجع: http://biologos.org/common-questions/scientific-evidence/cambrian- explosion

http://burgess-shale.rom.on.ca/en/science/origin/04-cambrian-explosion.php

والشِّقّ الثاني: هو أنّ الكائنات الحيّة تطوّرت ببطء شديد عبر ملايين السنين، بسبب الانتخاب الطبيعي للأصلح، ولكن هذا الكلام فيه إشكالات عديدة، باعتبار أنّ تحوّل كائن أحادي الخليّة إلى ملايين الأنواع من الحيوان والنبات يحتاج إلى مليارات من السنين، أكثر بكثير من عمر الخليقة المقدَّر بـ ٤,٥ مليار سنة، ولذلك ذهب أتباع داروين بعد ذلك إلى أنّ سبب التطوّر هو الصدفة والطفرات العشوائية، وهذا ممّا لم يُتسالم عليه بعد، ولم يصل بعد لأن يكون حقيقة علمية، بل إنّ كثيراً من علماء الأحياء ينكرونه، فإنّ جملة منهم ذهبوا إلى أنّ سبب تطوّر الكائنات الحيّة هو التطوّر المُوَجَّه من قبل مُصمِّم ذكي، وهو الخالق سبحانه، وأمّا الطفرات العشوائية فكما قال الدكتور عمرو شريف:

ليست إلا «أخطاء تحدث في تتابع الحروف التي تتكوّن منها الشفرة الوراثية DNA، وينبغي لهذا التعديل أن يقع في الخلايا التناسلية (الخلايا التي تنتج الحيوانات المنوية والبويضات)، وليس في أيٍّ من خلايا الجسم الأخرى. ويقدِّر علماء البيولوجيا أن معدّل حدوث الطفرات يبلغ ٤ طفرات في كل ١٠٠,٠٠٠ حيوان منوي أو بويضة، كما يقدّرون أن تكون الطفرات ضارّة، وربّما تكون ذات فائدة في ١٪ من الحالات، فهل يمكن لهذه النسبة الضئيلة جدًّا من الطفرات المفيدة أن توجّه تطوّر الكائنات الحيّة؟ خاصّة إذا أخذنا في الاعتبار أنّ أيّ تعديل في وظيفةٍ ما يحتاج إلى العديد من التغيّرات التي تعمل في تآزر وتوافق.

وإذا كان تطوّر الحصان - كما يخبرنا الداروينيون - قد احتاج إلى ٦٥ مليون سنة، وهو تطوّر في إطار النوع نفسه، أي بقي الحصان حصاناً، ولم يتبدّل إلى نوع آخر، فهل يكفي عمر الحياة على الأرض لكي تتطوّر الأحياء من كائنات ذات خليّة واحدة إلى هذه الملايين من الأنواع المعقّدة والراقية من الحيوانات والنباتات؟ إنّ الأرقام

والحسابات تفضح تماماً وبقطعية رياضية لا تدع مجالاً لأيّ تأويل أو عذر مدى تهافت فرضية التطوّر الدارويني العشوائي، ومدى بُعدها عن الواقع وتعارضها مع العلم.

ويوجّه فرنر آربر Werner Arber نظرنا إلى أنّ التجارب التي قام العلماء فيها بإحداث تغييرات في الشفرة الوراثية لذبابة الفاكهة أنتجت أشكالاً مشوَّهة من الذباب (بعضها بدون أجنحة، وبعضها تخرج أرجله من رأسه)، لا تصلح لأن تكون دليلاً على دور مفيد للطفرات العشوائية، بل تُعتبر هذه التجارب دليلاً على عجز الطفرات؛ إذ لم يحصل العلماء في معاملهم على تغيُّر واحد للأفضل في ٨٠٠ جيل من ذبابة الفاكهة...

ويضيف جيرالد شرويدر Gerald Schroeder في كتابيه الرائعين: (علم الألوهية) و (الوجه الخفي للإله): إنّنا إذا تغاضينا عن كلّ جوانب عجز الطفرات العشوائية عن إحداث تغييرات مفيدة، فسيتبقّى أمام الدراونة عائق كبير لا يمكن التغاضي عنه، هذا العائق هو أنّ الوقت المتاح لظهور هذا التنوّع الهائل في الكائنات الحيّة عشوائيًّا غير كافٍ على الإطلاق، إذ يبيِّن سجل الحفريات أنّ:

- الأربع والثلاثين شعبة من الحيوانات التي تشكّل المملكة الحيوانية ظهرت كلّها في ٥-١٠ ملايين سنة، تمثّل الانفجار الأحيائي الكمبيري.

- الحيوانات المختلفة ظهرت في هذه الفترة مكتملة التصميم، ومحمّلة بشفرات وراثية جديدة، دون احتياج إلى تعديلات أساسية حتّى الآن.

ومن نفس المنطلق (الوقت القصير جدًّا) يرفض بيتر براون Peter Brown (رئيس اتّحاد رؤساء تحرير المجلّات العلمية) أن تكون

الطفرات العشوائية مسؤولة عن حدوث التطوّر»[١].

والحاصل أنّ نظرية داروين لها شِقّان، أحد شقّيها صار من المسلَّمات في علم الأحياء الحديثة، وأمّا الشِّقّ الآخر فإنّ كثيراً من علماء الأحياء ينكرونه، ولا يسلّمون به.

٥- **أنّ كثيراً من المتخصِّصين رفضوا نظرة داروين**: فإنّ علماء غربيّين متخصّصين أنكروا هذه النظرية، وانتقدوها، وبيّنوا ما فيها من الخلل في كتب كتبوها في ذلك، منهم:

١- **ديفيد بيرلينسكي** David Berlinski: وُلد في سنة ١٩٤٢، فيلسوف أمريكي ومدرّس ومؤلّف، عضو في مركز العلوم والثقافة من معهد ديسكفري، وهو من منتقدي نظرية التطوّر، نشر كتابه الشهير (وهم الشيطان) عام ٢٠٠٨م، وله حوارات ينتقد فيها نظرية التطوّر[٢].

٢- **مايكل دنتون** Michael John Denton: وُلد في ١٩٤٣، وهو كاتب بريطاني استرالي، متخصّص في الكيمياء الحيوية، حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء الحيوية في عام ١٩٧٣ من كلية كينجز كوليدج في لندن. أصدر كتابه (التطوّر: نظرية في أزمة) سنة ١٩٨٥، الذي أثار الكثير من الجدل، وقد ذكر فيه أنّ نظرية التطوّر بالاصطفاء الطبيعي نظرية في أزمة علمية حقيقية. وُصف الكتاب من قبل العديد من البيولوجيين بأنّه نقَضَ أركان نظرية التطوّر وهدمها بأسس علمية[٣].

٣- **جوناثان ويلز** Jonathan Wells: من مواليد ١٩٤٢م، حصل على

---

(١) كيف بدأ الخلق: ١٩٣-١٩٥.

(٢) https://en.wikipedia.org/wiki/David_Berlinski.
http://www.discovery.org/p/51

(٣) https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Denton.
http://www.discovery.org/p/521

درجة الدكتوراه في البيولوجيا الجزيئية والخلوية في عام ١٩٩٤. وأصبح عضواً في العديد من الجمعيات العلمية، ونُشرت له مقالات في المجلات الأكاديمية. من كتبه: الكتاب الشهير (أيقونات التطوّر) عام ٢٠٠٢، وأيضاً له كتاب (تصميم الحياة) مشاركة مع ديمبسكي[١].

٤- **وليم ديمبسكي** William Albert "Bill" Dembski: من مواليد ١٩٦٠م، عالم في الرياضيات وفيلسوف أمريكي، ومن دعاة التصميم الذكي والمعارضين بشدّة لنظرية داروين من خلال الانتقاء الطبيعي، وهو صاحب كتاب (تصميم الحياة) مشاركة مع جوناثان ويلز، و(تصميم الاستدلال) ١٩٩٨، و(التصميم الذكي: جسر بين العلم واللاهوت) ١٩٩٩، و(التصميم هو الثورة) ٢٠٠٤، و(التصميم الذكي غير الخاضع للرقابة) ٢٠١٠[٢].

٥- **جورج كوفييه** Georges Cuvier: وُلد في ١٧٦٩م، وهو فرنسي الجنسية، ويُعدّ من أهمّ أقطاب العلم في القرن الثامن عشر، ومن أهمّ من ترأّسوا أكاديمية العلوم، خاض جدلاً عنيفاً مع معاصره جيفري حول نظرية التطوّر والارتقاء، وكان كوفييه من ألدّ أعداء نظريات لامارك في التطوّر، ولم يؤمن بنظرية التطوّر العضوي، ولكنّه آمن بتكرار عملية الخلق بعد الكوارث الطبيعية[٣].

وغير هؤلاء كثير، ويدّعي البعض أنّ القول بالتطوّر يتراجع مع التقدّم العلمي، وأنّ أخطاءه صارت كثيرة جدًّا في السنوات الأخيرة مقارنة بذي قبل،

---

(١) https://en.wikipedia.org/wiki/Jonathan_Wells_(intelligent_design_advocate)
http://www.discovery.org/p/41

(٢) https://en.wikipedia.org/wiki/William_A._Dembski.
http://www.discovery.org/p/32

(٣) https://en.wikipedia.org/wiki/Georges_Cuvier.
http://www.ucmp.berkeley.edu/history/cuvier.html

وأنّ علماء مختصّين بالآلاف يرفضونه، وقد ظهرت أبحاث[(١)] وكتب علمية تكشف عن عدم صحّته، وأنّ داروين كان مخطئاً بخصوص شجرة الحياة، والعلماء يؤكّدون أنّ شجرة التطوّر خاطئة ومضلِّلة، والاعتراضات التاريخية بدأت أشهر خطواتها علناً بقائمة معهد ديسكفري المكوّنة من ١٠٠ عالم ومتخصّص يرفضون الداروينية سنة ٢٠٠١، حيث ذكروا أسماءهم ودرجاتهم العلمية في أمريكا[(٢)]، ثمّ تطوّرت الفكرة لإنشاء موقع متخصّص على الإنترنت لتسجيل هؤلاء المعترضين، سواءً كانوا من أمريكا أم خارجها، حيث يُذكر اسم كلّ عالم ودرجته العلمية، ويُذكر اعتراضه[(٣)]، ولما انتشر الأمر وصل لوسائل الإعلام من كندا قرابة ١٠٠٠ عالم يعارضون الداروينية[(٤)]، ومع مرور الوقت وصل الرافضون للداروينية التطوّرية إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف في أمريكا فقط[(٥)]، وهناك غيرهم لم يتمّ تسجيلهم، والأمر لا يختصّ بعلماء البيولوجيا فقط؛ لأنّ نظرية التطوّر تمسّ علم الإحصاء، والفيزياء، والكيمياء، وغيرها[(٦)].

٦- **نظرية داروين وأصل الإنسان:** فإنّ ملخَّص نظرية داروين كما يستفاد من كلام الدكتور إسماعيل مظهر الذي كان من المناصرين لهذه النظرية، وأوّل من ترجم للعربية كتاب (أصل الأنواع) لداروين، هو أنّ الحياة أوّل ما ظهرت، ظهرت على شكل بروتوبلازم، وهو الأصل الذي تعود إليه كلّ صور الحياة من نبات وحيوان، وهو كائن أحادي الخليّة، وكلّ الأحياء على الإطلاق إمّا أن

---

(١) https://dennisdjones.wordpress.com/2011/02/24/id-peer-reviewed-/research -published-in-science-journals

(٢) http://www.reviewevolution.com/press/pressRelease_100Scientists.php.

(٣) http://www.discovery.org/scripts/viewDB/filesDB-download.php?command =do wnload&id=660.

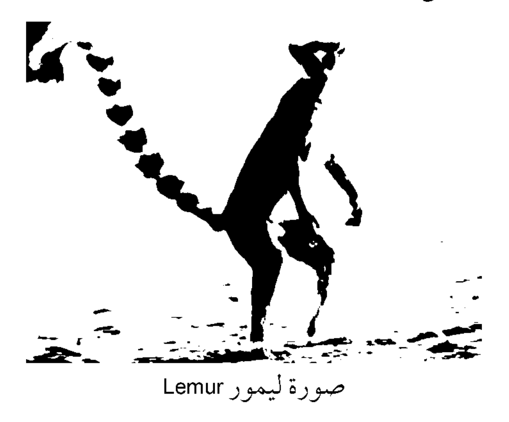
(٤) http://canadafreepress.com/article/almost-a-thousand-major-scientists-dissent-from-darwin.

(٥) http://www.rae.org/pdf/darwinskeptics.pdf .

(٦) موسوعة ويكيبيديا، مادة: نقد التطور.

تتألّف من خليّة واحدة أو خلايا متعدّدة. ثمّ ظهرت ذوات الخلايا التي تطوّرت إلى الديدان، التي نشأت منها الرخويات كالمحار والحلازين والحبارات من الأسماك، ثمّ ظهرت الشوكيات كنجوم البحر وقنافذ البحر، ثمّ القشريات كالسراطين والإربيان، ثمّ بعد ذلك ظهرت الحشرات، ثمّ ظهرت صور جديدة من الحيوان لها حبل متين يمتد طول الجسم، وهذا أوّل مدرج من مدارج التطوّر نحو الفقار المؤلَّف من أجزاء عظمية، كلٌّ منها يسمّى فقارة، وظهرت الأسماك ذوات الهياكل العظمية الصلبة، ثمّ ظهرت أسماك متطوّرة، ثمّ نشأت البرمائيات كالضفادع، ومنها نشأت الزواحف كالعضايا والتماسيح والحيّات، ومن الزواحف نشأت الطيور، ثمّ نشأت الثدييات التي تضع بيضاً كالزواحف والطيور، ثمّ تطورت إلى ما أسماه الجلبانيات وهي الحيوانات ذوات الكيس كالكنغر، وهذه تطوّرت إلى ما أسماه الصعابير أو الليامير Lemurs، وهي نوع من القرود، ومنها نشأت القردة التي لا ذيل لها، والسعادين التي لها ذيول، ومن الليامير نشأ الإنسان[١].

وهذا كلام غريب جدًّا، يبيِّن أن ما فهمه الدكتور إسماعيل مظهر من كلام داوين، هو أن أصل الإنسان قرد.



صورة ليمور Lemur

---

(١) أصل الأنواع ١/ ٣٩-٤٤.

ولا شكّ في أنّ داروين لم يصرّح بأنّ أصل الإنسان قرد، وإنّما ذكر أنّ الإنسان والقرد لهما أصل مشترك، إلا أنّ كلام الدكتور إسماعيل مظهر الذي لخّصناه آنفاً صريح في أنّه فهم أنّ داروين كان يرى أنّ الإنسان تطوّر من الليمور، ولكنّه ذكر أنّ العلماء لم يتبيّن لهم نوع الشعبة التي انحدر منها الإنسان من بين الشُّعَب العديدة التي تطوّر إليها الليمور.

قال الدكتور إسماعيل مظهر:

أمّا من أيّة من الشُّعَب العديدة التي تحوّلت عن الصعابير قد نشأ الإنسان، فأمر لا يزال محوطاً بكثير من الشكّ عند العلماء، لكنّ الراجح أن سلفاً من الأسلاف البشرية - المشابهة للبشر - قد تطوّرت عنه شُعَب جاء منها الغُرِلّى والمشمزى والأرطان والحبن، ثمّ الإنسان[1].

فإذا صحّ ما كتبه الدكتور إسماعيل مظهر عن نظرية داروين فإنّه يصحّ حينئذ ما هو شائع عند النّاس من أنّ داروين يقول: «إنّ أصل الإنسان قرد»؛ لأنّه إذا كان أصل الإنسان ليموراً، والليمور نوع من القردة، فالنتيجة واضحة، إلا أنّ داروين يظهر أنّه كان يرى أنّ القرود هي التي لا ذيل لها، وأمّا ما له ذيل فلا يسمّى قرداً، وإنّما يسمّى باسم آخر كالشمبانزي، أو غيره.

أو أنّه ربّما كان يعتقد بذلك في دخيلة نفسه إلا أنّه لم يجرؤ على التصريح بذلك خوفاً من هياج الرأي العام عليه، فقال: «إنّ القرد والإنسان يرجعان إلى أصل واحد»، يعني به الليمور، الذي هو في الحقيقة نوع من القرود.

وسواء أكان رأي داروين ما صرّح به داروين نفسه من أنّ الإنسان والقرد يرجعان إلى أصل واحد، أم كان رأيه ما فهمناه من كلام الدكتور إسماعيل مظهر من أنّ الإنسان أصله ليمور، وهو نوع من القرود، فإنّ هذا

(١) أصل الأنواع ١/ ٤٤.

الرأي في النظرية هو الذي أثار جدلاً واسعاً حولها، وجعل كثيراً من الناس يرفضونها جملة وتفصيلاً، ويجعلونها موضعاً للسخرية والتندّر.

والإنصاف يقتضي قبول ما كان صحيحاً من هذه النظرية، وهو أنّ الكائنات الحيّة تتطوّر بنحوٍ من التطوّر، وهو التطوّر الذي يحصل في إطار النوع نفسه، لا النحو الذي ذكره داروين وأتباعه، وهو أنّ جميع الكائنات الحيّة تطوّرت من كائن حيّ أحادي الخليّة.

وأمّا وجود تقارب في الخلقة بين الإنسان والقرد فلا يستلزم انحدارهما من أصل واحد، خصوصاً مع وجود التفاوت الكبير بين هذين النوعين.

ولعلّ سبب هذا التقارب هو أنّ القرد ربّما يكون نسخة مشوّهة (أو ممسوخة) من الإنسان العادي، كما تشير إلى ذلك بعض الآيات القرآنية التي ذكرت أنّ أقواماً من العصاة سخط الله عليهم فمسخهم إلى قردة، حيث قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ٦٥، ٦٦].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[الأعراف: ١٦٥، ١٦٦].

وقال عزّ شأنه: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[المائدة: ٦٠].

وهذه الآيات تصرّح بأنّ بعض العصاة تحوّلوا إلى قرود، لا أنّ القرد تحوّل إلى إنسان، بمعنى أنّ الله تعالى القادر على كلّ شيء قد أحدث تغييراً خاصًّا في أجساد بعض العصاة، فحوّلهم إلى قردة.

وأشارت أحاديث مرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى أنّ أولئك القردة ماتوا بعد ثلاثة أيام، ثمّ إنّ الله تعالى خلق القردة ابتداءً على صور تلك القرود الممسوخة لتكون عبرة للنّاس.

فقد ورد في التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام أنّ الذين مُسخوا قردة بقوا ثلاثة أيام، ثم بعث الله عزّ وجلّ [عليهم] مطراً وريحاً، فجرفهم إلى البحر، وما بقي مَسْخٌ بعد ثلاثة أيام، وإنّما الذين ترون من هذه المصوَّرات بصُوَرها فإنّما هي أشباهها، لا هي بأعيانها ولا من نسلها[(١)].

ومع احتمال صحّة هذا التفسير الديني للتشابه الجيني الموجود بين الإنسان والقرد، فإنّ الباحث لا يستطيع الجزم بأنّ التشابه الجيني بين الإنسان والقرد يدلّ على أنّ أصلهما حيوان آخر انشعب عنه كلّ واحد منهما، خصوصاً أنّ هذه الحلقة لا تزال مفقودة؛ لأنّه لحدّ الآن لم يتمّ العثور على حيوان متوسّط الخِلْقة بين القرد والإنسان يمكن أن يتفرّع عنه كلّ واحد منهما.

بل حتى لو وُجد مستقبلاً في الأحافير بعض المخلوقات المشابهة للإنسان فإنّ ذلك لا يدلّ على أنّ الإنسان تطوّر من تلك المخلوقات؛ لاحتمال صحّة ما ورد في بعض الأحاديث من أنّ الله تعالى خلق في الأرض خلقاً يشبه الإنسان، وهو النسناس، فانقرض، ثمّ خلق الإنسان بعد ذلك، فقد ورد في حديث طويل مرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام وصف بداية ما خلقه الله تعالى من الملائكة والجن والنسناس، حيث قال: ثمّ خلق خلقاً دونهم، لهم أبدان وأرواح بغير أجنحة، يأكلون ويشربون (نسناس) أشباه خلقهم، وليسوا بإنس، وأسكنهم أوساط الأرض على ظهر الأرض مع الجنّ، يقدّسون الله الليل والنهار لا يفترون...[(٢)].

(١) تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ٢٧٠.

(٢) قصص الأنبياء: ٣٦.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

الزابج: ... هي جزيرة في أقصى بلاد الهند وراء بحر هركند في حدود الصين، وقيل: هي بلاد الزنج، وبها سكان شبه الآدميين، إلا أنّ أخلاقهم بالوحش أشبه، وبها نسناس لهم أجنحة كأجنحة الخفافيش، وقد ذكر عنها عجائب دوَّنها الناس في كتبهم...[١].

فإن صحَّ ذلك فلا يمكن أن يُستنتَج من وجود حفريات لمخلوقات شبيهة بالإنسان أنّها مخلوقات تطوَّر الإنسان منها؛ لاحتمال كونها مخلوقات قد خُلقت ابتداءً على صورة مشابهة للإنسان، والله العالم.

---

(١) معجم البلدان ٣/ ١٢٥.

تفضيل الرجل على المرأة في الإسلام

السؤال (٤١): لماذا يفضّل الإسلام الرجل على المرأة في الإرث والقوامة وغيرهما؟ وهل للرجل فضل على المرأة؟

والجواب: أنّ تفضيل الرجل على المرأة يمكن أن يُتصوَّر على أنحاء، هي:

١ - التفضيل بالقرب إلى الله تعالى:

إنّ الله تعالى لم يجعل اختلاف الجنس أو العِرْق أو اللون أو اللغة مِلاكاً للتفضيل بين خلقه، وإنّما جعل التقوى ملاكاً للتفضيل عنده، فمن كان لله أتقى كان عند الله أفضل، وإليه أقرب. قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وممّا هو متسالم عليه عند المسلمين أنّ الله تعالى فضَّل كثيراً من النّساء المؤمنات الصالحات على كثير من الرجال الصالحين وغيرهم، بل إنّ الله تعالى جعل لبعض النساء من الفضل والمقام عنده سبحانه ما لم يجعله لأكثر الرجال، ومن أولئك النّساء: فاطمة الزهراء، وخديجة بنت خويلد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم زوجة فرعون سلام الله عليهن.

والمتأمّل في آيات القرآن الكريم يجد أنّ الله سبحانه ساوى بين الرجال والنّساء في أكثر الأمور:

ومن أهمّها: التسوية في الثّواب على الأعمال الصالحة من دون تمييز. قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [غافر: ٤٠]، وقال في آية أخرى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ

أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

كما أنّه سبحانه ساوى بين الرجال والنساء في العقاب الأخروي، والعقوبات الدنيوية على بعض الآثام والجرائم.

قال تعالى في عقاب المنافقين والمنافقات: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ [التوبة: ٦٨].

وقال سبحانه في حدّ الزاني والزانية: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ ﴾ [النور: ٢].

وقال تعالى في حدّ السرقة: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٨].

٢- التفضيل في المقامات الدينية:

لا شكّ أنّ الله تعالى خلق كلًّا من الرجل والمرأة بصفات خاصّة به تؤهّله للقيام بوظائفه على أكمل وجه، وبنحو لا يتمكّن كلّ واحد منهما من القيام بمهامّ الطرف الآخر.

ولأجل ذلك فإنّ الله تعالى خلق المرأة متّصفة بصفات جسديّة ونفسيّة تؤهّلها للقيام بدور الأمّ في تربية الأولاد وحضانتهم والقيام بشؤونهم.

كما أنّه سبحانه خلق الرجل مؤهَّلاً للقيام بكثير من المهامّ والوظائف التي لا تستطيع المرأة غالباً أن تقوم بأعبائها، ومن ضمنها مهامّ النبوّة أو الإمامة أو المرجعية الدينية، التي تتطلّب روحاً قياديّة ومؤهّلات جسديّة تمكّن صاحبها من القيام بهذا الدور، بخلاف المرأة التي هي بطبيعتها ضعيفة البنية، لا تتمكّن غالباً حتّى من الدفاع عن نفسها، كما تشهد بذلك حوادث الاغتصاب الكثيرة التي تحدث في بلاد كثيرة في هذا العالم.

مضافاً إلى أنّ المرأة تَعْرِض عليها بعض العوارض الجسدية والنفسية التي تمنعها أو تعيقها عن أداء هذه الوظائف بالنّحو المطلوب، كعروض الدورة الشهريّة وحصول الحمل والولادة والرضاع وما شاكل ذلك.

وهذا ما يجعل غالب النساء غير مؤهّلات للقيام ببعض المهام التي يقوم بها الرجال كالنبوّة أو الإمامة أو المرجعية الدينية، ولعلّ هذا هو السبب في إرسال الله تعالى الأنبياء والرُّسُل من الرجال دون النساء؛ ليقوموا بدورهم على الوجه المطلوب منهم، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

ولعلَّ هذا هو السبب أيضاً في أنّ أكثر المناصب السياسية في جميع دول العالم يقوم بها الرجال دون النّساء، ولحدّ الآن لم تتولَّ امرأة رئاسة الولايات المتّحدة الأمريكية، وهي أكثر دولة في عصرنا تنادي بالمساواة ونبذ العنصرية، وكذلك لم تتولَّ امرأة مقام البابوية في الفاتيكان، ولا رئاسة الأمانة العامّة للأمم المتّحدة، وغير هذه المناصب كثير لم تتولَّ المرأة منها شيئاً.

وفي الجانب الآخر نجد أنّ الأعمال الشاقّة التي تتطلّب قوّة جسدية، يتولّاها الرجال أيضاً دون النّساء، كالبناء، والعمل في المناجم، وحفر الآبار، وشقّ الطرق وتعبيدها، وإخماد الحرائق، وغير ذلك.

وهذا في حقيقته يرجع إلى توزيع الاختصاصات بين الرجل والمرأة بحسب المؤهّلات الجسدية والعقلية والنفسية، ولا يرجع بحال من الأحوال إلى تفضيل جنس على جنس.

٣- التفضيل في القوامة:

والمراد بالقوامة: تكليف الرجال بالقيام بتهيئة أمور النّساء المعيشية، وتأديبهنّ إذا احتجن إلى التأديب، وتعليمهنّ الفروض والواجبات والآداب

والسنن إذا احتجن إلى ذلك، وليس المراد بالقوامة تسليط الرجال على النّساء كما تتسلّط الذئاب الضارية على الأغنام الوادعة، ولا تسليط الرجال بالنحو الذي يكون فيه ظلم للنّساء وإجحاف بهن وإهانة لهن؛ لأنّ الله تعالى لا يمكن أن يشرِّع ظلم بعض العباد لبعض.

والله تعالى إنّما جعل القوامة على الأسرة للرجل دون المرأة؛ لكونه أقدر من المرأة على ضبط الأسرة وإدارتها، وأقدر على حمايتها ممّا يعصف بها من خارجها وداخلها، فإنّ الأسرة لا بدّ لها من مدير يديرها، والرجل بمؤهّلاته الجسدية والفكرية والنفسية عادةً ما أقوى على القيام بإدارة الأسرة من المرأة.

مضافاً إلى أنّ الإسلام جعل الرجل مسؤولاً عن نفقات الأسرة بكاملها، ولم يحمّل المرأة شيئاً من أعبائها، والظاهر أنّ الإنفاق المالي أحد أسباب القوامة، كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤].

قال الفاضل الجواد الكاظمي قدس سره:

﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾: قيّمون عليهنّ في التدبير كقيام الولاة على رعيّتهم، وعلَّل تعالى ذلك بأمرين:

موهبي: أشار إليه بقوله: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي بسبب تفضيله ﴿بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي الرجال على النّساء، وذلك بالعلم والعقل وحسن الرأي والتّدبير والعزم ومزيد القوة في الأعمال والطاعات والفروسيّة والرّمي، وأنّ منهم الأنبياء والأئمّة والعلماء، وفيهم الإمامة الكبرى وهي الخلافة، والصغرى وهي الاقتداء بهم في الصلاة، وأنّهم أهل الجهاد والأذان والخطبة، إلى غير ذلك ممّا أوجب الفضل عليهنّ...

وكسبي: أشار إليه بقوله: ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ في

نكاحهنّ، كالمهر والنفقة وجميع ما يحتاجون إليه[١].

إذا عُلم ذلك يتّضح أنّ القوامة في الحقيقة لا تخرج عن كونها تكليفاً بأمور تتعلّق بالأسرة، ومن غير الصحيح عَدّها في جوانب تفضيل الرجال على النّساء.

٤- التفضيل في الميراث:

إنّ الرجل لم يفُضَّل على المرأة في الميراث في جميع الصور، وإنّما فُضِّل في بعض الفروض دون بعضها الآخر.

مثل ما لو ترك الميّت أولاداً ذكوراً وإناثاً، فإنّ الذّكَر له ضعف الأنثى، ولكن قد ترث المرأة في بعض الفروض الأخرى أكثر من الرجل، مثل ما لو مات رجل فترك أُمًّا وستة أولاد ذكور، فإنّ الأم ترث سدس التركة، وكلّ واحد من الأولاد يرث سدس الباقي.

وكذا لو مات رجل فترك أباً وبنتاً، فإنّ الأب يرث الربع بالفرض والرَّدّ، والثلاثة الأرباع للبنت كذلك.

وربّما يتساوى الرجل مع المرأة في بعض الفروض الأخرى، مثل ما لو مات رجل فترك أولاداً وأباً وأمًّا، فإنّ الأب له السدس، والأم لها السدس أيضاً.

وقد عُلِّل تفضيل الرجل على المرأة في بعض صُوَر الميراث بأنّ الرجل مسؤول عن نفقة زوجته وعياله، وأنّه يدفع مهراً لزوجته، فما يأخذه من الميراث ينفقه على من تجب عليه نفقته، فحِصَّته في الواقع له وللآخرين، وليست خالصة له وحده، وأمّا المرأة فلا يجب عليها النفقة على زوجها أو عيالها، حتى لو كانت غنيّة، وكان زوجها وعيالها فقراء، فما تأخذه يكون خالصاً لها وحدها، لا

(١) مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام ٣/ ٢٥٧.

يشاركها فيه أحد.

وقد روى الشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن عبد الله بن سنان، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لأيّ علّة صار الميراث للذّكَر مثل حظّ الأنثيين؟ قال: لِما جعل الله لها من الصداق[١].

وعن هشام بن الحكم أنّ ابن أبي العوجاء[٢] قال لمحمد بن النعمان الأحول: ما بال المرأة الضعيفة لها سهم واحد، وللرجل القوي الموسر سهمان؟ قال: فذكرت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام، فقال: إنّ المرأة ليس لها عاقلة[٣]، ولا عليها نفقة، ولا جهاد، وعَدَّدَ أشياء غير هذا، وهذا على الرجل، فلذلك جُعل له سهمان ولها سهم[٤].

والنتيجة: أنّ تفضيل الرجل على المرأة ليس مطلقاً، وإنّما هو في موارد خاصّة اقتضتها طبيعته، كالمقامات الدينية، وفي بعض صور الميراث؛ للأسباب التي ذكرناها آنفاً.

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٥٠.

(٢) هو عبد الكريم بن أبي العوجاء، خال معن بن زائدة، كان رجلاً ملحداً، له مناظرات متعدّدة مع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، بعضها مروي في كتاب (الكافي). قبض عليه محمد بن سليمان والي البصرة في زمان المهدي العباسي، وقتله وصلبه بعد سنة ١٦٠هـ، ونُقل عنه أنّه قال قبل قتله: لئن قتلتموني فقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة.

(٣) العاقلة: هم الأقارب الذكور من جهة الأب، الذين يعقلون الدِّيَة - أي يدفعونها - بدلاً عن الذي قَتَلَ خطأً، ومراده عليه السلام أنّ المرأة لا تعقل شيئاً من الدية، فلا تكون من ضمن العاقلة الذين يجب عليهم دفع الدية.

(٤) من لا يحضره الفقيه ٤/ ٣٥٠.

إثارات حول
الأنبياء عامّة ونبيّنا خاصّة



لماذا بُعث الأنبياء في الدول العربية فقط؟

السؤال (٤٢): لماذا لم يبعث الله نبيًّا لكلّ قومية من القَوميات، واختصّ أقواماً دون أقوام؟ فلا يوجد نبيٌّ لأهل الصين وغيرها من الدول التي لا تتحدّث بالعربية؟

والجواب:

١ - أنّه زعم يحتاج إلى إثبات: فإنّنا لا نعلم هل أنّ الله تعالى بعث أنبياء إلى أهل الصين وغيرهم أم لا؛ لأنّ الله تعالى بعث حوالي ٣٠٠ رسول كما ورد في بعض الروايات، فلعلّ بعض أولئك الأنبياء بُعثوا لأهل الصين أو الهند أو أفريقيا أو الأمريكتين، أو غيرها، ولكن لم تصل إلينا أخبارهم، ولا نعلم شيئاً من أحوالهم، وفي آيات الكتاب العزيز ما يدلّ على أنّ الله تعالى بعث في كلّ أمّة رسولاً:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

والله سبحانه وتعالى وإن قصَّ علينا قصص بعض أنبيائه عليهم السلام إلا أنّ أكثر الأنبياء عليهم السلام لم يذكر لنا شيئاً من قصصهم وأخبارهم وما جرى عليهم، وأين بَعَثَهم؟ ومتى كانت بِعْثتهم؟ قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر: ٧٨].

فمن يقول: «إنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا لأهل الصين» مثلاً فعليه أن يثبت ذلك بدليل صحيح، فإنّ الإثبات كما يحتاج إلى دليل، فكذلك النفي أيضاً يحتاج

إلى دليل، وإلا فلا قيمة له.

ونحن لا نعلم فلعلّ الحكيم الصيني كونفوشيوس كان نبيًّا، وكذا غيره من حكماء الصين، وكذا أرسطو وسقراط وأفلاطون وزرادشت وبوذا وغيرهم، لعلهم كانوا أنبياء؛ فقد ذكر الشيخ حسن زاده آملي في تعليقته على كتاب (كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد) ما يشير إلى ذلك حيث قال:

قال العالم الأوحدي محمد الديلمي في محبوب القلوب (ص ١٤ ط ١): يروى أنّ عمرو بن العاص قدم من الإسكندرية على سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأله عما رأى، فقال: رأيت قوماً يتطلّسون، ويجتمعون حلقاً، ويذكرون رجلاً يقال له: «أرسطو طاليس» لعنه الله. فقال صلوات الله وتسليماته عليه وآله: مَهْ يا عمرو! إنّ أرسطو طاليس كان نبيًّا فجهله قومه.

قال الديلمي: قال الفاضل الشهرزوري في (تأريخ الحكماء): هكذا سمعناه.

ثم قال الديلمي: أقول: ويؤيّد هذه الرواية ما نقل السيّد الطاهر ذو المناقب والمفاخر رضي الدين علي بن طاووس قدّس الله روحه في كتابه (فرج المهموم في معرفة الحلال والحرام من علم النجوم) قولاً بأنّ ابرخس وبطليموس كانا من الأنبياء، وأنّ أكثر الحكماء كانوا كذلك، وإنّما التبس على الناس أمرهم لأجل أسمائهم اليونانية، أي لما كانت أسماؤهم موافقة لأسماء بعض حكماء يونان الذين يُنسب إليهم فساد الاعتقاد اشتبه على الناس حالهم، وظنّوا أنّ أصحاب تلك الأسامي بأجمعهم على نهج واحد من الاعتقاد[1].

٢- أنّ أغلب الأنبياء غير عَرَب: فإنّ الله تعالى بعث جميع الأنبياء بلغات

---

(١) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد (الحاشية): ٢٠٢.

أقوامهم كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

قال الشيخ محمد بن الحسن الطوسي قدس سره:

أخبر الله تعالى أنّه لم يرسل فيما مضى من الأزمان رسولاً إلى قوم إلا بلغة قومه، حتى إذا بيَّن لهم فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجم عنه[١].

وقد ورد في الأخبار أنّ الأنبياء العرب خمسة أو أربعة فقط، والباقي من غير العرب.

فقد روي عن ابن عباس أنّه قال: أوّل المرسلين آدم، وآخرهم محمد صلى الله عليه وآله وعليهم، وكانت الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبي، الرسل منهم ثلاث مائة، وخمسة منهم أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم، وخمسة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، ومحمد صلى الله عليهم. وخمسة سريانيون: آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وإبراهيم عليهم السلام[٢].

ونقل الشيخ المجلسي قدس سره عن كتاب (قصص الأنبياء) للشيخ محمد بن علي بن بابويه قدس سره المعروف بالصدوق: بسنده عن الفضيل، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لم يبعث الله عزّ وجلّ من العرب إلا خمسة أنبياء: هوداً، وصالحاً، وإسماعيل، وشعيباً، ومحمداً خاتم النبيّين صلى الله عليه وآله[٣].

وفي خبر آخر في نفس المصدر أنّهم أربعة، باستثناء إسماعيل عليه السلام.

فإذا كان أكثر الأنبياء من غير العرب، فلعلّ بعض أولئك الأنبياء كانوا

(١) التبيان في تفسير القرآن ٦/ ٢٧٣.

(٢) الاختصاص: ٢٦٤.

(٣) بحار الأنوار ١١/ ٤٢.

من الصين أو الهند أو غيرهما، بعثهم الله تعالى إلى أقوامهم، ولكن لم تصلنا أخبارهم كما قلنا.

٣- أنّ الله حكيم في أفعاله: فإنّا لو سلّمنا بأنّ الله تعالى لم يبعث أنبياء إلى بعض الأمم التي لا تنطق العربية، وبعث الأنبياء للدول العربية فقط فالله سبحانه وتعالى حكيم، يفعل ما فيه المصلحة الواقعية للعباد، ولا يخطئ في شيء ممّا يفعل، وعدم معرفتنا بالحكمة في أيّ فعل من أفعاله سبحانه لا يستلزم كونه بلا مصلحة.

أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى لا يجب عليه أن يبيّن لخلقه وجه الحكمة في كلّ فعل من أفعاله، فإنّنا إن علمنا بوجه الحكمة في أيّ فعل صادر عنه سبحانه فهذا من فضله ونعمته علينا، وإلا فلا بدّ لنا من التسليم بأنّه سبحانه فعل ذلك لحكمة نجهلها.

٤- أنّ الغرض الأساس هو إيصال الدعوة إلى كلّ أحد: فإنّا لو سلّمنا أيضاً أنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا صينيًّا لأهل الصين بخصوصهم فإنّ المهمّ هو وصول الدعوة الإلهية إليهم، سواء وصلت بواسطة نبيٍّ من أهل الصين أم بواسطة غيره، ولا شكّ في أنّ دعوة النبي محمد بن عبد الله ﷺ وصلت إلى جميع أنحاء العالم في عصرنا هذا مثلاً، رغم أنّه ﷺ بُعث في بلاد العرب.

ولو سلّمنا أنّ دعوة النبي ﷺ لم تصل إلى بعض أهل الصين أو إلى من يسكن في بعض غابات أفريقيا أو الأمازون، فإن كان عدم وصول الدعوة إلى أولئك الناس ناشئاً عن تقصيرهم في الاطلاع على الأديان وانصرافهم عن اختيار الدين الحقّ من بينها، فلا شكّ في أنّهم يؤاخَذون على ذلك، ويعاقَبون على عدم اتّباع النبي الذي هم مأمورون باتّباعه.

وأمّا إذا كان عدم وصول الدعوة إليهم ناشئاً عن قصورهم وعدم إدراكهم أنّ ذلك واجب عليهم، فإنّ الله تعالى لا يعذّبهم كما قال سبحانه في

كتابه العزيز: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء: ٩٨-٩٩].

والسبب في ذلك هو أنّ الله تعالى يحاسب النّاس على قدر عقولهم، فإذا كانت عقولهم قاصرة عن إدراك ما يجب عليهم عملاً واعتقاداً، فإنّ الله تعالى لا يحاسبهم على ما لا تدركه عقولهم، ولا يعاقبهم على ما تقصر عنه أفهامهم.

ما الفرق بين معجزات الأنبياء وما يقوم به الهندوس؟

السؤال (٤٣): كيف لنا ألّا نأخذ بأقوال من يدّعون أنّهم أولياء صالحون، ويقومون بأعمال إعجازيّة كالهندوس مثلاً؟ وكيف تثبت النبوّة إذا تشابهت المعجزة؟

والجواب: أنّ المعجزة هي الأمر الخارق للعادة، المتعذِّر على الخلق، المطابق للدَّعوى، المقرون بالتحدّي.

فخرق العادة يُخرج فعل الأمور الممكنة التي تُفعَل بالرياضات كما يفعله الهندوس وغيرهم، ويُخرج أعمال السحر والشعوذة عن أن تكون معجزة؛ لأنّها ليست خارقة للعادة.

واعتبار مطابقة الدعوى يُخرج عن المعجزة الفعلَ الخارق للعادة المخالف للدعوى؛ لأنّ المعجزة إنّما يؤتى بها لتدلّ على صدق المدّعي، فلو خالفت المعجزةُ الدعوى كانت دالّةً على كذبه وبطلان دعواه، فلا تكون معجزة، وهذا ما حصل لمسيلمة عندما جعل بعض ريقه في عين مريض لكي يشفى فعُمي، وتفل في بئر لكي ينبع ماؤها فنضبت.

واعتبار الاقتران بالتحدّي يُخرج الأمر الخارق للعادة الذي يقع على أيدي الأولياء في غير مقام التحدّي، فإنّه في الاصطلاح يسمّى: كرامة، ولا يسمّى معجزة.

والمعجزة بهذا المعنى قد جرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام عامّة وعلى يدي نبيّنا صلى الله عليه وآله خاصّة، فإنّ المعجزات التي جرت على يد النبي صلى الله عليه وآله أكثر من أن تحصى.

ومنها: القرآن الكريم: الذي هو المعجزة الخالدة التي تحدَّى بها النبي ﷺ العرب البلغاء على ثلاث مراحل، حيث تحدّاهم أوّلاً بأن يأتوا بمثله، فلمّا عجزوا تحدّاهم أن يأتوا بعشر سور فعجزوا، فتحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة، ومع ذلك عجزوا، فلجؤوا إلى محاربته بالسيوف، مع أنّهم كانوا قادرين على تركيب الكلام، وكانوا فصحاء بلغاء في محاوراتهم وخُطَبهم وأشعارهم، وعدولهم عن الإتيان بسورة مِنْ مِثْل القرآن إلى الحرب دليل على عجزهم، وعلى أنّ القرآن الكريم كتاب مُعْجِز في نفسه.

ومن المعجزات: انشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير بالطعام القليل، وتسبيح الحصى في كفّه المباركة، وكلام الذراع المسمومة وغيرها.

ومنها: إخباره بالمغيّبات الكثيرة التي ثبتت عنه ﷺ بالتواتر، كإخباره بأنّ عمار بن ياسر رضي الله عنه تقتله الفئة الباغية، فقتله معاوية وأصحابه في معركة صفّين، وأنّ الحسين عليه السلام يُقتل في كربلاء، وأنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يُقتل في شهر رمضان، وأنّ البلاد الإسلامية ستتّسع شرقاً وغرباً، وإخباره بانتصار الروم على الفرس في زمانه ﷺ، وأنّ المسلمين سيحكمون بلاد فارس، وغيرها من الإخبارات الكثيرة التي تحقّقت كما أخبر به ﷺ.

ومنها: التشريعات الإسلامية التي شملت جميع جوانب حياة الإنسان، مع صلاحيّتها لكلّ زمان ومكان، ونحن نراها بعد أكثر من ١٤٠٠ سنة صالحة للزمان الذي نعيش فيه كما كانت صالحة لما قبله، فهي شاملة وكاملة، وهذا إعجاز واضح؛ لأنّ الجمع الكثير من العلماء المتخصّصين لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذه التشريعات كما هو ملاحظ في كلّ زمان.

فإذا اتّضح ذلك نقول: كلّ من ادّعى النبوّة واستطاع أن يأتي بمثل هذه المعجزات الخارقة للعادة فهو نبي، والنبي محمد ﷺ جاء بهذه المعجزات بلا

أدنى شكّ، فيكون نبيًّا قطعاً، وإنكار نبوّته بعد كلّ ذلك مكابرة واضحة.

وأمّا الأعمال التي يقوم بها الهندوس فليست بمعجزات في الحقيقة، وإنّما هي رياضات بدنية وروحية شاقّة؛ فإنّهم يصومون أكثر أعمارهم، ويكتفون بالقليل البسيط من الطعام في مأكلهم ومشربهم، وينصرفون عن جميع ملذّات الدنيا، ويخالفون شهواتهم وأهواءهم، ويعذّبون أنفسهم بأنحاء شتّى، وجميع هذه الأمور تُكسِبهم بعض الملَكات التي تترتّب عادة على أمثال هذه الأعمال الشاقّة، مثل: انكشاف بعض الأمور لهم، أو معرفتهم ما في الضمير، أو اكتساب القدرة على شفاء بعض الأمراض.

وهذه المكتسبات ليست بمعاجز خارقة للعادة دالّة على النبوّة أو على أيّ مقام ديني عند الله سبحانه، كما أنّها لا تدلّ على أنّهم أولياء صالحون، وإنّما هي ملَكات يكتسبها كلّ من يمارس أمثال هذه الرياضات الشاقّة لا أكثر، وحال هؤلاء الهندوس حال الرياضيّين الذين يُدرِّبون أنفسهم على بعض المهارات الرياضية كالجري السريع وحمل الأثقال والسباحة والرماية وألعاب الكرة وغيرها من الرياضات المعروفة، إلا أنّ الفرق أنّ هؤلاء يكتسبون مهارات جسديّة، وأولئك يكتسبون مهارات روحيّة، ومن المعلوم أنّ الجسم الإنساني مشتمل على قدرات روحية كامنة عظيمة وقوى باطنيّة متنوّعة أودعها الله تعالى فيه، لكنّها تحتاج إلى ما يُبرزها ويحفّزها، وهذه الرياضات تمكِّن الإنسان من التحكّم في تلك القوى الكامنة وإبرازها والاستفادة منها.

ومن أوضح الأمثلة على وجود هذه القوى الكامنة في الإنسان: السِّحر والشعوذة، فإنّ الساحر والمشعوذ يتمكّنان من القيام بأعمال تثير الدهشة والإعجاب، بسبب مهارتهما في السِّحر والشعوذة، وكلّ من تعلّم علومهما فإنّه يستطيع أن يقوم بنفس الأعمال التي يقوم بها هؤلاء.

ومن المعلوم في هذا العصر أنّ الخدع السحرية قد تحوّلت إلى علم يُدرَس،

وفنٍّ تزداد المهارة فيه بكثرة التدريب عليه، وصار السحرة يبتكرون خدعاً وألعاباً سحرية يقومون بها أمام الجمهور، قد يتراءى للجاهل بأسرارها أنّها أعمال خارقة للعادة، لا يستطيع معظم الناس أن يقوموا بمثلها، خصوصاً أنّ أولئك السحرة قد صاروا يستعينون بالتقنيات العصرية لعمل تلك الألعاب والخدع التي يثيرون بها دهشة الجمهور.

وفي موقع يوتيوب توجد مقاطع كثيرة تكشف أسرار تلك الأعمال المثيرة للدهشة، والتي يتّضح بتلك المقاطع أنّ جميع الخدع السحرية هي في الحقيقة أعمال عادية جدًّا، تعتمد على إيهام الجمهور بأمور غريبة لكنها غير واقعية(١).

إذن، كثير من الأعمال التي يُظنّ أنّها أعمال خارقة للعادة لا تعدو كونها خدعاً سحرية يمكن لأيّ شخص أن يقوم بها إذا كُشف له سرّ تلك الخدع.

وفي أحسن الأحوال يكتسب المرء مَلَكة بسبب قيامه بعمل يحبّه الله تعالى، مثل مخالفة هواه، فيعطيه الله ثواباً دنيويًّا أو صفة يستفيد منها في دنياه؛ لأنّ الله تعالى قد آلى على نفسه ألّا يُضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى كما قال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعليه، فلا بدّ أن نميِّز بين الرياضات البدنية والروحية التي يقوم بها الهندوس، وبها يكتسبون ملَكاتهم الروحية التي يُظهرونها للنّاس، وبين المعجزات الخارقة للعادة التي لا يمكن الإتيان بها لا برياضات ولا بغيرها، لأنّها خارجة عن قدرة البشر، فلا يتمكّنون من فعلها مهما حاولوا وإن أعان بعضهم بعضاً في ذلك، مثل تحويل العصا إلى ثعبان حقيقي، وإحياء الموتى،

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=xGaP1Ob7KaU&list=RDxGaP1Ob7KaU#t=674.

https://www.youtube.com/watch?v=kQW81ty6QFg

https://www.youtube.com/watch?v=uX17PPvY7aM&list=RDuX17PPvY7aM#t=183

وإبراء الأكمه[(١)] والأبرص، وأمثال هذه الأمور وغيرها من معاجز الأنبياء عليهم السلام، ممّا لا يستطيع أولئك الهندوس أن يأتوا بمثلها.

ويدلّ على صحّة ما قلناه أنّنا لم نسمع أنّ هندوسيًّا أحيا ميتاً، أو مسح بيده على عين مكفوف أكمه فصار بصيراً، أو مسح على أبرص فزال برصه، أو نحو ذلك ممّا جرى على أيدي الأنبياء عليهم السلام.

ولا يخفى أنّ أولئك الهندوس لا يستطيعون أن يدّعوا أنّ ما يقومون به معجزات كمعاجز الأنبياء عليهم السلام، وأنّهم مثل الأنبياء المبعوثين من قبل الله تعالى، ومن يدّعي أنّ أعمال الهندوس معاجز كمعاجز الأنبياء فهو يدّعي لهم ما لا يستطيعون أن يدّعوه لأنفسهم، فيكون مَلَكيًّا أكثر من مَلِك.

ثمّ إنّ المعجزة لا بدّ أن تقترن بدعوى النبوّة، وإذا لم تقترن بدعوى النبوّة فلا يمكن أن نجعلها دليلاً على النبوّة، ومن المعلوم أنّ أولئك الهندوس لا يستطيعون أن يدّعوا أنّهم أنبياء، كما لا يستطيعون أن يدّعوا أنّ ما يجري على أيديهم خارق للعادة، مع أنّه ليس كلّ من جرى على يده أمر خارق للعادة وجب الاعتقاد بأنّه نبي، فإنّ الله تعالى يُجري الأمور الخارقة للعادة على أيدي الأولياء والصالحين، وهو ما يُسمَّى بالكرامة كما قلنا، وهذا لا يستوجب الاعتقاد بنبوّتهم ما داموا لم يدّعوا ذلك.

وممّا قلناه يتبيّن جواب قول السائل: «وكيف تثبت النبوّة إذا تشابهت المعجزة»، فإنّه مضافاً إلى أنّ أعمال الهندوس ليست بمعجزات، ولا تشبه معجزات الأنبياء عليهم السلام؛ لأنها غير خارقة للعادة، فإنّ الهندوس لم يدّعوا أنّهم أنبياء، فكيف نثبت لهم النبوّة التي لا يدّعونها لأنفسهم؟!

---

(١) الأكمه: الذي وُلد أعمى، وهو والأبرص لا يمكن شفاؤهما بالعلاج المتعارف عند الأطباء.

حُبُّ النبي صلى الله عليه وآله للنساء

السؤال (٤٤): لماذا كان النبي رجلاً يحبّ النّساء، وعنده الكثير من الزوجات، بينما نرى أنّ عيسى المسيح وهب نفسه لله؟

والجواب:

١- أنّ حبّ النّساء طبيعة بشرية: فلا يمكن أن يُعدّ جرماً، ولا أمراً قبيحاً يُعاقَب عليه أيّ رجل أو يُعاب به؛ لأنّ كلّ رجل سويّ في خلقته وفطرته ومشاعره وتفكيره لا بدّ أن يحبّ النّساء، ولولا ذلك لما بقي النوع الإنساني على هذه الأرض.

وعليه، فكلّ نبيٍّ من الأنبياء يحبّ النّساء؛ لأنّهم عليهم السلام رجال أسوياء، والله سبحانه وتعالى كما جعل في الرجال العاديّين ميلاً إلى النّساء فإنّه سبحانه وتعالى جعل هذا الميل في الأنبياء أيضاً، ولم يخلقهم بنحو مختلف عن غيرهم من الرجال من هذه الناحية.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال سبحانه: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١].

وعليه، فإذا ثبت أنّ حبّ النّساء أمر فِطري متعلّق بالخِلْقة، فهو أمر قهري لا اختيار فيه، فلا يصحّ أن يعاب به من أحبّهن إذا لم يفعل محرّماً، أو يرتكب أمراً قبيحاً.

والأمر القبيح بنظر بعض المستشرقين الذين أثاروا هذا الإشكال هو أنّ نبيّنا صلى الله عليه وآله تزوّج من تسع نسوة، وهو بنظرهم قبيح مستشنع؛ لأنّه يدلّ على أنّ

النبي ﷺ كان همّه الأكبر هو مباضعة النّساء؛ ولو كان ﷺ متزوّجاً من امرأة واحدة لما كان هناك أيّ إشكال عندهم.

إذن فَمَرَدّ هذا الإشكال إلى أنّ التزويج بنساء متعدّدات في وقت واحد أمر قبيح عندهم، لا ينبغي صدوره من الرجل العادي فضلاً عن نبيّ من الأنبياء.

ولا يخفى أنّ استقباح كثير من الأفعال يرجع في أكثر الأحيان إلى التأثّر بالعادات الاجتماعية، أو التقاليد الموروثة، أو القوانين الوضعية، أو نحو ذلك، ولا يكون السبب في مثل هذا الاستقباح وجود علّة حقيقية تقتضي قبح هذا الفعل أو ذاك.

وتعدّد الزوجات واحد من هذا القبيل، فإنّه لا يوجد فيه ما يدعو إلى الحكم عليه بالقبح، وعلى فاعله بالذمّ، بل الأمر على العكس من ذلك، فإنّ فيه عدّة فوائد مهمّة سنبيِّنها فيما سيأتي إن شاء الله تعالى، فانتظر[١].

والمستشرقون الأوروبيّون الذين نشؤوا في مجتمعات تحظر تعدّد الزوجات بحسب ديانتهم النصرانية، وقوانينهم الوضعية، وتتعامل مع الاقتران بامرأة أخرى غير الزوجة - بأيّ نحو كان هذا الاقتران - على أنّه خيانة زوجية، من الطبيعي أنّهم يحكمون على تعدّد الزوجات بأنّه فعل قبيح، لا يستسيغون صدوره من سواد الناس فضلاً عن الأنبياء عليهم السلام.

وما دامت هذه المسألة ذوقية في الأساس، أو راجعة إلى العادات الموروثة والقوانين الوضعيّة، أو أنّ سبب قبحها عندهم هو أنّها محرّمة في الديانة النصرانيّة، فإنّها لا تقتضي القبح في كلّ عصر، خصوصاً في عصر الرسالة وفي المجتمع المكّي الذي كان التعدّد فيه معروفاً منتشراً من غير نكير من أحد.

---

(١) سيأتي الكلام في الحكمة في جواز تعدّد الزوجات في صفحة: ٣٥٧.

أضف إلى ذلك أنّ تعدّد الزوجات لو كان قبيحاً في نفسه لما فعله الأنبياء السابقون، وقد ورد في الكتاب المقدّس عند النصارى أنّ جملة من الأنبياء كانوا متزوّجين في وقت واحد من نساء متعدّدات.

فقد ورد سفر التكوين، الإصحاح ٢٥ أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده زوجات وسراري.

وجاء فيه أيضاً في الإصحاح ٢٩، ٣٠ أنّ يعقوب النبي عليه السلام كان عنده أربع زوجات: ليئة، وراحيل (وهما ابنتا خالِهِ لابان)، وبلهة، وزلفة (وهما جاريتان).

وذُكر في في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس أنّ النبي داود عليه السلام كان عنده سراري ونساء متعدّدات.

وورد في سفر الملوك، الإصحاح ١١ أنّ سليمان عليه السلام كان عنده ألف امرأة، سبعمائة من السيّدات، وثلاثمائة من الجواري.

وهذا دليل واضح على عدم قبح تعدّد الزوجات؛ لأنّ أنبياء الله تعالى - كما قلنا - لا يفعلون القبائح بأيّ حال.

٢- أنّ الشرائع السابقة أباحت تعدّد الزوجات: فإنّه إذا ثبت أنّ بعض الأنبياء عليهم السلام كانوا متزوّجين من نساء متعدّدات، فإنّ هذا يدلّ على أنّ تعدّد الزوجات كان مباحاً في شرائع أولئك الأنبياء عليهم السلام، كما هو الحال في الشريعة الإسلامية.

وبتعبير آخر أقول: إنّ حكم تعدّد الزوجات في الشريعة الإسلامية ليس مخالفاً لحكمه في شرائع الأنبياء السابقين حتى يمكن إنكاره أو الحكم عليه بأنّه مُستحدَث في الإسلام لأغراض شهويّة بحتة.

وعليه، فكلّ من يطعن في نبوّة نبيّنا ﷺ لأجل تعدّد الزوجات، يلزمه

أيضاً أن يطعن في نبوّة أولئك الأنبياء عليهم السلام الذين اتّفق على القول بنبوّتهم أتباعُ الديانات السماوية الكبرى: اليهودية، والنّصرانية، والإسلام.

٣- ثبوت نبوّة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وعصمته: فإنّ الأدلّة التامّة الصحيحة التي ليس هذا مقام بيانها قد دلّت على ذلك، ومن البديهي أنّه يترتّب على ثبوت نبوّته وعصمته صلى الله عليه وآله أنّه لا يفعل المنكرات ولا القبائح، بل تكون جميع أفعاله موافقة للحقّ، وتكون مشتملة على مصالح وحِكَم ربّما لا نعلمها، ولولا ذلك لما كان نبيًّا مرسلاً من قِبَل الله تعالى.

وكلّ من أراد الطعن في رسول الله صلى الله عليه وآله بتعدّد الزوجات أو غيره فعليه أن يطعن أوّلاً وقبل كلّ شيء في الأدلّة التي يستدلّ بها المسلمون على نبوّته صلى الله عليه وآله، فإذا بطلت تلك الأدلّة فلا حاجة بعد ذلك لتجشّم عناء إبطال نبوّته بتعدّد الزوجات أو غيره ممّا يذكره بعض المستشرقين.

ونحن سواء علمنا بوجه الحكمة في زواجه صلى الله عليه وآله من نساء متعدّدات أم لم نعلم فلا نجد ما يقتضي التشكيك في نبوّته بأيّ نحو؛ لأنّه لا يصحّ أن نرفع اليد عن الدليل القطعي الدالّ على نبوّته لأجل أمر لا نعلم وجه الحكمة فيه بنحو قطعي.

وعدم معرفة وجه الحكمة في هذا الأمر ليس بأعظم من عدم المعرفة بعِلَل كثير من الأحكام الشرعية التي لا يعرف المسلمون وجه المصلحة فيها، فإنّهم لا يعرفون السبب في كون الصلوات خمساً في اليوم والليلة، وفي هذا العدد المخصوص من الركعات في كلّ صلاة، ولا يعرفون وجه المصلحة في رمي الجمرات بسبع حُصَيَّات لا تزيد ولا تنقص، ولا الحكمة في الطواف حول البيت سبعة أشواط كذلك، وما شاكل ذلك.

وبما أنّه قد قام الدليل القطعي على أنّ الذي بلّغ عن الله تعالى جميع هذه

الأمور وغيرها نبيٌّ مرسَل من قِبَله سبحانه، وأنّ جميع أحكام الله تعالى تابعة للمصالح والمفاسد، فلا شكّ في أنّ جميع هذه العبادات وغيرها فيها مصالح مهمّة لا نعلمها.

وهذا جواب يصلح لأن يُجاب به عن كلّ ما يثيره المستشرقون وغيرهم من الطعون في النبي صلى الله عليه وآله من خلال بعض الأمور التي يتصوّرونها طعناً، من أجل التشكيك في نبوّته صلى الله عليه وآله.

٤- **مصالح تعدّد الزوجات:** فإنّه يجوز التعدّد لكلّ رجل في الشريعة الإسلامية بشرط العدل والمقدرة على القيام بالواجبات الزوجية تجاه الزوجات المتعدّدات، ولا فرق في سبب التعدّد بين كونه لمجرّد قضاء الشهوة أو لغيره من الأسباب الأخرى؛ لأنّ من آتاه الله شهوة عظيمة، وأراد أن يحصن نفسه بالزواج من أكثر من امرأة، مع مقدرته على العدل بينهنّ والنفقة عليهنّ، فلا محذور عليه؛ لأنّ إطفاء الشهوة بما أحلّه الله تعالى ليس عيباً ولا قبيحاً.

ونبيّنا صلى الله عليه وآله سواء كان قد تزوّج لأجل الشهوة أم لغيرها من المصالح فإنّه لا محذور في البين؛ لأن قضاء الشهوة فيما أحلّه الله ليس محرّماً.

ومع ذلك فإنّ من يلاحظ سيرة النبي محمد صلى الله عليه وآله، وينظر في الأحوال التي تزوّج فيها نساءه، يعلم أنّه صلى الله عليه وآله لم يتزوّج من أولئك النّسوة بدوافع إشباع الرغبة الجنسية، وإنّما فعل ذلك لمصالح مهمّة تصبّ في مصلحة الدعوة الإسلامية، فإنّ مصاهرته صلى الله عليه وآله للقبائل المهمّة أعانت على نشر الإسلام في بلاد العرب، ولولا ذلك لما تزوّج من بنت أبي سفيان عدوّه اللدود، ومن بنت حُيي بن أخطب اليهودي، ومن امرأة من أقباط مصر، وهكذا، ولا شكّ في أنّ ذلك كان له دور أساس في تأليف القبائل العربية التي كانت المصاهرة عندهم من أهمّ أسباب توثيق عُرَى العلاقات بين أبناء القبائل آنذاك.

وممّا يدلّ على أنّه صلى الله عليه وآله لم يتزوّج بداعي الشهوة أنّ جميع زوجاته صلى الله عليه وآله كُنَّ

ثيّبات وكبيرات في السّن، ولم يكن في زوجاته بكر صغيرة إلا واحدة، وهي عائشة على ما روي عنها: أنّها كانت بكراً، ولو كان الداعي هو إشباع الرغبة الجنسية لتخيّر الأبكار الصغيرات دون الثيبات الكبيرات.

مع أنّه صلى الله عليه وآله لم يعدّد زوجاته إلا بعد وفاة السيّدة خديجة عليها السلام وانتقاله إلى المدينة المنورة، وكان عمره الشريف حينئذ ثلاثاً وخمسين سنة.

وقد ذكر علماء المسلمين عدّة أسباب دعت النبي صلى الله عليه وآله لأن يتزوّج بعدّة نساء:

منها: تأليف بعض القبائل بمصاهرتهم والتزوّج منهم كما ذكرنا آنفاً.

ومنها: تعويض بعض المسلمات من الأرامل اللاتي فقدن أزواجهنّ، أو ظلمهنّ أهلهنّ بسبب الإسلام، أو أصابتهنّ بعض المصائب التي تقتضي منه صلى الله عليه وآله أن يطيّب خواطرهنّ، ويجبر مصائبهنّ، وأمثال هذه الحوادث وإن كانت بحسب العادة كثيرة في المجتمعات، والنبي صلى الله عليه وآله لا يسعه أن يتزوّج جميع أولئك النّسوة، إلا أنّه صلى الله عليه وآله فعل ذلك ليكون قدوة لسائر المسلمين؛ كي يتأسّوا به، ويقتدوا بفعله.

ومنها: أنّ كثيراً من نساء المسلمين كانت تَعْرِض لهنّ الحاجة لسؤال النبي صلى الله عليه وآله عن مسائل الدماء والجماع والغُسل ونحوها ممّا تخجل المرأة عادة من أن تسأل فيها رجلاً أجنبيًّا، خصوصاً إذا كان نبيًّا أو إماماً، ومثل هذه الحالة تستدعي وجود نساء متعدّدات في بيت النبي صلى الله عليه وآله يُجبن عن أمثال هذه المسائل إن كنّ يعرفن إجاباتها، أو يسألن عنها رسول الله صلى الله عليه وآله إن كنّ لا يعرفن جواباتها.

ومنها: أنّ بعض المسلمين الذين تزوّجوا من عدّة نساء يحتاجون إلى القدوة المثالية في التعامل مع الزوجات المتعدّدات، خصوصاً إذا كان في زوجاته

من هي شديدة الغيرة أو دائمة المشاكسة، والنبي ﷺ ضرب أروع الأمثلة في التعامل مع تسع زوجات متعدّدات بعدل وإنصاف وسعة صدر.

ومنها: أنّ كثيراً من المسلمين الذين يتزوّجون من عدّة نساء، يظلمون زوجاتهم، ويحابون بعضهنّ على حساب بعض، وربّما يظنّون أنّ الرجل مهما علا شأنه وعظم قَدره فإنّه لا يتمكّن من العدل بين نسائه، لكن عندما يرى هؤلاء أنّ النبي ﷺ عدل بين تسع نساء، ولم يحاب بعضهنّ على حساب بعض، رغم أنّ نساءه ﷺ كنَّ مختلفات في صفاتهن النفسية والجسدية بالنّحو الذي يدعو غيره للميل إلى بعض وهجْر بعض، فإنَّ الحجّة تقوم عليهم وعلى كلّ من تزوّج ولم يعدل بين نسائه، أو قصَّر في حقوقهنّ.

وأمّا قول السائل: «إن عيسى عليه السلام وهب نفسه لله» فهذا لا نشكّ فيه، سواء ثبت أنّ عيسى عليه السلام لم يتزوّج قط، أم أنّه عليه السلام قد تزوّج سرًّا بمريم المجدلية[1] كما قيل، فإنّ زواجه وعدم زواجه لا يتنافى مع بذل نفسه لله تعالى.

وزواج نبيّنا محمّد ﷺ بتسع نسوة كذلك، لا يتنافى مع بذل نفسه لله تعالى؛ لأنّ زواجه إنّما كان بأمر الله ولصالح الدعوة الإسلامية، ولم يكن زواجٌ

---

(١) ورد في بعض الأناجيل غير معتمدة في المجامع الكنسية مثل إنجيل فيليب الذي كُتب في القرن الثالث الميلادي، والذي اكتُشف في ١٩٤٥م، عبارات تشعر بأنّ السيد المسيح بينه وبين مريم المجدلية علاقة زوجية أو جنسية.

وفي سنة ٢٠١٢ قالت كارين كينغ أستاذة التاريخ المسيحي بجامعة هارفارد الأمريكية: إنّ قصاصة من ورق البردي تؤكّد أن المسيح كان لديه زوجة يُعتقد أنّها كانت مريم المجدلية.

ولذلك لم يستبعد بعض العلماء والباحثين فكرة زواج السيد المسيح. راجع:

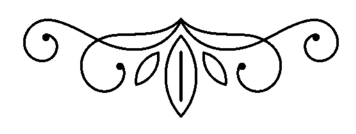
https://en.wikipedia.org/wiki/Karen_Leigh_King
https://en.wikipedia.org/wiki/Gospel_of_Philip
https://en.wikipedia.org/wiki/Gospel_of_Jesus'_Wife
http://www.baslibrary.org/bible-review/21/2/6
http://www.independent.co.uk/news/people/news/jesus-married-mary-magdalene-and-had-children-according-to-ancient-manuscript-9849839.html
https://en.wikipedia.org/wiki/The_Lost_Gospel:_Decoding_the_Ancient_Text_that_Reveals_Jesus'_Marriage_to_Mary_the_Magdalene

واحد منها بغرض شهوي أو شخصي، كما قال سبحانه في شأن زينب بنت جحش رضي الله عنها: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فإنّ قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ واضح الدلالة على نسبة التزويج إلى الله تعالى، وفيه بيان العلّة الداعية لهذا التزويج، وهي إلغاء جميع آثار التبنّي الذي كان شائعاً في الجاهلية، ومن أهمّ آثاره عندهم تحريم التزوّج بحليلة المتبنَّىٰ بعد مفارقته لها كما هو حال زوجة الابن الصلبي.

والنتيجة: أنّه لا يتوجّه أيّ إشكال على زواج النبي صلى الله عليه وآله من عدّة نساء؛ لما قلناه من أنّه كان لأجل غايات إنسانية أو لأجل مصلحة الإسلام نفسه، وكلّ من أنكر جوازه أو استقبحه فإنّ إنكاره أو استقباحه له ناشئ عن كون التعدّد إمّا محرّماً في دينه، أو أنّ قوانين بلاده تمنعه وتعاقب عليه، أو أنّه لا يستسيغه بحسب العادة التي نشأ عليها، وإلا فإنّ التعدّد في حدّ ذاته لا قبح فيه، بل فيه مصالح كثيرة لا تخفى على كلّ منصف.

إثارات حول الإنجيل والقرآن



هل الإنجيل كلام الله؟

السؤال (٤٥): ما هو الدليل على أنّ الإنجيل ليس كتاب الله؟

والجواب:

١- **أنّ الإنجيل كلام الله تعالى**: فإنّ ما يعتقده المسلمون في الإنجيل هو أنّه كلام الله سبحانه، أنزله على نبيّه عيسى بن مريم عليهما السلام، وهذا المعتقَد مذكور في بضع آيات في القرآن الكريم.

منها: قوله تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقال عزّ من قائل: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ ﴾ [الحديد: ٢٧].

وأمّا الأناجيل المعروفة الآن عند النّصارى فلم يثبت لدى المسلمين أنّ كلّ ما فيها من كلام الله تعالى، بل ينكرون ذلك ويردّونه، وعلى من يدّعي أنّ الإنجيل الموجود عند النصارى في هذا العصر هو كلام الله أن يثبت كلامه بدليل تام صحيح؛ لأنّه مُدَّعٍ، والمدَّعي هو الذي عليه أن يُثبت مدّعاه بالدليل التامّ الصحيح.

٢- **أنّ الأناجيل المتداولة من تأليف البشر**: فإنّه يكفي في الدلالة على أنّ الأناجيل المتداولة عند النّصارى في زماننا ليست من كلام الله أنّ هذه الأناجيل

ليس فيها أيّ ميزة تميِّزها عن غيرها ممّا كتبه البشر، بل إنّ كثيراً من البشر كتبوا كتباً أفضل منها، فإنّ القارئ للعهدين القديم والجديد يشعر بالملل، ويرى أنّ كثيراً من أسفار هذا الكتاب لا يفيد عامّة النّاس في شيء.

فممّا ورد في الإصحاح الأول من إنجيل متّى قوله:

١كِتَابُ مِيلاَدِ يَسُوعَ المَسِيحِ ابْنِ دَاوُدَ ابْنِ إِبْراهِيمَ: ٢إِبْراهِيمُ وَلَدَ إِسْحاقَ. وَإِسْحاقُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يَهُوذَا وَإِخْوَتَهُ. ٣وَيَهُوذَا وَلَدَ فَارِصَ وَزَارَحَ مِنْ ثَامَارَ. وَفَارِصُ وَلَدَ حَصْرُونَ. وَحَصْرُونُ وَلَدَ أَرَامَ. ٤وَأَرَامُ وَلَدَ عَمِّينَادَابَ. وَعَمِّينَادَابُ وَلَدَ نَحْشُونَ. وَنَحْشُونُ وَلَدَ سَلْمُونَ. ٥وَسَلْمُونُ وَلَدَ بُوعَزَ مِنْ رَاحَابَ. وَبُوعَزُ وَلَدَ عُوبِيدَ مِنْ رَاعُوثَ. وَعُوبِيدُ وَلَدَ يَسَّى. ٦وَيَسَّى وَلَدَ دَاوُدَ المَلِكَ. وَدَاوُدُ المَلِكُ وَلَدَ سُلَيْمانَ مِنَ الَّتِي لأُورِيَّا. ٧وَسُلَيْمانُ وَلَدَ رَحَبْعَامَ. وَرَحَبْعَامُ وَلَدَ أَبِيَّا. وَأَبِيَّا وَلَدَ آسَا. ٨وَآسَا وَلَدَ يَهُوشَافَاطَ. وَيَهُوشَافَاطُ وَلَدَ يُورَامَ. وَيُورَامُ وَلَدَ عُزِّيَّا. ٩وَعُزِّيَّا وَلَدَ يُوثَامَ. وَيُوثَامُ وَلَدَ أَحَازَ. وَأَحَازُ وَلَدَ حِزْقِيَّا. ١٠وَحِزْقِيَّا وَلَدَ مَنَسَّى. وَمَنَسَّى وَلَدَ آمُونَ. وَآمُونُ وَلَدَ يُوشِيَّا. ١١وَيُوشِيَّا وَلَدَ يَكُنْيَا وَإِخْوَتَهُ عِنْدَ سَبْيِ بَابِلَ. ١٢وَبَعْدَ سَبْيِ بَابِلَ يَكُنْيَا وَلَدَ شَأَلْتِئِيلَ. وَشَأَلْتِئِيلُ وَلَدَ زَرُبَّابِلَ. ١٣وَزَرُبَّابِلُ وَلَدَ أَبِيهُودَ. وَأَبِيهُودُ وَلَدَ أَلِيَاقِيمَ. وَأَلِيَاقِيمُ وَلَدَ عَازُورَ. ١٤وَعَازُورُ وَلَدَ صَادُوقَ. وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَ. وَأَخِيمُ وَلَدَ أَلِيُودَ. ١٥وَأَلِيُودُ وَلَدَ أَلِيعَازَرَ. وَأَلِيعَازَرُ وَلَدَ مَتَّانَ. وَمَتَّانُ وَلَدَ يَعْقُوبَ. ١٦وَيَعْقُوبُ وَلَدَ يُوسُفَ رَجُلَ مَرْيَمَ الَّتِي وُلِدَ مِنْهَا يَسُوعُ الَّذِي يُدْعَى المَسِيحَ. ١٧فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى المَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً.

وكلّ هذا الكلام لا يفيد عامّة الناس بشيء، وكان يمكن إيجازه بكلام مختصر مفيد كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا

مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٦].

ومن الواضح أنّ هذه الأناجيل لو كانت من كلام الله تعالى لما استطاع أحد أن يأتي بمثلها، وهذا هو الدليل الذي يستدلّ به المسلمون على أنّ القرآن كلام الله تعالى، فإنّ النبي محمّداً ﷺ تحدّى الخلق على ثلاث مراحل، حيث تحدّاهم ﷺ أوّلاً بأن يأتوا بكتاب مثل القرآن، فقال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثمّ لما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن خفّف عليهم التحدّي، فقبل منهم أن يأتوا بعشر سُوَر من مثل سوره، فقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فلمّا عجزوا خفّف عليهم التحدّي، فقبل منهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط مِن مِثْل سُوَره، فقال سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ولا شكّ في أنّ هذا دليل تامٌّ وقويّ، يدلّ على أنّ القرآن كلام الله؛ لأنّه لو كان من كلام البشر لاستطاع البشر على مرّ العصور أن يأتوا بمثله، بل كان من السهل عليهم أن يأتوا بما هو أفضل منه.

وهذه الميزة لا نجدها في الأناجيل المتداولة عند النّصارى، فإنّ البشر قادرون على الإتيان بما هو أحسن منها، فكيف تكون من كلام الله تعالى؟!

٣- أنّ كُتّاب الأناجيل معروفون: فإنّ الكتاب المسمَّى بالعهد الجديد هو

في الحقيقة مجموعة كتيِّبات لا كتاب واحد، وهي سبعة وعشرون كتيّباً، منسوبة إلى مؤلِّفين معروفين عندهم بحسب التقليد المسيحي، فإنّ الأناجيل الأربعة مثلاً كتبها متَّى الإنجيلي، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا، الذي كتب أيضاً: أعمال الرسل، ورسائله الثلاث، ورؤيا يوحنّا، وأمّا بولس فكتب حوالي ١٣ رسالة من مجموع رسائل العهد الجديد البالغة ٢٧ رسالة، منها: الرسالة إلى أهل روما، والرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، والرسالة الثانية إلى أهل كورنثوس، والرسالة إلى أهل غلاطية، والرسالة إلى أهل فيلبي، والرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي، والرسالة إلى فليمون.

قال إميل ماهر إسحاق (أستاذ العهد القديم واللاهوت بالكلية الأكليريكية واللغة القبطية بمعهد اللغة القبطية بالقاهرة):

> يبلغ عدد الكَتَبة المُلْهَمين الذين اشتركوا في كتابة أسفار الكتاب المقدّس أكثر من أربعين كاتباً من مختلف طبقات البشر، فمنهم الراعي، والصيّاد، وجابي الضرائب، وصانع الخيام، والقائد، والنبي، والملك... الخ. وكلّهم من العبرانيّين فيما عدا لوقا كاتب الإنجيل المدعو باسمه، والذي كان على الأرجح طبيباً أمميًّا من أنطاكيا، وهناك قليلون يعتبرونه يهوديًّا[1].

فإذا كانت هذه الكتيّبات لها مؤلّفوها المعروفون عندهم، فكيف يصحّ نسبتها إلى الله تعالى، خصوصاً أنّ أكثر هؤلاء المؤلّفين لا يدَّعون أنّهم أنبياء موحى إليهم من قِبَل الله سبحانه، ولا يزعمون أنّ كتبهم أخذوها حرفيًّا عن يسوع نفسه، أو عن غيره من الأنبياء السابقين!

٤ - **أنّ الأناجيل فيها أخطاء كثيرة:** ومن المعلوم أنّ وجود خطأ واحد في كتاب يدلّ على أنّه ليس من عند الله تعالى؛ لأنّ الله تعالى لا يخطئ، ولو كان من

---

(١) مخطوطات الكتاب المقدّس بلغاته الأصلية: ١٠.

عند الله لما كان فيه أيّ خطأ، وفي أحسن الأحوال نقول: إنّه كلام الله، لكنّه محرّف.

ومن الأخطاء الواضحة ما ورد في إنجيل متّى، الإصحاح ١٢ أنّ يسوع أخبر أنّه سيمكث ميّتاً في قبره ثلاثة أيام وثلاث ليال. قال:

٣٨حِينَئِذٍ أَجَابَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ نَرَى مِنْكَ آيَةً». ٣٩فَأَجابَ وَقَالَ لَهُمْ: «جِيلٌ شِرِّيرٌ وَفَاسِقٌ يَطْلُبُ آيَةً، وَلاَ تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلاَّ آيَةَ يُونَانَ النَّبِيِّ. ٤٠لأَنَّهُ كَمَا كَانَ يُونَانُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ، هكَذَا يَكُونُ ابْنُ الإِنْسَانِ فِي قَلْبِ الأَرْضِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ وَثَلاَثَ لَيَالٍ.

بينما ورد في الإصحاح ٢٨ من نفس الإنجيل أنّ يسوع الذي دُفن بعد الظهر من يوم الجمعة، قام من قبره صبح يوم الأحد، قال:

١وَبَعْدَ السَّبْتِ، عِنْدَ فَجْرِ أَوَّلِ الأُسْبُوعِ، جَاءَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ الأُخْرَى لِتَنْظُرَا الْقَبْرَ. ٢وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لأَنَّ مَلاَكَ الرَّبِّ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ الْحَجَرَ عَنِ الْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ. ٣وَكَانَ مَنْظَرُهُ كَالْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَالثَّلْجِ. ٤فَمِنْ خَوْفِهِ ارْتَعَدَ الْحُرَّاسُ وَصَارُوا كَأَمْوَاتٍ. ٥فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِلْمَرْأَتَيْنِ :«لاَ تَخَافَا أَنْتُمَا، فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكُمَا تَطْلُبَانِ يَسُوعَ الْمَصْلُوبَ. ٦لَيْسَ هُوَ ههُنَا، لأَنَّهُ قَامَ كَمَا قَالَ! هَلُمَّا انْظُرَا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ الرَّبُّ مُضْطَجِعًا فِيهِ. ٧وَاذْهَبَا سَرِيعًا قُولاَ لِتَلاَمِيذِهِ: إِنَّهُ قَدْ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ».

وبهذا يكون يسوع قد بقي في باطن الأرض: نصف يوم الجمعة، وليلة السبت، ويوم السبت، وليلة الأحد، أي يوماً ونصفاً وليلتين، وهذا خطأ فاضح جدًّا، لا يقبل التأويل.

وقد حاول وليم ماكدونالد في تفسيره أن يدفع هذا الإشكال، فقال:

قال لهم باختصار: إنّه لن تُعطَىٰ لهم آية إلا آية يونان النبيّ، مشيراً إلى موته، ودفنه، وقيامته. فاختبار يونان الذي ابتلعه الحوت ثمّ قذفه (يون ١: ١٧؛ ٢: ١٠)، سبق فصوَّر آلام المسيح وقيامته، فإنّ قيامته من الأموات كانت ذروة المعجزات وخاتمتها في خدمته للأمّة القديمة. وكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليال، هكذا تنبّأ الرّبّ بأنّه سيكون في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال، وهذا أنشأ مشكلة، فإذا كان يسوع، حسب المعتَقد العامّ، قد دُفن يوم الجمعة بعد الظهر، وقام يوم الأحد صباحاً، فكيف يمكن أن يُقال: إنّه كان في القبر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ؟ والإجابة هي أنّه، في الحساب اليهوديّ، يُحسَب أيّ جزء من النّهار أو الليل فترة كاملة. «النهار والليل يشكّلان أُونة onah وجزء الأونة كأنّه الكلّ» (قول يهودي)[1].

قلت: هذا القول المجهول القائل لا يدل على ما ذكره ماكدونالد بأيّ دلالة، ولو سلّمنا جدلاً بصحّة هذا القول، وأنّ مكثه في بطن الأرض بعض يوم الجمعة، وكامل يوم السبت، وبعض يوم الأحد، يُعدّ ثلاثة أيام، فالإشكال لا يزال باقياً؛ لأنّ يسوع لم يمكث في قبره إلا ليلتين، هما ليلة السبت وليلة الأحد.

ومن التناقضات الواضحة أيضاً ما ورد في إنجيل يوحنّا، الإصحاح الخامس من أنّ شهادة يسوع لنفسه باطلة، قال: ٣١«إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا. ٣٢الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقّ.

ولكن يسوع يرجع فيقول: إنّ شهادته لنفسه حقّ.

قال في الإصحاح الثامن:

١٤أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقّ،

(١) تفسير إنجيل متّى: ٩٥.

لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ.

٥- **أنّ الأناجيل مختلفة فيما بينها:** فإنّ أشهر الأناجيل هي: إنجيل متّى (٢٨ إصحاحاً)، وإنجيل مرقس (١٦ إصحاحاً)، وإنجيل لوقا (٢٤ إصحاحاً)، وإنجيل يوحنا (٢١ إصحاحاً)، وغيرها، وهي مختلفة فيما بينها اختلافاً كثيراً، فأيّها هو كلام الله تعالى بنظر النّصارى، وأيّها ليس كذلك؟ وعدم جزم النّصارى بأنّ واحداً من هذه الأناجيل أو غيرها هو كلام الله تعالى، دليل على أنّ الإنجيل الحقيقي إن كان واحداً من تلك الأناجيل فإنّه قد ضاع من النّصارى؛ لأنّهم لم يستطيعوا تمييزه عن غيره من الأناجيل المحرَّفة.

ولا شكّ في أنّ اختلاف هذه الأناجيل دليل واضح على أنّها إمّا محرَّفة، أو أنّها من صنع البشر كما قلنا آنفاً.

وقد ورد في القرآن الكريم الاستدلال على أنّ القرآن من عند الله تعالى، بأنّه لو كان من عند غير الله لكان فيه اختلاف كثير؛ لأنّ كلّ ما يصنعه البشر لا يمكن أن يخلو من التضارب والاختلاف.

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ومن الأمور الغريبة أنّ الأناجيل اختلفت في أمور لا ينبغي الاختلاف فيها أصلاً، مثل: اختلافها في نَسَب السيّد المسيح عليه السلام، الذي ينبغي أن يكون أوّل ما تتّفق عليه.

فإنّ متّى ذكر في إنجيله نسب يسوع كاملاً، ثمّ قال:

١٧ فَجَمِيعُ الأَجْيَالِ مِنْ إِبْراهِيمَ إِلَى دَاوُدَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ دَاوُدَ إِلَى سَبْيِ بَابِلَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً، وَمِنْ سَبْيِ بَابِلَ إِلَى الْمَسِيحِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ جِيلاً.

فيكون بين النبي داود عليه السلام، وبين يسوع بحسب إنجيل متّى ٢٧ جيلاً، وهذا مختلف بشكل كبير مع ما ورد في إنجيل لوقا حيث ورد أن بين داود ويسوع ٤٢ جيلاً[1].

قال وليم ماكدونالد:

> يُولي متَّى انتباهاً خاصًّا لحقيقة وجود ثلاثة أقسام، يكوِّن كلٌّ منها أربعة عشر جيلاً. ومع ذلك، نعرف من العهد القديم أنّ أسماء معيّنة مفقودة من القائمة. فعلى سبيل التمثيل، بين يورام وعزيّا (ع٨) حكم أخزيا ويوآش وأمصيا ملوكاً (راجع ٢مل٨ -١٤؛ ٢أخ٢١ -٢٥). يبدو أنّ سلسلتي النسب في إنجيل متّى وإنجيل لوقا تتداخلان عند ذكر اسمَي شألتيئيل وزربّابل (مت١: ١٢، ١٣؛ لو٣: ٢٧). ويبدو من المستغرب أنّ نسب يوسف ونسب مريم يتداخلان مع هذين الرجلين، ليعودا فينفصلا مرّة أخرى. وتزداد المشكلة تعقيداً عندما نلاحظ أنّ كِلا الإنجيلين يتبع عزرا ٣: ٢ في وضع زربّابل في القائمة على أنّه ابن شألتيئيل، فيما في أخبار الأيام الأولى ٣: ١٩ نجده مذكوراً كأحد أولاد فدايا. **توجد صعوبة ثالثة وهي أنّ متّى يحسب ٢٧ جيلاً من داود إلى المسيح، فيما يحسب لوقا ٤٢ جيلاً**. فحتَّى لو كان البشيران لا يرسمان شجرة العائلة نفسها، فوجود فروقات كبيرة في عدد الأجيال ما يزال يبدو أمراً غريباً. فما هو الموقف الذي يجب على دارس الكتاب اتّخاذه تجاه هذه الصعوبات والفروقات الظاهريّة؟[2].

ومن ضمن الاختلافات الكثيرة الموجودة في الإنجيل في موضوع واحد وهو قتل السيد المسيح عليه السلام، ما ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن عشر، من أنّ الذين قبضوا على المسيح عليه السلام هم الجند والقائد وخدّام اليهود، ثمّ مضوا

---

(١) راجع إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث: ٢٣-٣٨.

(٢) تفسير إنجيل متى لماكدونالد: ٢٩.

به إلى الكاهن حنَّان، قال:

[١٢] ثُمَّ إِنَّ الْجُنْدَ وَالْقَائِدَ وَخُدَّامَ الْيَهُودِ قَبَضُوا عَلَى يَسُوعَ وَأَوْثَقُوهُ، [١٣] وَمَضَوْا بِهِ إِلَى حَنَّانَ أَوَّلاً، لأَنَّهُ كَانَ حَمَا قَيَافَا الَّذِي كَانَ رَئِيسًا لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ. [١٤] وَكَانَ قَيَافَا هُوَ الَّذِي أَشَارَ عَلَى الْيَهُودِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ.

ثم قال: [٢٤] وَكَانَ حَنَّانُ قَدْ أَرْسَلَهُ مُوثَقًا إِلَى قَيَافَا رَئِيسِ الْكَهَنَةِ.

ثمّ بعد أن سأل قيافا يسوع عدّة مسائل قال: [٢٨] ثُمَّ جَاؤُوا بِيَسُوعَ مِنْ عِنْدِ قَيَافَا إِلَى دَارِ الْوِلاَيَةِ، وَكَانَ صُبْحٌ.

ولكن ورد في الأناجيل الثلاثة الأخرى أنّ الذين قبضوا على المسيح عليه السلام هم رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، وهم الذين مضوا به إلى بيلاطس.

ففي إنجيل متّى الإصحاح ٢٧، قال:

١ وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ تَشَاوَرَ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَشُيُوخُ الشَّعْب عَلَى يَسُوعَ حَتَّى يَقْتُلُوهُ، ٢ فَأَوْثَقُوهُ وَمَضَوْا بِهِ وَدَفَعُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ الْبُنْطِيِّ الْوَالِي.

وفي إنجيل مرقس، الإصحاح الخامس عشر، قال:

١ وَلِلْوَقْتِ فِي الصَّبَاحِ تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ، فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ.

وأمّا في إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث والعشرين، فإنّ الذين جاؤوا بيسوع إلى بيلاطس هم الجمهور، لا رؤساء الكهنة. قال:

١ فَقَامَ كُلُّ جُمْهُورِهِمْ وَجَاؤُوا بِهِ إِلَى بِيلاَطُسَ.

وأيضاً فإنّ الوارد في إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٣ أنّ بيلاطس بعد أن استجوب يسوع أرسله إلى هيرودس، وهيرودس استجوب يسوع، فلم يجبه بشيء، فاستحقره، ثمّ أعاده إلى بيلاطس.

وأمّا في باقي الأناجيل فإنّه بعد أن استجوبه بيلاطس، وأصرَّ اليهود على قتله، أمر بصلبه.

مع أنّ المذكور في إنجيل متَّى أنّ هيرودس كان ميّتاً في ذلك الوقت؛ فقد ذُكر في الإصحاح الثاني من إنجيل متَّى أنّ هيرودس أراد أن يقتل يسوع بعد ولادته، فأخذه يوسف النّجار وهو زوج مريم بنت عمران، وأخذ معه أم يسوع، ومضى بهما إلى مصر، ولم يرجع إلى فلسطين إلّا بعد هلاك هيرودس.

قال متَّى:

١٩فَلَمَّا مَاتَ هِيرُودُسُ، إِذَا مَلاَكُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي حُلْمٍ لِيُوسُفَ فِي مِصْرَ ٢٠قَائِلاً: «قُمْ وَخُذِ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَاذْهَبْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّهُ قَدْ مَاتَ الَّذِينَ كَانُوا يَطْلُبُونَ نَفْسَ الصَّبِيِّ». ٢١فَقَامَ وَأَخَذَ الصَّبِيَّ وَأُمَّهُ وَجَاءَ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. ٢٢وَلكِنْ لَـمَّا سَمِعَ أَنَّ أَرْخِيلاَوُسَ يَمْلِكُ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ عِوَضًا عَنْ هِيرُودُسَ أَبِيهِ، خَافَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هُنَاكَ. وَإِذْ أُوحِيَ إِلَيْهِ فِي حُلْمٍ، انْصَرَفَ إِلَى نَوَاحِي الْجَلِيلِ. ٢٣وَأَتَى وَسَكَنَ فِي مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا نَاصِرَةُ، لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالأَنْبِيَاءِ: «إِنَّهُ سَيُدْعَى نَاصِرِيًّا».

وأيضاً جاء في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٧ أنّ اليهود أعطوا يسوع قبل صلبه خلَّا ممزوجاً بمرارة، فلمّا ذاقه لم يرد أن يشرب. قال:

٣٣وَلَمَّا أَتَوْا إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ جُلْجُثَةُ، وَهُوَ الْمُسَمَّى «مَوْضِعَ الْجُمْجُمَةِ» ٣٤أَعْطَوْهُ خَلًّا مَمْزُوجًا بِمَرَارَةٍ لِيَشْرَبَ، وَلَـمَّا ذَاقَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَشْرَبَ.

وأمّا في إنجيل مرقس الإصحاح ١٥ فإنّهم أعطوه خمراً ممزوجاً بمُرّ فلم يشرب، قال:

٢٢وَجَاؤُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ «جُلْجُثَةَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ «جُمْجُمَةٍ». ٢٣وَأَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ يَقْبَلْ.

بينما ورد في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٩، أنّ يسوع قال وهو مصلوب قبل موته: إنّه عطشان، فأعطوه خلًّا، فشرب. قال:

٢٨بَعْدَ هذَا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ قَدْ كَمَلَ، فَلِكَيْ يَتِمَّ الْكِتَابُ قَالَ: «أَنَا عَطْشَانُ». ٢٩وَكَانَ إِنَاءٌ مَوْضُوعًا مَمْلُوًّا خَلًّا، فَمَلأُوا إِسْفِنْجَةً مِنَ الْخَلِّ، وَوَضَعُوهَا عَلَى زُوفَا وَقَدَّمُوهَا إِلَى فَمِهِ. ٣٠فَلَمَّا أَخَذَ يَسُوعُ الْخَلَّ قَالَ: «قَدْ أُكْمِلَ». وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ.

وأمّا في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٧، فقد ورد أنّ رجلاً ركض وجاء بالخلّ له لما نادى يسوع ربّه إيليَّا. قال:

٤٦وَنَحْوَ السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «إِيلِي، إِيلِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» أَيْ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ٤٧فَقَوْمٌ مِنَ الْوَاقِفِينَ هُنَاكَ لَمَّا سَمِعُوا قَالُوا: «إِنَّهُ يُنَادِي إِيلِيَّا». ٤٨وَلِلْوَقْتِ رَكَضَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَأَخَذَ إِسْفِنْجَةً وَمَلأَهَا خَلاً وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ. ٤٩وَأَمَّا الْبَاقُونَ فَقَالُوا: «اتْرُكْ. لِنَرَى هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا يُخَلِّصُهُ!». ٥٠فَصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضًا بِصَوْتٍ عَظِيمٍ، وَأَسْلَمَ الرُّوحَ.

ومن الاختلافات ما ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٩، من أنّ يسوع حمل صليبه إلى موضع صلبه، قال:

١٦فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ. فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. ١٧فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ»، ١٨حَيْثُ صَلَبُوهُ، وَصَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ.

وأمّا في الأناجيل الأخرى فإنّ الذي حمل صليبه هو رجل قيرواني كان مجتازاً، اسمه سمعان.

قال: ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ. ٢١فَسَخَّرُوا رَجُلاً مُجْتَازًا كَانَ آتِيًا مِنَ

الْحَقْلِ، وَهُوَ سِمْعَانُ الْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو أَلَكْسَنْدَرُس وَرُوفُس، لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ.

وأمّا ما قاله يسوع قبل أن يسلم الرُّوح، فالمذكور في إنجيل مرقس، الإصحاح الخامس عشر ما يلي:

٣٣وَلَـمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ، كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. ٣٤وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «إِلُوِي، إِلُوِي، لِمَا شَبَقْتَنِي؟» اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلهِي، إِلهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ ٣٥فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ لَـمَّا سَمِعُوا: «هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا». ٣٦فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلاً: «اتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ!». ٣٧فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ.

ويشبهه ما في إنجيل متّى، الإصحاح ٢٧، إلا أنّه قال: إيلي، إيلي... الخ.

ولكن في إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٣ قال:

٤٤وَكَانَ نَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ، فَكَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. ٤٥وَأَظْلَمَتِ الشَّمْسُ، وَانْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ مِنْ وَسْطِهِ. ٤٦وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَـمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ.

وأيضاً قد ورد في إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع عشر، أنّ ممّن شهد صَلْبه: أمُّه مريم بنت عمران، قال:

٢٥وَكَانَتْ وَاقِفَاتٍ عِنْدَ صَلِيبِ يَسُوعَ، أُمُّهُ، وَأُخْتُ أُمِّهِ مَرْيَمُ زَوْجَةُ كِلُوبَا، وَمَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ. ٢٦فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ، وَالتِّلْمِيذَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا، قَالَ لأُمِّهِ: «يَا امْرَأَةُ، هُوَ ذَا ابْنُكِ». ٢٧ثُمَّ قَالَ لِلتِّلْمِيذِ: «هُوَ ذَا أُمُّكَ». وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيذُ إِلَى خَاصَّتِهِ.

وأمّا في الأناجيل الأخرى فلم يرد فيها أنّ أُمّ يسوع كانت حاضرة عند

صلبه، ولو كانت حاضرة لكان ذِكْرها أهمّ من ذكر غيرها.

قال في إنجيل مرقس، الإصحاح ١٥:

٤٠وَكَانَتْ أَيْضًا نِسَاءٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، بَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ الصَّغِيرِ وَيُوسِي، وَسَالُومَةُ، ٤١اللَّوَاتِي أَيْضًا تَبِعْنَهُ وَخَدَمْنَهُ حِينَ كَانَ فِي الْجَلِيلِ. وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ اللَّوَاتِي صَعِدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ.

ومن الاختلافات ما ورد في إنجيل مرقس، الإصحاح ١٥ من أنّ صلب يسوع كان في الساعة الثالثة. قال:

٢٢وَجَاؤُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ «جُلْجُثَةَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ «جُمْجُمَةٍ». ٢٣وَأَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ يَقْبَلْ. ٢٤وَلَـمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ؟ ٢٥وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ.

وأمّا في إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٩ فإنّ يسوع لم يُصلب إلا بعد الساعة السادسة. قال:

١٣فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا». ١٤وَكَانَ اسْتِعْدَادُ الْفِصْحِ، وَنَحْوُ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَقَالَ لِلْيَهُودِ: «هُوَ ذَا مَلِكُكُمْ!». ١٥فَصَرَخُوا: «خُذْهُ! خُذْهُ! اصْلِبْهُ!» قَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَأَصْلِبُ مَلِكَكُمْ؟»، أَجَابَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ: «لَيْسَ لَنَا مَلِكٌ إِلَّا قَيْصَرَ!». ١٦فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ. فَأَخَذُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ. ١٧فَخَرَجَ وَهُوَ حَامِلٌ صَلِيبَهُ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ «مَوْضِعُ الْجُمْجُمَةِ» وَيُقَالُ لَهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ «جُلْجُثَةُ»، ١٨حَيْثُ صَلَبُوهُ، وَصَلَبُوا اثْنَيْنِ آخَرَيْنِ مَعَهُ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا، وَيَسُوعُ فِي الْوَسْطِ.

هذا غيض من فيض من الاختلافات الواردة في أهمّ أربعة أناجيل عند

النّصارى في حادثة واحدة يُفترض أنّها حادثة مهمّة عندهم، وهي صَلْب المسيح، ولو تتبَّعنا باقي الاختلافات بين هذه الأناجيل لوجدنا فيها الكثير الكثير.

قال ول ديورانت: وفي عام ١٧٩٦ أشار هردر إلى ما بين مسيح متّى، ومرقس، ولوقا، ومسيح إنجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها[(١)].

ومراده أنّ أناجيل متّى ومرقس ولوقا تصوّر المسيح عليه السلام بصفات مختلفة كلّيّة عن الصفات المذكورة للمسيح في إنجيل يوحنا، لدرجة لا يمكن التوفيق بينها.

وحاصل الكلام أنّ كلّ هذه الاختلافات تدلّ بوضوح على أنّ هذه الأناجيل ليست من كلام الله تعالى، إمّا لأنّها محرّفة أو مختلقة من الأساس.

وعليك عزيزي القارئ بمطالعة كتاب (حَلّ مشاكل الكتاب المقدّس) للقسّ منسي يوحنّا، فإنّه ذكر ٧٥ تناقضاً بين أسفار العهد الجديد، ومع أنّه قد حاول جاهداً أن يجيب عليها، ولكنّ الخرق قد اتّسع على الراقع، فكانت أكثر إجاباته ملفّقة تضحك الثكلى.

٦- **أنّ الأناجيل كُتبتْ بعد صلب المسيح:** فإنّ الأناجيل الأربعة ذكرت بالتفصيل حادثة صلب يسوع وموته، ومن الواضح جدًّا من سياقها أنّها مكتوبة بعد موته، وأنّ من كتبها رجال آخرون يصيبون ويخطئون، ولهذا اختلفوا في وصف تفاصيل تلك الأحداث كما بيَّنّاه آنفاً، ولو كانت هذه الأناجيل من عند الله تعالى لكانت مكتوبة في زمن السيّد المسيح عليه السلام؛ لأنّه هو الذي ينزل عليه الوحي من عند الله تعالى، وأمّا الذين كتبوا الأناجيل، وهم: متّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا فليسوا بأنبياء يوحى إليهم.

---

(١) قصة الحضارة ١١/ ٢٠٣.

وأمّا قول وليم ماكدونالد في كتابه (تأمّل في الكتاب): «وفي الأناجيل نجد أنّ الرُّوح القدس استخدم أناساً، فقدَّم لنا بواسطتهم سيرة الرّبّ يسوع المسيح»[1] فهو باطل؛ لأنّ هذه الأناجيل لو كانت بواسطة الرُّوح القدس لما تعدّدت، فإنّ سُنّة الله تعالى الجارية في أنبيائه أنّه يُنزل على النبي كتاباً واحداً، لا كتباً متعدّدة مختلفة فيما بينها، ولو سلّمنا أنّ سُنّة الله تعالى في يسوع قد اختلفت، فإنّ السُنّة الجارية أن يُنزل الله كتابه على نبيِّه، وهو يسوع نفسه، لا على أَتْباعه أو غيرهم مثل: متَّى، ومرقس، ولوقا، ويوحنّا الذين هم ليسوا بأنبياء!

ومن الواضح جدًّا أنّ هؤلاء الأربعة كانوا مؤرِّخين لما حدث ليسوع في تلك الفترة إلى حين وفاته، حيث سجّلوا ما شاهدوه وما نقله لهم آخرون، ثمّ بعد ذلك أضيفت كتاباتهم إلى الكتاب المقدّس، وسُمّيت أناجيل.

ويدلّ على ذلك أنّ لوقا الذي لم يكن معاصراً ليسوع، ذكر في الإصحاح الأوّل من إنجيله أنّه نقل ما ذَكَرَه له مَنْ وصفهم بأنّهم كانوا معاينين، أي شهود عيان.

قال لوقا:

[1]إِذْ كَانَ كَثِيرُونَ قَدْ أَخَذُوا بِتَأْلِيفِ قِصَّةٍ فِي الأُمُورِ الْمُتَيَقَّنَةِ عِنْدَنَا، [2]كَمَا سَلَّمَهَا إِلَيْنَا الَّذِينَ كَانُوا مُنْذُ الْبَدْءِ مُعَايِنِينَ وَخُدَّامًا لِلْكَلِمَةِ، [3]رَأَيْتُ أَنَا أَيْضًا إِذْ قَدْ تَتَبَّعْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الأَوَّلِ بِتَدْقِيق، أَنْ أَكْتُبَ عَلَى التَّوَالِي إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَزِيزُ ثَاوُفِيلُسُ، [4]لِتَعْرِفَ صِحَّةَ الْكَلاَمِ الَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ.

وقوله: إنّه تتبّع كلّ شيء من الأول، وأنّه تسلّم ما كتبه عن المعاينين للأحداث، ونسبته الكتابة إلى نفسه، دليل على أنّه هو كاتب ما سُمّي بعد ذلك بإنجيل لوقا، وأنّه لم يكن بوحي من الرُّوح القدس كما يزعمون، ولو كان

---

(١) تأمّل في الكتاب: ٧٨.

كذلك لصرَّح كُتَّاب الأناجيل بذلك، فإنّه أقوى من قول لوقا: «إنّه نقله عن شهود عيان» ربّما يكونون كاذبين أو مخطئين في سرد بعض الأحداث.

٧- **اعتراف النّصارى بتحريفات الكتاب المقدّس:** فإنّ علماء النّصارى أنفسهم يعترفون بأنّ العهد الجديد فيه تحريفات وأخطاء لا تكاد تُعَدّ، وكلماتهم في ذلك كثيرة.

منها: ما ذُكر في الطبعة الثالثة من الكتاب المقدّس، طبعة دار المشرق في بيروت تحت عنوان: مدخل إلى العهد الجديد، حيث ورد ما يلي:

يَظهر العهد الجديد بمظهر مجموعة مؤلّفة من سبعة وعشرين سفراً مختلفة الحجم، وُضعت كلّها باليونانية، ولم تجر العادة أن يُطلق على هذه المجموعة عبارة «العهد الجديد» إلا في أواخر القرن الثاني، فقد نالت الكتابات التي تؤلِّفه رويداً رويداً منزلة رفيعة، حتى أصبح لها من الشأن في استعمالها ما لنصوص العهد القديم التي عدّها المسيحيّون زمناً طويلاً كتابهم المقدّس الأوحد، وسمّوها «الشريعة والأنبياء»، وفقاً للاصطلاح اليهودي في تلك الأيام[١].

أي أنّ المسيحيّين في أوائل القرن الثاني الميلادي جمعوا لهم مجموعة من الأسفار لم تنل صفة القداسة عندهم إلا بعد ذلك.

إلى أن قال كاتب هذا المدْخَل:

ويبدو أنّ المسيحيّين حتى ما يقرب من السنة ١٥٠، تدرَّجوا من حيث لم يشعروا بالأمر إلا قليلاً جدًّا إلى الشروع في إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدّسة، وأغلب الظنّ أنّهم جمعوا في بدء أمرهم رسائل بولس، واستعملوها في حياتهم الكنسية، ولم تكن غايتهم قط أن يؤلّفوا ملحقاً بالكتاب المقدّس، بل كانوا يَدَعون الأحداث

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد: ٧.

توجّههم[١].

ثم قال:

ومهما يكن من أمر، فليس هناك قبل السنة ١٤٠ أيّ شهادة تثبت أنّ النّاس عرفوا مجموعة من النّصوص الأنجيلية المكتوبة، ولا يُذكر أنّ لمؤلَّف من تلك المؤلَّفات صفة ما يُلزم، فلم يظهر إلا في النّصف الثاني من القرن الثاني شهادات ازدادت وضوحاً على مرّ الزمن بأنّ هناك مجموعة من الأناجيل، وأنّ لها صفة ما يُلزم، وقد جرى الاعتراف بتلك الصفة على نحو تدريجي[٢].

ثمّ ذكر تحت عنوان «نصّ العهد الجديد»، ما في نُسَخ العهد الجديد من الاختلاف الكثير، فقال:

إنّ نُسَخ العهد الجديد التي وصلت إلينا ليست كلّها واحدة، بل يمكن المرء أن يرى فيها فوارق مختلفة الأهمية، ولكن عددها كثير جدًّا على كلّ حال، هناك طائفة من الفوارق لا تتناول سوى بعض قواعد الصرف والنحو أو الألفاظ أو ترتيب الكلام، ولكن هناك فوارق أخرى بين المخطوطات تتناول معنى فقرات برمّتها.

واكتشاف مصدر هذه الفوارق ليس بالأمر العسير، فإنّ نصّ العهد الجديد قد نُسخ ثمّ نُسخ طوال قرون كثيرة بيد نُسّاخ صلاحهم للعمل متفاوت، وما من واحد منهم معصوم من مختلف الأخطاء التي تحول دون أن تتّصف أيّ نسخة كانت - مهما بُذل فيها من الجهد - بالموافقة التامّة للمثال الذي أُخذت منه، يضاف إلى ذلك أنّ بعض النسَّاخ حاولوا أحياناً، عن حسن نيّة، أن يصوّبوا ما جاء في مثالهم، وبدا لهم أنّه يحتوي على أخطاء واضحة أو قلّة دقّة في التعبير اللاهوتي، وهكذا

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد: ٨.

(٢) الكتاب المقدس، العهد الجديد: ١٣.

أدخلوا إلى النصّ قراءات جديدة تكاد تكون كلّها خطأ...

ومن الواضح أنّ ما أدخله النُّسَّاخ من التبديل على مرّ القرون تراكم بعضه على بعضه الآخر، فكان النصّ الذي وصل آخر الأمر إلى عهد الطباعة مُثقلاً بمختلف ألوان التبديل ظهرت في عدد كبير من القراءات.

والمثال الأعلى الذي يهدف إليه علم نقد النّصوص هو أن يمحِّص هذه الوثائق المختلفة لكي يقيم نصًّا أقرب ما يمكن من الأصل الأول، ولا يُرجى في حال من الأحوال الوصول إلى الأصل نفسه[١].

ومنها: ما قاله ويل ديورانت في (قصة الحضارة)، فإنّه ذكر كلاماً خطيراً حول الأناجيل الأربعة وما فيها من تحريف، حيث قال:

أمّا الأناجيل فليس أمرها بهذه السهولة، ذلك أنّ الأربعة الأناجيل التي وصلت إلينا هي البقية الباقية من عدد أكبر منها كثيراً، كانت في وقت ما منتشرة بين المسيحيّين في القرنين الأول والثاني. واللفظ الدالّ على الإنجيل Gospel (وهو في اللغة الإنكليزية القديمة Gopspel أي أخبارٌ طيِّبة) ترجمة للفظ اليوناني Euangelion، والذي يبدأ به إنجيل مرقس، ومعناه «أخبارٌ سارّة»- هي أنّ المسيح قد جاء، وأنّ ملكوت الله قريبة المنال. وأناجيل متّىٰ، ومرقس، ولوقا، يمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة: ذلك بأنّ محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها في أعمدة متوازية «والنظر إليها كلّها مجتمعة»؛ وقد كُتبت كلّها باللغة اليونانية الدارجة، ولم تكن نماذج طيّبة في النّحو أو في الصقل الأدبي[٢].

إلى أن قال:

وترجع أقدم النُّسَخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن

---

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد: ١٣.

(٢) قصة الحضارة ١١/ ٢٠٦.

الثالث. أمّا النُّسخ الأصلية فيبدو أنّها كُتبت بين عامي ٦٠، ١٢٠م، ثمّ تعرّضت بعد كتابتها مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل، ولعلّها تعرّضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها[1].

ثمّ قال:

وملاك القول أنّ ثمّة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر، وأنّ فيها نقطاً تاريخية مشكوكاً في صحّتها، وكثيراً من القصص الباعثة على الرّيبة، والشبيهة بما يُروى عن آلهة الوثنّيين، وكثيراً من الحوادث التي يبدو أنّها وُضعت عن قصد لإثبات وقوع النبوءات الواردة في العهد القديم، وفقرات كثيرة ربّما كان المقصود منها تقدير أساس تاريخي لعقيدة متأخّرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخّر من طقوسها. لقد كان المبشِّرون بالإنجيل يرون كما يرى شيشرون وسالست وتاستس أنّ التاريخ وسيلة لنشر المبادئ الخلقية السامية، ويبدو أنّ ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرّضت لما تتعرّض له ذاكرة الأميّين من ضعف وعيوب، ولما يرتكبه النُّسَاخ من أخطاء أو «تصحيح».

ثمّ ذكر ما في تلك الأناجيل من الأخبار السيّئة عمّن يسمّونهم رُسُل يسوع، وعن يسوع نفسه، فقال:

وإنّ المبشِّرين بالإنجيل، رغم ما يتّصفون به من تحيّز وميل مع الهوى ومن الأخذ بأفكار دينية سابقة، ليسجِّلون كثيراً من الحادثات التي يعمد المخترعون الملفّقون إلى إخفائها- كتنافس الرُّسُل على المنازل العليا في ملكوت الله، وفرارهم بعد القبض على يسوع، وإنكار بطرس، وعجز المسيح عن إتيان المعجزات في الجليل، وإشارة بعض مَن سمعوه

(١) نفس المصدر ١١/ ٢٠٧.

إلى ما عسى أن يكون مصاباً به من الجنون، وتشكّكه الأول في رسالته، واعترافه بأنّه يجهل أمر المستقبل، وما كان يمرّ به من لحظات يمتلئ قلبه فيها حقداً على أعدائه، وصيحة اليأس التي رفع بها عقيرته وهو على الصليب؛ إنّ مَن يطّلع على هذه المناظر لا يشكّ قط في أنّ وراءها شخصية تاريخية حقّة[1].

ومنها: ما قاله الدكتور بارت إيرمان Dr. Bart Ehrman وهو بروفيسور في الدراسات الدينية في جامعة شمال كارولينا بالولايات المتحدة، في محاضرة مسجّلة له في جواب سؤال هو: هل الإنجيل جدير بالثّقة أم لا؟ حيث أجاب بما يلي:

وجهة نظري هي أنّ الإنجيل يحوي أخطاء، وتناقضات، وتعارضات، وأخطاء واقعية، وتبديل للنّصوص بالإضافة والحذف والإفساد فيها، هذه ليست وجهة نظر فردية تخصّ أستاذ ليبرالي يُدرِّس في تشابل هيل، ولكنّه بالفعل هو الرأي المجمع عليه بين العلماء الناقدين في الولايات المتحدة وأوروبا...[2].

٨- **أن الإنجيل فيه عبارات مدسوسة:** فإنّ أغلب علماء النّصارى يعتقدون أنّ بعض ما في الإنجيل الحالي مدسوس فيه، ومن أمثلة ذلك: الفقرات ٩-٢٠ من الإصحاح ١٦ من إنجيل مرقس، واعترافاتهم بأنّها أُضيفت بعد ذلك كثيرة:

منها: ما ورد في دائرة المعارف الكتابية التي كتبها مجموعة من القساوسة، في مادة: «إنجيل مرقس»، فإنّهم قالوا حول هذا الإنجيل:

أهمّ المشكلات المتعلّقة بالنصّ هي ما يختصّ بالجزء الأخير من

---

(١) نفس المصدر ١١/ ٢١٠.

(٢) https://www.youtube.com/watch?v=zc5G1WEuvrc.

الإصحاح السادس عشر (١٦: ٩-٢٠)، فبرجون وميللر وسالمون يعتقدون أنّه نصٌّ أصيل، ويفترض ميللر أنّه إلى هذه النقطة، وقد سجّل مرقس بصورة عملية أقوال بطرس، ولسببٍ ما كتب الأعداد من ٩-٢٠ بناء على معلوماته هو، **ولكنّ معظم العلماء يعتبرونها غير مرقسية أصلاً**، ويعتقدون أنّ العدد الثامن ليس هو الخاتمة الملائمة، ولو أنّ مرقس كتب خاتمة فلا بدّ أنّ هذه الخاتمة قد فُقدت، وأنّ الأعداد من ٩-٢٠ التي تضمّ تراثاً من العصر الرسولي، قد أضيفت بعد ذلك[١].

ومنها: ما جاء في كتاب (تاريخ الكتاب المقدّس: منذ التكوين وحتى اليوم)، حيث قال المؤلّفان في كلامهما حول إنجيل مرقس:

وينتهي الإنجيل بشكل مفاجئ في المخطوطات القديمة، بقصة النّساء عند قبر الرّبّ يسوع الفارغ، ولم يقلن شيئاً ممّا شاهدنه، «لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ» (مرقس ١٦: ٨).

وقد أربكت هذه النّهاية بعض المسيحيّين منذ البداية، بسبب ما يبدو من سلبيّتها، فلماذا لم تبتهج النّسوة بالقيامة، وللإجابة على ذلك قام أحدهم في القرن الثاني، بإضافة الأعداد الموجودة الآن في غالبية الكتب المقدّسة الآن (مر ١٦: ٩-٢٠) مستمدًّا ما كتبه من الأناجيل الأخرى وأعمال الرسل، ومنذ ذلك الوقت والعلماء يظنّون أنّ النهاية الأصلية لإنجيل مرقس يمكن أن تكون قد فُقدت، أو أنّ مرقس لم يكمل إنجيله أبداً[٢].

ومنها: ما ورد في طبعة الكتاب المقدّس، الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصليّة، التي وُصفت في المقدّمة بأنّها أوّل ترجمة عربية وضعتها لجنة مؤلَّفة من علماء كتابيّين ولاهوتيّين ينتمون إلى مختلف الكنائس المسيحيّة، من

---

(١) دائرة المعارف الكتابية ١/ ٤٦٠.

(٢) تاريخ الكتاب المقدس منذ التكوين وحتى اليوم: ٧٣.

كاثوليكيّة وأرثوذكسيّة وإنجيليّة، وأنّ هذه اللجنة استندت في هذه الترجمة إلى أفضل النصوص المطبوعة للكتاب المقدّس في اللغتين: العبريّة واليونانية.

وفي هذه الطبعة بعد أن ذُكرت الفقرات ٩-٢٠ في المتن، ذُكر في الحاشية ما يلي: ما جاء في الآيات ٩ إلى ٢٠ لا يرد في أقدم المخطوطات[(١)].

وهذا يدلّ على أنّ هذه الفقرات أُضيفت بعد ذلك في إنجيل مرقس.

ومنها: ما ورد في الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس، في العهد الجديد، تحت عنوان: مدخل إلى الإنجيل كما رواه مرقس، حيث جاء ما يلي:

> وهناك سؤال لم يلق جواباً: كيف كانت خاتمة الكتاب؟ من المسلَّم به على العموم أنّ الخاتمة كما هي الآن (١٦/ ٩-٢٠) قد أُضيفت لتخفيف ما في نهاية كتاب [مرقس] من توقّف فجائي في الآية ٨. ولكنّنا لن نعرف أبداً هل فُقدتْ خاتمة الكتاب الأصلية؟ أم هل رأى مرقس أنّ الإشارة إلى تقليد التراثيات في الجليل في الآية لا تكفي لاختتام روايته[(٢)].

فإذا كانت هذه الفقرات مضافة إلى إنجيل مرقس، والخاتمة الأصلية ربّما تكون محذوفة منه، فهذا يشير بنحو واضح إلى أنّ هذا الإنجيل لم يكن بدرجة من الضبط والحصانة التي تمنع القساوسة من الدَّس فيه، ممّا يجعلنا نشكّك في باقي فقرات إنجيل مرقس أيضاً، وفي غيره من الأناجيل الأخرى وغيرها، فلعلّها تعرَّضت إلى تحريف وتبديل وتغيير وإصلاح بنحو تدريجي، وإذا كان الأمر كذلك فكيف يصحّ نسبتها إلى الله تعالى، وقد عبث بها القساوسة والنُّسَّاخ بنحو كثير وممنهج؟!

ومنها: ما ورد في الطبعة المذكورة أيضاً، في العهد الجديد، تحت عنوان:

---

(١) الكتاب المقدس الترجمة العربية المشتركة/ العهد الجديد: ٨٦.

(٢) الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس/ العهد الجديد: ١٢٤.

مدخل إلى الإنجيل كما رواه يوحنّا، حيث جاء ما يلي:

أمّا رواية المرأة الزانية (٧/ ٥٣-٨/ ١١) فهناك إجماع على أنّها من مرجع مجهول، فأُدخلت في زمن لاحق (وهي مع ذلك جزء من «قانون» الكتاب المقدّس)[١].

ومنها: ما ورد أيضاً في الطبعة المذكورة، في العهد الجديد، تحت عنوان: مدخل إلى رسائل يوحنّا، حيث ورد ما يلي:

ولكن هناك فقرة كانت في الماضي موضوع مناظرة مشهورة، ومن الأكيد أنّها غير مثبتة، إنّها جملة معترضة وردت في (٥/ ٦-٨) وهي التي بين قوسين في هذه الجملة: «الذين يشهدون هم ثلاثة (في السماء، وهم الآب، والكلمة، والرُّوح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد، والذين يشهدون هم ثلاثة في الأرض)، الرُّوح والماء والدم، وهؤلاء الثلاثة هم متّفقون». لم يرد هذا النّص في المخطوطات في ما قبل القرن الخامس عشر، ولا في الترجمات القديمة، ولا في أحسن أصول الترجمة اللاتينية، والراجح أنّه ليس سوى تعليق، كُتب في الهامش، ثمّ أُقحم في النّص في أثناء تناقله في الغرب[٢].

ومن المعلوم أنّ هذه العبارة المضافة هي التي أخذ منها النصارى عقيدة التثليث، التي هي أهم عقائدهم.

ولو أردنا أن نتتبّع كلماتهم لوجدنا كثيراً من اعترافاتهم بتحريف الإنجيل، والذي نقلناه قليل من كثير ممّا اعترفوا به من التحريفات التي وقعت في الكتاب المقدّس عامّة، وفي العهد الجديد خاصّة، ولو نقلنا كلّ كلماتهم في هذا الموضوع لطال بنا المقام، ولخرجنا عن موضوع هذا الكتاب، وإنّني أقترح على

(١) الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس/ العهد الجديد: ٢٨٦.

(٢) الترجمة اليسوعية للكتاب المقدّس/ العهد الجديد: ٧٦٤.

القرّاء الأعزاء أن يستمعوا إلى المحاضرة القيّمة التي ألقاها الدكتور بارت إيرمان في تحريف الكتاب المقدّس، فإنّها تعطي صورة واقعية عمّا وقع من تحريفات في الكتاب المقدّس، خصوصاً أنّها صدرت عن عالم مسيحي متخصّص في الدراسات الدينية المسيحية[1].

والنتيجة المتحصَّلة من كلّ ما تقدّم هي أنّنا نخلص إلى أنّ عامّة الأناجيل المعروفة في هذا العصر وما قبله كتبها رجال من غير وحي من الله تعالى، وهي لا تعدو كونها من كلام البشر الخطّائين، ومن التجني على الله تعالى نسبة هذه الأناجيل إليه سبحانه، مع وضوح كثرة الأخطاء والتحريفات فيها، ووضوح ما فيها من تناقضات لا يمكن تبريرها بوجه.

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=pfheSAcCsrE

وتجدها مترجمة للعربية على هذا الرابط:
.https://www.youtube.com/watch?v=QHj_bsrYkrY

ما الدليل على أن القرآن كلام الله؟

السؤال (٤٦): ما هو الدليل الدالّ على أنّ القرآن كلام الله؟

والجواب: أنّ الدليل على ذلك عدّة أمور:

١- **أنّ القرآن كلام مُعجِز:** لأنّه سهل ممتنع، لم يستطع البشر أن يأتوا بمثله منذ عصر الرسالة المحمدية إلى يومنا هذا.

ولأجل ذلك أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يتحدّى العرب الذين كانوا مشهورين في عصره بالفصاحة والبلاغة، بل يتحدّى كافّة الإنس والجنّ بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذه الآية ذكرت أموراً متعدّدة، هي:

١- أنّ موضوع التحدّي هو الإتيان بقرآنٍ آخر مماثل للقرآن الذي كان موجوداً قبل نزول هذه الآية المباركة.

٢- أنّ الذين تحدّاهم النبي ﷺ هم الإنس والجنّ جميعاً.

٣- أنّ التحدّي ليس مخصوصاً بزمان الرسالة، وإنّما هو عامّ لكلّ الأزمنة إلى قيام الساعة.

٤- أنّه لا مانع من تشكيل لجان متعدّدة للإتيان بمثل القرآن.

٥- أنّ التحدّي في الإتيان بمثل القرآن، لا في الإتيان بما هو خير منه.

٦- أنّ نتيجة التحدّي محسومة مسبقاً، وهي القطع بعجز جميع الإنس والجن عن الإتيان بمثل هذا القرآن.

وبعد أن عجز أعداء الإسلام في عصر الرسالة عن أن يأتوا بمثل القرآن خفّف الله التحدّي بالاكتفاء بالإتيان بعشر سور فقط. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

وهذه الآية ذكرت أيضاً أموراً متعدّدة، هي:

١ - أنّ التحدّي في الإتيان بعشر سور فقط من مثل القرآن.

٢ - أنّ الذين تحدّاهم النبي ﷺ هم المكذّبون بالرسالة مع جميع أعوانهم.

ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بعشر سور حتى لو كانت من القِصار.

ثمّ إنّ الله تعالى لما بانَ عجزهم خفّف لهم التحدّي مرّة ثانية، فاقتصر فيه على الاكتفاء بالإتيان بسورة واحدة فقط. فقال سبحانه: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣].

وهذا التحدّي الأخير باقٍ إلى يوم القيامة، وهو شامل لكلّ من في قلبه أدنى شكّ في صدق رسالة النبي ﷺ، والآية تدلّ بوضوح على أنّ كلّ شاكٍّ في نبوّة النبي ﷺ لا بدّ أن يزول شكّه إذا رأى أنّ جميع أعداء الرسالة عاجزون عن الإتيان بسورة واحدة من مثل سور القرآن الكريم.

وهذا دليل في غاية المتانة، يُثبت أنّ القرآن الكريم من عند الله، وأنّ نبيّنا محمّداً ﷺ نبيّ مرسل من قِبَل الله تعالى؛ لأنّ القرآن الكريم لو كان من كلام رسول الله ﷺ لأمكن لفصحاء العرب المعاصرين له أن ينسجوا على منواله، فيأتوا بكلام مشابه له، بل سيكون من السهل جدًّا أن يأتوا بما هو أفضل منه، ولكن لـمّا عجز أدباء العرب عبر القرون المتعاقبة بعد ذلك عن أن يأتوا بسورة واحدة من مثله على الأقل، دلَّ عجزهم هذا على أنّه من كلام الله تعالى المُعْجِز،

الذي لا يستطيع البشر أن يأتوا بمشابه له، كما أنّه برهان واضح على أنّ من جاء به نبيٌّ مرسَل من قِبَل الله تعالى.

وهذا الدليل الواضح كافٍ، ولا نحتاج معه إلى أيّ دليل آخر نستدلّ به على أنّ القرآن كلام الله تعالى، وكلّ من ينكره لا يخلو إمّا أن يكون جاهلاً بليداً، أو مكابراً عنيداً.

٢- خلو القرآن من التناقضات والاختلافات: فإنّ القرآن مع أنّه يتكوّن من ١١٤ سورة مكتوبة في أكثر من ٦٠٠ صفحة فإنّه لا اختلاف فيه ولا تناقض، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولا يخفى أنّ القرآن لو كان من صنع البشر لعُثر فيه على كثير من التناقضات الواضحة التي لا بدّ أن يغفل عنها واضعه مهما أوتي من نباهة وذكاء وفطنة، خصوصاً أنّه نزل في سنين متمادية تقارب ٢٣ سنة، والعرب قديماً قالوا: «لا حافظة لكذوب»، وكلّ كذب وافتراء افتُعل في السنوات الأولى من الدعوة لا بدّ أن يُنسى بعد ذلك، فيؤتىٰ بما يضادّه أو يعارضه، فينتج عن هذا تراكم تناقضات وافرة وتهافت كثير في القرآن الكريم.

إذن عدم وجود أيّ اختلاف في القرآن دليل واضح على أنّه من كلام الله تعالى الذي لا يتناقض كلامه، لا عمداً ولا سهواً ولا غفلة.

وكلّ ما يُظنّ أنّه اختلاف أو تناقض فإنّه ناشئ عن الغفلة وعدم فهم الآيات بصورة صحيحة، وقد بيّن ذلك علماء المسلمين في تفاسيرهم الكثيرة والمشهورة، فمن أرادها فليراجعها.

٣- خلو القرآن من الأخطاء: فإنّ القرآن ليس فيه خطأ واحد واضح الخطأ في جميع الأمور التي تطرّق إليها، سواء في التوحيد أم النبوّة، أم الإمامة،

أم التشريع، أم غير ذلك من الأمور الأخرى التي تطرّق إليها، بما في ذلك الأمور العلمية التي وردت الإشارة إليها فيه، بخلاف الكتاب المقدّس عند النّصارى الذي اعترف علماؤهم بأنّه مملوء بالأخطاء الكثيرة الواضحة التي سبق الكلام فيها.

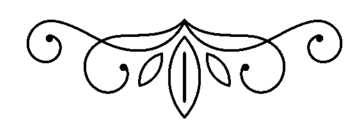
ومن الواضح جدًّا أنّ كلّ كتاب كُتِبَ قديماً أو حديثاً، فإنّه لا بدّ أن يُعثَر فيه على أخطاء كثيرة، إمّا في اللغة، أو في المادة العلمية التي اشتمل عليها ذلك الكتاب، ومن غير المعقول أن يكتب رجلٌ وُلد في مجتمع جاهلي أمّي في مكّة المكرّمة قبل ما يقرب من ١٥ قرناً كتاباً خالياً من كلّ خطأ، إلا إذا كان نبيًّا موحى إليه من الله تعالى؛ لأنّه لو كان كتابه من عنده لكان من الطبيعي جدًّا أنّ يُعثر فيه على أخطاء كثيرة واضحة، خصوصاً في المسائل العلمية التي تكلّم فيها.

إذن عدم وجود أيّ خطأ في القرآن الكريم دليل واضح على أنّه كتاب من عند الله سبحانه، المنزَّه عن كلّ خطأ وزلل.

٤ - **أنّ القرآن الكريم لا يبلى بكثرة الترديد:** أي أنّ القارئ له لا يملّ منه مهما قرأه، ومن أمثلة ذلك أنّ المسلمين يقرؤون سورة الفاتحة في كلّ صلاة من الصلوات الخمس مرّتين على الأقل، أي أنّهم يقرؤون هذه السورة عشر مرات في اليوم، ومع ذلك فإنّهم لا يملّون من كثرة قراءتها، وهذا دليل واضح على أنّ القرآن ليس من كلام البشر؛ لأنّ كلّ كلام قاله البشر مهما كان جميلاً، فإنّ كثرة ترديده تجعله مُمِلّا، وخذ ما شئت من شِعر أو نثر أو حكم، فإنّك إن ردّدته في كلّ يوم عشر مرات فستشعر بعد مدّة بالملل منه، وربّما تصل في النهاية إلى درجة تجعلك لا تطيق سماعه كلّية.

إثارات حول

أحكام فقهية في الإسلام



تعدُّد الزوجات في الإسلام

السؤال (٤٧): لماذا يسمح الإسلام بتعدّد الزوجات إلى أربع؟

والجواب:

١- أنّه حكم إلهي، يجب قبوله: إذ أنّه قد ثبت عند المسلمين أنّ محمد بن عبد الله ﷺ نبيٌّ مُرسَل من قِبَل الله تعالى، وأنّه قد بلّغ عن الله تعالى حكمه بجواز تعدّد الزوجات إلى أربع، وهذا ثابت عن النبي ﷺ بالتواتر القطعي، ولهذا فإنّ المسلمين رغم اختلافاتهم في كثير من المسائل لم يختلفوا في هذه المسألة.

وهذا الحكم قد ورد في القرآن الكريم، في قوله سبحانه: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء: ٣].

إذا عُلم ذلك نقول: إنّ كثيراً من الأحكام الشرعية التي بلّغها رسول الله ﷺ وجاءت في كتاب الله العزيز، لا نعلم وجه الحكمة فيها، ومنها: علّة عدد الركعات المخصوصة في الصلوات اليومية، وعلّة طواف سبعة أشواط في الحجّ والعمرة، وعلّة صوم خصوص شهر رمضان، وغير ذلك كثير.

وعليه، فبما أنّه ثبت لدينا أنّ هذا الحكم - وهو تعدّد الزوجات - بلّغه رسول الله ﷺ عن الله تعالى، فلا شكّ في أنّ مشتمل على مصالح كثيرة للنّاس، ونحن ربّما نعلم بعض تلك المصالح، وربّما لا نعلمها، وعدم علمنا بتلك المصالح لا يستلزم بطلان هذا الحكم، كما لا يُبطل المصلحةَ الواقعية التي نجهل اشتمال الحكم الشرعي عليها.

وهذا الذي قلناه يجري في جميع الأحكام الشرعية التي بلّغها رسول الله ﷺ عن الله تعالى، فإنْ عَلِمْنا بوجه المصلحة فيها فَبِها، وإلّا فمقتضى ثقتنا بالله

تعالى، ومعرفتنا بأنّ أحكامه سبحانه تابعة للمصالح والمفاسد، هو الحكم بوجود مصلحة أو مصالح متعدّدة في تعدّد الزوجات وإن لم نعلمها بالتفصيل.

٢- أنّ تعدّد الزوجات جائز بشروط: فإنّ التعدّد غير جائز مطلقاً، وإنّما هو جائز بشروط، منها العدل بين الزوجات، قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً ﴾، والعدل بين الزوجات مبيَّن في الكتب الفقهية، ولا يراد به العدل في المحبّة القلبية؛ لأنّ هذه المحبّة قهرية غير اختيارية، وغالباً إن لم يكن دائماً لا يتيسّر فيها العدل، ولهذا قال سبحانه: ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ ﴾ [النساء: ١٢٩].

وإنّما يراد به العدل في أداء الحقوق كالنفقة والمبيت، فالواجب - مع التعدّد أو بدونه - أن ينفق الزوج على زوجته بحسب شأنها وما يليق بها، ولكن مع التعدّد ربّما تتوفّر الدواعي عند بعض الرجال لظلم بعض نسائهم في النفقة عليهنّ أو في المبيت معهنّ، وفي هذا تفاصيل مذكورة في كتب الفقه.

٣- أنّه ربّما تكون الحكمة من تجويز تعدّد الزوجات عدّة أمور، منها:

أ - الإحصان التامّ لجميع المسلمين: فإنّ بعض الرجال يكتفي بامرأة واحدة، وبعضهم لا يكتفي بواحدة، فلو لم يكن تعدّد الزوجات مباحاً، لَلَجأ أمثال هؤلاء الرجال لإشباع رغباتهم بالزنا، ولا شكّ في أنّ إباحة التعدّد يتيح لهم ممارسة الجنس في إطار الزواج الذي لا تخفى إيجابياته، ويصرفهم عن الزنا الذي يدفع كثيراً من المضار المالية والاجتماعية، ويجنّبهم الأمراض التناسلية المعروفة التي تنتشر بواسطة الزنا.

كما أنّ كثيراً من النساء ما بين عمر ٣٠ إلى ٤٥ سنة ربّما يفترقن عن أزواجهن بموت الأزواج، أو بالطلاق، وهؤلاء النسوة تتضاءل فرصهنّ في الزواج مرّة ثانية بشكل كبير؛ لأنّ أغلب الشباب المقدمين على الزواج يرغبون في الزواج من الأبكار أو المتقاربات معهم في الأعمار، وإذا كان الشاب عادة ما

يتزوّج - كما في بلادنا - وهو في عمر ٢٥ إلى ٣٠ سنة، فإنّ من تتجاوز هذا العمر من الأرامل والمطلّقات لن تكون لها أيّ فرصة في الزواج بواحد من هؤلاء الشباب، خصوصاً إذا كانت المرأة قد أنجبت عدّة أولاد.

ومع وجود قانون أو تشريع يمنع تعدّد الزوجات في المجتمع ربّما تنعدم فرصهنّ في زواج آخر، وهذا من دون أدنى شكّ يسبِّب لهنّ مشكلة؛ لأنّه من العادة أن تكون رغبتهنّ في الزواج قوية، وحاجتهنّ لمن ينفق عليهنّ ويتكفّل بهنّ موجودة.

ولكن مع إمكان التعدّد فإنّ كلّ أرملة أو مطلَّقة يمكنها أن تتزوّج مرّة ثانية برجل متزوِّج يكبرها في السِّن، وسيكون هو الأنسب بالنسبة إليها بحسب وضعها، كما أنّها ستكون هي الخيار الأنسب له بحسب وضعه؛ لأنّه ربّما لا يتيسَّر له أن يتزوّج بفتاة بكر تصغره بعشرين سنة أو أكثر، أو أنّه لا يريد ذلك.

ب - **تكثير عدد المسلمين**: فإنّ حاجة المسلمين لتكثير عددهم ربّما تكون ملحّة، خصوصاً بعد حصول الحروب الطاحنة والكوارث المدمّرة في بلادهم، وهذه الحاجة لا يمكن رفعها إلا بالزواج من أكثر من امرأة، ولا سيّما أنّ ضحايا الحروب عادة ما يكونون من الرجال المقاتلين.

ولا يخفى أنّ الأُمّة كلّما كثر عدد أفرادها كلّما ازدادت قوّتها، ولا سيّما إذا توفّرت لها قيادة قادرة على الاستفادة من هذه الكثرة كما هو حال الصين التي تفوق جميع دول العالم في عدد السكان، ومع ذلك فإنّها من الدول العظمى في عصرنا الحاضر، ومن أكثر الدول تقدّماً في مجال الصناعة وغيرها.

٤ - **أنّ تعدّد الزوجات قد يكون أفضل الخيارات**: إذ ربّما يكون الزواج بامرأة أخرى هو الخيار الأمثل في حالات كثيرة يدور الأمر فيها بين التعدّد والطلاق، أو بين التعدّد والوقوع في الرذيلة، ويمكن تصوّر ذلك في حالات كثيرة، منها:

أ - ما لو كانت الزوجة الأولى مريضة مرضاً مزمناً يعيق الاستمتاع الجنسي بها، كما لو أصيبت بالشلل أو بمرض مُعدٍ كالأيدز أو نحو ذلك، ففي هذه الحالة يكون زوجها الشاب الفتيّ المحتاج إلى زوجة تحصنه عن الوقوع في المحرّمات مردَّداً بين أمرين: إمّا أن يطلّق زوجته هذه ويستبدلها بأخرى، أو يتزوّج بامرأة ثانية، مع إبقاء زوجته الأولى في عصمته، يقوم برعايتها، ويتكفّل بعلاجها.

وفي مثل هذه الحالة فإنّ الرجل الذي يعيش في بلد يمنع التعدّد، أو يتديَّن بدين يحرّمه، يلجأ عادة إمّا إلى الطلاق، أو ممارسة الرذيلة من أجل سدّ حاجاته الجنسية والعاطفية.

ب - ما إذا كانت الزوجة عاقراً، وزوجها يريد أن تكون له ذُرّيّة، ففي هذه الحالة إمّا أن يطلّق هذا الرجل زوجته التي ربّما تكون قد كبرت في السِّن، وتضاءلت فرص زواجها برجل آخر أو انعدمت، أو يُبقيها في عصمته، ويتزوّج بامرأة أخرى تنجب له أولاداً وذرّية.

٥- أنّ تعدّد الزوجات ليس امتهاناً للمرأة: وذلك للأمور التالية:

أ - أنّ الإسلام أوجب على الرجل أن يقوم بجميع واجباته الزوجية حيال جميع نسائه، وأن يعدل بينهنّ، ولم يجوّز له أن يحابي إحدى زوجاته بظلم زوجة أخرى.

ب - أنّ كلًّا من الزوجة الثانية والثالثة والرابعة اختارت الزواج من رجل عنده زوجة سابقة بطواعية نفسها، ولم يُكْرِهّا أحد على ذلك، ولا شكّ في أنّ كلّ واحدة منهنّ رأت أنّ الزواج من رجل متزوّج هو أفضل الخيارات المتاحة لها، فإنّ كلّ امرأة في الأحوال العادية لا يمكن أن تختار الزواج من رجل عنده زوجة إذا أتيح لها أن تتزوّج برجل آخر لا زوجة له، إلا إذا كان الزواج

بالرجل المتزوِّج فيه مصلحة أكثر بنظرها، كما لو كان ثريًّا أو قادراً على القيام بأمورها وسدّ حاجاتها، ونحو ذلك.

وعليه، فإنّ موافقتها على الزواج برجل عنده زوجة هو خيارها وقرارها الذي لها كامل الحرّية في اتخاذه؛ لأنّه يتعلّق بحياتها هي.

والقانون الغربي الذي أعطى المرأة في عصرنا كامل الحرّية في مصادقة من شاءت من الرجال، ومعاشرتهم معاشرة الأزواج بنحو كامل، لا يمنع امرأتين أو أكثر من العيش مع رجل واحد في منزل واحد، وممارسة الجنس معه بالنحو الذي يكون بين الأزواج، ويعتبر ذلك ممّا تقتضيه حرّيّتها الشخصية التي لا حقّ للآخرين في المساس بها أو الاعتراض عليها، مع أنّ القانون لا ينصّ على أنّ لها أيّ حقّ مالي أو غيره على ذلك الرجل.

فإذا كان الغربيّون يعدّون هذا وضعاً مقبولاً عندهم، بل يجرّمون من يعترض عليهم ويحاول منعهم من فعل ذلك، فمن باب أولى وفقاً لمقاييسهم وموازينهم أنّه لا يحقّ لأيّ أحد أن يعترض على أيّ امرأتين أو ثلاث أو أربع قرّرن الزواج برجل واحد، خصوصاً إذا أُلزم ذلك الرجل بضمان حقوق مالية وغيرها كثيرة لهنّ.

وبهذا يتّضح أنّ المنع من التعدّد فيه تَعَدٍّ على الحرية الشخصية التي ينادي بها الغربيّون، وتدخّل في خصوصيات الأفراد، حيث يتمّ منعهم من ممارسة حياتهم بالطريقة التي يرونها ملائمة لهم.

٦- **أنّ تعدّد الزوجات ليس واجباً في الإسلام:** إذ لو كان واجباً لحصلت كوارث اجتماعية كثيرة؛ لأنّ عدد الرجال في بعض بلاد المسلمين أكثر من عدد النّساء، فقد ذكرت بعض الإحصائيات أنّ معدَّل عدد الرجال لكلّ ١٠٠ امرأة في دولة الإمارات العربية المتّحدة هو ٢٧٤ رجلاً، وفي قطر: ٢٦٥,٥ رجلاً، وفي عمان: ١٩٧ رجلاً، وفي البحرين: ١٦٣ رجلاً، وفي المملكة العربية

السعودية: ١٫١٣٠ رجلاً، وفي الكويت: ١٢٨٫٢ رجلاً[١]، ولهذا السبب فإنّ أكثر المسلمين يتزوّجون بواحدة، خصوصاً مع غلاء المهور وارتفاع تكاليف الزواج والمعيشة وغير ذلك.

إلا أنّ الإسلام يجوّز الزواج من أربع نساء كحدّ أقصى في عدد الزوجات إذا اقتضت حاجة المسلم للزواج بهذا العدد كما يحدث في بعض الأحيان، مع ملاحظة ما ذكرناه من وجوب النفقة عليهنّ، والعدل بينهنّ، وعدم محاباة بعضهنّ بظلم بعضهنّ الآخر.

٧- **أنّ تعدّد الزوجات ليس مختصًّا بالإسلام:** بل هو مشروع في أغلب الأديان السماوية، فقد ورد في الكتاب المقدّس عند النّصارى أنّ بعض الأنبياء كالنبيّ إبراهيم ويعقوب وغيرهما عليهما السلام كانوا متزوّجين من أكثر من امرأة.

فقد ورد في سفر التكوين، الإصحاح ٢٥ أنّ إبراهيم الخليل عليه السلام كانت عنده زوجات وسراري، قال:

(١) وَعَادَ إِبْرَاهِيمُ فَأَخَذَ زَوْجَةً اسْمُهَا قَطُورَةُ، (٢) فَوَلَدَتْ لَهُ: زِمْرَانَ وَيَقْشَانَ وَمَدَانَ وَمِدْيَانَ وَيِشْبَاقَ وَشُوحًا. (٣) وَوَلَدَ يَقْشَانُ: شَبَا وَدَدَانَ. وَكَانَ بَنُو دَدَانَ: أَشُّورِيمَ وَلَطُوشِيمَ وَلأُمِّيمَ. (٤) وَبَنُو مِدْيَانَ: عَيْفَةُ وَعِفْرُ وَحَنُوكُ وَأَبِيدَاعُ وَأَلْدَعَةُ. جَمِيعُ هؤُلاَءِ بَنُو قَطُورَةَ. (٥) وَأَعْطَى إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ. (٦) وَأَمَّا بَنُو السَّرَارِيِّ اللَّوَاتِي كَانَتْ لإِبْرَاهِيمَ فَأَعْطَاهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَطَايَا، وَصَرَفَهُمْ عَنْ إِسْحَاقَ ابْنِهِ شَرْقًا إِلَى أَرْضِ الْمَشْرِقِ، وَهُوَ بَعْدُ حَيٌّ.

ومن زوجاته سارة، حيث ورد في سفر التكوين، الإصحاح ١٧ قوله:

(١٥) وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ امْرَأَتُكَ لاَ تَدْعُو [كذا] اسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ اسْمُهَا سَارَةُ. (١٦) وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ابْنًا.

---

(١) https://goo.gl/vh51Yq.

أُبَارِكُهَا فتكُونُ أُمَمًا، وَمُلُوكُ شُعُوبٍ مِنْهَا يَكُونُونَ».

ومن زوجاته: هاجر، ففي سفر التكوين، الإصحاح ١٦ قال:

(١) وَأَمَّا سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ فَلَمْ تَلِدْ لَهُ. وَكَانَتْ لَهَا جَارِيَةٌ مِصْرِيَّةٌ اسْمُهَا هَاجَرُ، (٢) فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ. (٣) فَأَخَذَتْ سَارَايُ امْرَأَةُ أَبْرَامَ هَاجَرَ الْمِصْرِيَّةَ جَارِيَتَهَا، مِنْ بَعْدِ عَشْرِ سِنِينَ لإِقَامَةِ أَبْرَامَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَأَعْطَتْهَا لأَبْرَامَ رَجُلِهَا زَوْجَةً لَهُ. ٤فَدَخَلَ عَلَى هَاجَرَ فَحَبِلَتْ.

وورد في سفر التكوين، الإصحاح ٢٩، ٣٠ أنّ يعقوب النبي عليه السلام كان عنده أربع زوجات، هنّ: ليئة، وراحيل (وهما ابنتا خالِهِ لابان)، وبلهة، وزلفة (وهما جاريتان)، فراجعه.

وغير ذلك كثير، لا حاجة لاستقصائه.

وأمّا داود وسليمان عليهما السلام فقد تزوّجا نساء كثيرات، حيث ورد في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس أنّ داود عليه السلام كانت عنده سراري ونساء متعدّدات، قال:

(١٢) وَعَلِمَ دَاوُدُ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَثْبَتَهُ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلَ، وَأَنَّهُ قَدْ رَفَّعَ مُلْكَهُ مِنْ أَجْلِ شَعْبِهِ إِسْرَائِيلَ. (١٣) وَأَخَذَ دَاوُدُ أَيْضًا سَرَارِيَ وَنِسَاءً مِنْ أُورُشَلِيمَ بَعْدَ مَجِيئِهِ مِنْ حَبْرُونَ، فَوُلِدَ أَيْضًا لِدَاوُدَ بَنُونَ وَبَنَاتٌ.

ومن نسائه عليه السلام:

١- ميكال بنت شاول (سفر صموئيل الأول ١٨: ٢٠-٢٩).

٢- أبيجايل أرملة نابال (سفر صموئيل الأول ٢٥: ٣٩-٤٢).

٣- أخينوعم من يزرعيل (سفر صموئيل الأول ٢٥: ٤٣).

٤- معكة بنت تلماي ملك جشور (سفر صموئيل الثاني ٣:٣).

٥- حجيث (سفر صموئيل الثاني ٣: ٤).

٦- أبيطال (سفر صموئيل الثاني ٣: ٤).

٧- عجلة (سفر صموئيل الثاني ٣: ٥).

٨- بشبع بنت أليعام أرملة أوريا الحثي (سفر صموئيل الثاني ٣: ١١).

وورد في سفر الملوك، الإصحاح ١١ أنّ سليمان عليه السلام كانت عنده ألف امرأة، قال:

(١) وَأَحَبَّ المَلِكُ سُلَيْمَانُ نِسَاءً غَرِيبَةً كَثِيرَةً مَعَ بِنْتِ فِرْعَوْنَ: مُوآبِيَّاتٍ وَعَمُّونِيَّاتٍ وَأَدُومِيَّاتٍ وَصِيدُونِيَّاتٍ وَحِثِّيَّاتٍ. (٢) مِنَ الأُمَمِ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمُ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: «لاَ تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ لاَ يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ، لأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ». فَالْتَصَقَ سُلَيْمَانُ بِهؤُلاَءِ بِالمَحَبَّةِ. (٣) وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النِّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وَثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ. (٤) وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنَّ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ.

وداود وسليمان عليهما السلام وإن كانا من الملوك عند اليهود والنصارى، لا من الأنبياء، إلا أنّ فعلهما كاشف عن أنّ التعدّد كان جائزاً في شريعتهما.

وفي هذا وغيره دلالة على أنّ التعدّد شريعة الأنبياء السابقين كما هو الحال في الإسلام، أي أنّ الإسلام لم يأت في هذا الأمر بشيء مبتدع لم يأت به الأنبياء السابقون، ولو كان تعدّد الزوجات خطأً فادحاً أو ظلماً عظيماً لما فعله الأنبياء السابقون عليهم السلام، بل إنّ فعلهم له دليل على أنّه أمر محبوب عند الله تعالى.

حرمة التبني في الإسلام

السؤال (٤٨): لماذا يحرِّم الإسلام تبنّي الأبناء؟

الجواب:

إذا كان المراد بالتبنّي هو كفالة الطفل الذي ليس له من يقوم بكفالته، من دون أن يُنسب الطفل المتبنَّىٰ إلى الرجل المتبنِّي، فإنّ الإسلام حثّ جميع المسلمين على القيام بدور الآباء تجاه هؤلاء الأطفال الذين فقدوا آباءهم لأيّ سبب كان، أو تَرَكهم آباؤهم من دون عناية أو اهتمام أو تربية، وجعل رعاية أمثال هؤلاء الأطفال وكفالتهم واجباً كفائيًّا[1] على كافّة المسلمين، ورغّبهم في القيام بذلك، وجعل ثوابهم على ذلك الجنّة.

فقد روى الشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: أربع من كُنَّ فيه بنىٰ الله له بيتاً في الجنّة: من آوى اليتيم، ورحم الضعيف، وأشفق على والديه، ورفق بمملوكه[2].

وروى الشيخ الكليني قدس سره في (الكافي) بسنده عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال في حديث: من عال يتيماً حتى ينقطع يتمه أو يستغني بنفسه، أوجب الله عزّ وجلّ له الجنّة، كما أوجب النّار لمن أكل مال اليتيم[3].

وعن الإمام جعفر الصادق، عن أبيه عليهما السلام، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: من كفل يتيماً، وكفل نفقته، كنتُ أنا وهو في الجنّة كهاتين. وقرن بين إصبعيه: المسبّحة

(١) الواجب الكفائي: هو الذي إذا قام به من يُكتفىٰ به من المسلمين سقط عن الباقين، كطلب العلم الديني، وامتهان الطبابة والهندسة وغيرهما من العلوم التي يحتاج إليها المسلمون.

(٢) ثواب الأعمال: ١٦٣.

(٣) الكافي ٥/ ١٢٨.

والوسطى[١].

وأخرج البخاري بسنده عن سهل بن سعد، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا» وأشار بالسبّابة والوسطى[٢].

والأحاديث في ذلك كثيرة، لا حاجة لاستقصائها.

وعليه فإنّه يجب على القادرين من المسلمين أن يقوموا بإيواء هؤلاء الأطفال، والنفقة عليهم، وتعليمهم، والعناية بهم كما لو كانوا أبناءهم، من دون أن تكون هناك حاجة لمحو هويّتهم، ونسبتهم إلى غير آبائهم.

نعم، يمكن في بعض الحالات تحقّق البنوّة بين الطفل المتبنَّىٰ والرجل المتبنِّي، كما لو كان الطفل رضيعاً، فأرضعته زوجة المتبنِّي، فإنّ الطفل حينئذ يكون ابناً لهما من الرضاعة، وتصبح المرأة المرضعة وزوجها أبوين له من الرضاعة، فتترتّب عليه أحكام الابن ما عدا الميراث، فإنّه لا يرث من مال أبويه إلا بوصية منهما فيما لهما التصرّف فيه من مالهما بعد موتهما، وهو مقدار الثلث فقط، على تفاصيل مذكورة في كتب الفقه.

وأمّا إذا كان المراد بالتبنّي جعل الطفل كالابن الحقيقي، وترتيب جميع آثار البُنوّة عليه، فإنّ الإسلام يحرّم مثل هذا التبنّي؛ وذلك لعدّة أمور، منها:

١- **ضرورة حفظ الأنساب**: فإنّ الإسلام يحرص على نسبة الأبناء إلى آبائهم، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[الأحزاب: ٤، ٥].

(١) قرب الإسناد: ٩٤.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠٨.

ولا شكّ في أنّ من حقّ كلّ مولود أن ينتسب إلى أبيه الذي ورث عنه كثيراً من صفاته الجسدية والنفسية، وألّا ينتسب إلى رجل آخر ربّما لا يمتّ إليه بصلة.

كما أنّ من حقّ كلّ رجل أن ينتسب إليه أبناؤه الحقيقيّون الذين وُلدوا من مائه، وورثوا عنه صفاته الجسدية والنفسية؛ لأنّهم الامتداد الطبيعي له في هذه الحياة، ومن الظلم بمكان أن يُنسب أبناؤه إلى آخرين، فيحملون أسماءهم دونه، لأسباب ربّما تكون خارجة عن قدرته، ولا يكون مقصّراً فيها.

ولهذا فإنّه سبحانه وتعالى قال: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾، أي أنّ مجرّد القول بأنّ فلاناً هو ابنٌ لفلان لا يغيّر الحقيقة، ولا يتحوّل بذلك إلى ابن تترتّب عليه جميع آثار البنوّة، وأمّا نفي الله تعالى بنوّة المتبنَّىٰ فهو الحقّ؛ لأنّه مستند إلى الواقع، لا إلى مجرّد الادّعاء.

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ﴾ يبيّن أنّ حفظ نسب الأبناء لآبائهم الحقيقيّين هو ما يقتضيه العدل والإنصاف للأبناء والآباء الحقيقيين؛ لأنّه يحفظ حقوق الأبناء والآباء والأمّهات، ومع انتفاء هذه النسبة فإنّ الحقوق لن تكون محفوظة، بل ستضيع جميع الحقوق والواجبات الأسرية التي شدّد الإسلام على حفظها ولزوم رعايتها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ﴾ يدلّ على أنّ الذين لا يُعرَف آباؤهم هم إخوانٌ في الدين، لهم حقوق يجب إسداؤها لهم، فتجب رعايتهم وتربيتهم، والاهتمام بهم كفاية على جميع المسلمين.

٢- **التحذير من ضياع الأنساب:** فإنّ التبنّي ربّما يؤدّي إلى عدم معرفة الأنساب واختلاطها، فإنّ الطفل المتبنَّىٰ ربّما يكبر وهو لا يعلم بأنّ له أباً وأمّاً آخرَين غير الأب والأم اللذين قاما بتبنّيه وتنشئته في بيتهما، ولا شكّ في أنّ من

حقّ كلّ شخص أن يعرف إلى أيّ أسرة ينتمي، وأن يعرف آباءه وأجداده وإخوانه وأخواته وسائر أرحامه الحقيقيّين، ولا سيّما أنّه يترتّب على معرفة ذلك كثير من الأمور الشرعية، التي من ضمنها وجوب صلة أولئك الأرحام، ووجوب النفقة على الأب والأم الحقيقيّين إذا كانا فقيرين، وغير ذلك.

وعندما ينتسب المتبنَّىٰ إلى غير أبيه فإنّ نسبه الحقيقي ربّما يضيع، فلا يعرفه هو ولا أيّ أحد من أبنائه بعد ذلك.

وفي هذه الحالة ربّما يتزوّج الرجل المتبنَّىٰ بأخته الحقيقيّة، أو بأمّه، أو بعمّته أو خالته من حيث لا يعلم، فينجب أولاداً أنسابهم مختلطة، ومن المعلوم أنّ مثل هذه الزّيجات لا يحاسَب عليها الرجل المتبنّىٰ؛ لأنّه لم يفعل ذلك بعلم وقصد. نعم، إذا علم بذلك وجب التفريق بينه وبين تلك المرأة التي تزوّج بها، ولعلّ في التفريق بينه وبينها حرج ومشقّة عليه وعلى جميع أفراد أسرته.

مضافاً إلى أنّ من أهمّ مقاصد الشريعة الإسلامية تنظيم الأسرة المسلمة، وحفظ نسبها، والحيلولة دون اختلاطها، ولهذا حرّم الزنا والتبنّي ونحوهما.

٣- ترتُّب محاذير مختلفة على مثل هذا التبنّي:

منها: النظر إلى غير المحارم والخلوة بهنّ: فإنّ الله تعالى حرّم الزنا وسائر الفواحش كاللّواط والسّحاق وغيرهما، وبما أنّ هذه القبائح ربّما تقع بسبب النظر والخلوة، فإنّ الله تعالى حرّم جميع أسبابها، فحرّم النظر إلى الأجنبية بشهوة، ونهى عن الخلوة التي قد تكون سبباً لوقوع الفاحشة.

والطفل المتبنّىٰ إذا كبر وأصبح رجلاً فإنّه بسبب وجوده في بيت واحد مع أمّه وأخواته بالتبنّي، سينظر إلى ما لا يحلّ له النظر إليه منهنّ، وسيخلو بهنّ أيضاً الخلوة المحرّمة في الإسلام، وهو وإن كان يعتبرهنّ من محارمه كأمّه وأخواته، إلا أنّهنّ في الحقيقة أجنبيات عنه، وربّما تكون هذه الحالة سبباً للوقوع في المحرّم،

خصوصاً إذا علم المتبنَّىٰ أنّ تلك المرأة ليست أمًّا له في الحقيقة، وأنّ أخواته أجنبيات عنه، فربّما تراوده نفسه لفعل الفاحشة معهنّ، ولا سيّما أنّ الأم بالتبنّي تعلم أنّ هذا الرجل المتبنَّىٰ ليس ولدها الحقيقي، وربّما تُفتتن به، وترغب في معاشرته.

ومن أمثلة ذلك ما حدث لنبيّ الله يوسف عليه السلام الذي عاش حالة شبيهة بذلك في بيت عزيز مصر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

ولما بلغ يوسف عليه السلام مبلغ الرجال فُتنت به امرأة العزيز، وعرضت نفسها عليه، بل راودته عن نفسه، إلا أنّه عليه السلام لم يخضع لرغبتها، وامتنع عن الانزلاق معها في الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

ومنها: الحصول على ميراث غير مستحَقّ: فإنّ المتبنّىٰ ربّما يرث جميع أموال أبيه وأمّه بالتبنّي إذا لم يكن لهما أولاد صُلبيّون، وبهذا يحول دون وصول الميراث إلى الطبقات الأخرى المستحِقّة للميراث، كالإخوة والأخوات وغيرهم.

أو ربّما يزاحم المتبنَّىٰ الأبناء الصلبيّين في الميراث، فيأخذ حصّة من ميراثهم، مع أنّه عنصر دخيل عليهم لا يستحقّ من أموال أبيهم أو أمّهم شيئاً.

ولا شكّ في أنّ الأرحام النّسَبيّين أولى بالميراث من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥].

ومنها: تحريم النّساء المحلَّلات، وتحليل المحرَّمات: فإنّ التبنِّي يمنع المتبنَّىٰ عن أن يتزوّج بأخواته بالتبنّي، مع أنّهنّ محلَّلات له في الحقيقة؛ لأنّهنّ كما قلنا أجنبيات لا أخوات، وفي ذلك تحريم للمحلَّل.

كما أنّ التبنِّي يمنع الأب بالتبنّي عن أن يتزوّج من زوجة ابنه المتبنَّىٰ بعد تطليقها أو بعد وفاة ذلك الابن، مع أنّ التحريم الوارد في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣] مختصّ بزوجات الأبناء من الأصلاب والرضاعيّين دون غيرهم.

ولأجل ذلك فإنّ نبيّنا ﷺ بعد أن نزل تحريم التبنّي في الإسلام تزوّج من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد أن طلّقها زيد بن حارثة الذي كان ابناً لرسول الله ﷺ بالتبنّي بعد انقضاء عدّتها منه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٧ - ٣٨].

تحريم أكل لحم الخنزير في الإسلام؟

السؤال (٤٩): لماذا يحرّم الإسلام أكل لحم الخنزير؟

والجواب:

١- ثبوت الحرمة القطعية لأكل لحم الخنزير: فإنّ الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة: ١٧٣].

وقال سبحانه: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ [المائدة: ٣].

وحيث إنّه قد ثبت لدينا بالأدلّة القطعية التامّة الصحيحة أنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، فإنّ علينا أن نؤمن بما فيه، ونقول بتحريم أكل لحم الخنزير، سواء عرفنا علّة التحريم أم لم نعرف؛ لأنّنا نثق بالله تعالى ثقةً مطلقة، ونعلم علماً يقينيًّا أنّه سبحانه حكيم رؤوف بعباده، لا يحرِّم عليهم أكل شيء إلا إذا كان فيه ضرر بالغ موجب للتحريم.

وحال تحريم أكل لحم الخنزير حال أكثر الأحكام الشرعية الوجوبية والتحريمية التي لا نعرف عِلَلَها وما فيها من حكم ومصالح ومفاسد واقعية، ومع ذلك فإنّنا نأخذ بها، ونسلِّم بما يقوله الله تعالى تسليماً كاملاً.

وبهذا الجواب يجاب عن كلّ الأسئلة التي توجَّه للمسلمين حول العلّة من إيجاب شيء كالحجاب مثلاً، أو تحريم شيء آخر كأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغيرهما، فإنّ من ثبت عنده بالأدلّة القطعية أنّ النبي محمّداً ﷺ نبيٌّ

مرسَل من قِبَل الله تعالى، وأنّ كلّ ما بلّغه للنّاس إنّما بلّغه عن الله تعالى، يلزمه أن يأخذ بكلّ ما جاء به من العقائد والأحكام التي منها تحريم أكل لحم الخنزير، فإنّ التسليم بما يقوله النبي ﷺ شرط من شرائط الإيمان به كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

٢- أنّ لحم الخنزير رِجْس: فقد وُصِفَ أكل لحم الخنزير في بعض الآيات القرآنية بأنّه رِجْس، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، والرِّجْس هو النَّتْن، أو كلّ شيء مستقذَر.

قال الفيومي في (المصباح المنير): الرِّجْسُ: النَّتْنُ، وَالرِّجْسُ: الْقَذَرُ. قَالَ الْفَارَابِيّ: وَكُلُّ شَيْءٍ يُسْتَقْذَر فَهُوَ رِجْسٌ[1].

ومن المعلوم أنّ الخنزير حيوان قذر جدًّا، يعيش في المزابل والأوحال، ويأكل كلّ ما يجده من القذارات والحيوانات الميّتة وغيرها، وأمّا باقي الحيوانات المحلّلة كالأغنام والأبقار وغيرها فإنّها ربّما تأكل من المزابل، إلا أنّها لا تأكل كلّ ما تجده من تلك القذارات.

ولعلّ هذه هي علّة تحريم أكل لحم الخنزير، أو لعلّها علّة من ضمن علل أخرى معها غيرها، ومن غير المستبعد أن تكون قذارة الخنزير تقتضي أن يكون لحمه من جملة الخبائث المستقذَرة التي أخبر الله تعالى بأنّه حرّمها على عباده، حيث قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٣- أنّ الله خلق الخنزير عبرة للإنسان: فقد ورد في بعض الروايات

---

(١) المصباح المنير: ٢١٩.

المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ علّة تحريم أكل لحم الخنزير أنّ الله تعالى غضب على أقوام من الأمم السالفة، فمسخهم قردةً وخنازير وغيرها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٦٠].

ثمّ إنّه سبحانه خلق هذه الحيوانات على مثال تلك المسوخ؛ لكي تكون عبرة للنّاس، ولكي يرعوي النّاس الذين جاؤوا بعد أولئك العصاة عن التمادي في المعاصي والذنوب التي فعلها أولئك المذنبون، ومن الواضح أنّ الله تعالى لو أباح للنّاس أكل لحوم هذه الحيوانات، لقام النّاس بتربيتها والاستئناس بها للاستفادة من لحومها، كما هو حاصل عند من يستحلّ أكل لحمها، فتنتفي الفائدة من خلقها؛ إذ لا تبقى بعد ذلك عبرةً لهم، فلأجل ذلك حرّم الله أكل لحومها.

ومن تلك الأحاديث ما رواه الشيخ الصدوق قدس سره بسنده عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قلت له: لم حرَّم الله عزّ وجلّ الخمر، والميتة، والدم، ولحم الخنزير؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى لم يحرِّم ذلك على عباده وأحلَّ لهم ما سوى ذلك من رغبة فيما أحلَّ لهم، ولا زهد فيما حرَّمه عليهم، ولكنّه تعالى خلق الخلق، فعلم ما يقوم به أبدانهم وما يصلحهم، فأحلَّه لهم وأباحه، وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه، وحرّمه عليهم، ثمّ أحلّه للمضطر في الوقت الذي لا يقوم بدنه إلا به، فأمره أن ينال منه بقدر البُلْغة لا غير ذلك...

إلى أن قال عليه السلام: وأمّا لحم الخنزير فإنّ الله تعالى مسخ قوماً في صور شتّى، مثل الخنزير والقرد والدُّبّ، ثمّ نهىٰ عن أكل المثلة؛ لكيما يُنتفع بها ولا يُستخفَّ بعقوبته... [(1)].

---

(١) علل الشرائع ٢/ ١٩٦.

وروى أيضاً بسنده عن محمد بن سنان، أنّ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله: حرّم الخنزير لأنه مشوّه، جعله الله تعالى عظةً للخلق، وعبرة، وتخويفاً، ودليلاً على ما مسخ على خلقته؛ ولأنّ غذاؤه[١] أقذر الأقذار، مع علل كثيرة. وكذلك حرّم القرد لأنّه مَسْخٌ مثل الخنزير، جُعل عظة وعبرة للخلق، ودليلاً على ما مسخ على خلقته وصورته، وجُعل فيه شَبَهٌ من الإنسان؛ ليدلّ على أنّه من الخلق المغضوب عليهم[٢].

٤- تحريم الخنزير في ديانات سماوية أخرى: فإنّ تحريم أكل لحم الخنزير ليس مخصوصاً بالإسلام، فإنّ الديانة اليهودية تحرّم أكل لحم الخنزير كذلك، وكذا بعض الكنائس والطوائف المسيحية، منها: كنيسة التوحيد الأرثوذكسية الإثيوبية، والأدفنتست[٣]، وكنيسة الله المتّحدة، واليهود المسيانيّين[٤].

---

(١) كذا في المصدر، ولعلّ اسم إنّ هو قوله: «أقذر الأقذار»، وخبره: «غذاؤه».

(٢) علل الشرائع ٢/ ١٩٧.

(٣) **الأدفنتست أو السبتيون:** هم طائفة بروتستانتية ألفيَّة ظهرت في الولايات المتّحدة الأمريكية في القرن التاسع عشر، تؤمن بقرب المجيء الثاني للمسيح، حيث إن كلمة أدفنتست Adventist تعني مجيئيون، وقد عُرفوا سابقاً بالميليريّين نسبةً لوليم ميلر مؤسّس هذه الطائفة، وهو واعظ معمداني (١٧٨٢-١٨٤٩)، عمل سابقاً ضابطاً في الجيش الأمريكي. يربو تعداد الأدفنتست اليوم على أكثر من ١٩ مليون شخص، يتوزّعون في مختلف أنحاء العالم، ولكن تبقى الولايات المتّحدة الأمريكية مركز ثقلهم الرئيس، ولهم معاهد لاهوتية ومراكز وإرساليات ووسائل إعلام مختلفة (للمزيد: راجع: https://www.adventist.org/en، وموقع ويكيبيديا، مادة: سبتيون).

(٤) راجع موقع ويكيبيديا، مادة: القوانين الغذائية في المسيحية. واليهود المسيانيين: يُسمَّون أيضاً: باليهود المتنصِّرين، واليهود المسيحيّين، والمسيحيّين اليهود، واليهود المؤمنين بالمسيح، والعبرانيين المسيحيّين. وهي طائفة إنجيلية بروتستانتية تؤكّد على العنصر اليهودي في الإيمان المسيحي، ويتكوّن أتباعها من اليهود المؤمنين بالمسيح، ويُعتبر اليهود المسيانيين حركة يهودية عرقيًّا مسيحية دينيًّا. والمؤسّسات اليهودية ترفض اعتبار اليهود الميسانيّين جزءاً من الطوائف اليهودية، بسبب إيمانهم بالعقيدة المسيحية، ويبلغ عددهم في الولايات المتحدة ٢٥٠٠٠٠ ←

وقد ورد في العهد القديم في سفر التثنية، في الإصحاح ١٤ ما يدلّ على تحريم لحم الخنزير، حيث قال:

٣لاَ تَأْكُلْوا طَعَاماً رِجْسًا بِحَسَبِ الشَّرِيْعَةِ. ٤هَذَا مَا تَأْكُلُونَه مِنَ الْبَهَائِم: الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالمَعْزُ ٥وَالغَزَالُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعْلُ وَالرِّئْمُ وَالثَّيْتَلُ والزَّرَافَةُ. ٦وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَجْتَرُّ وَلَهَا ظِفْرٌ مَشْقُوقٌ شَطْرَيْنِ. ٧وَأَمَّا التِي يَجِبُ أَنْ لَا تَأْكُلُوهَا فَهِيَ: الجَمَلُ وَالأَرْنَبُ وَالْوَبْرُ، فَهِيَ تَجْتَرُّ لكِنْ ظِفْرُهَا غَيْرُ مَشْقُوقٍ، وَهُوَ مَا جَعَلَهَا رِجْسًا لَكُمْ. ٨وَالْخِنْزِيرُ فَلَهُ ظِفْرٌ مَشْقُوقٌ لَكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ وَهُوَ مَا جَعَلَهُ نَجِسًا لَكُمْ بِحَسَبِ الشَّرِيْعَةِ. لاَ تَأْكُلُوا مِنْ لَحْمِهِ وَلاَ تَمَسُّوا المَيْتَ مِنْهُ[1].

وفي سفر اللّاويّين، الإصحاح ١١ قال:

وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَىٰ وَهَارُونَ: ٢قُولَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: هَذِهِ هِيَ الحَيَواناتُ التي تأكُلونَها مِنْ جَميعِ البَهائِمِ الّتي عَلى الأرْضِ. ٣جميعُ مَا هُو مَشقُوقُ الظِّفْرِ ويجتَرُّ مِنَ البَهائِمِ. ٤أَمَّا الحيواناتُ الّتي تجتَرُّ، وأظفارُها غيرُ مشقوقةٍ، أو الّتي لا تَجتَرُّ وأظفارُها مشقوقةٌ، فلا تأكُلوها، لأنَّها نَجِسٌ لَكُمْ: الجَمَلُ لأنَّه يَجتَرُّ، ولكنَّه غيرُ مشقوقِ الظِّفْرِ، ٥والغَرغُورُ لأنَّه يَجتَرُّ ولكنَّه غيرُ مشقوقِ الظِّفْرِ، ٦والأرنَبُ لأنَّه يجتَرُّ ولكنَّه غيرُ مشقوقِ الظِّفْرِ، ٧والخِنزيرُ لأنَّه مشقوقُ الظِّفْرِ ولكنَّه لا يجتَرُّ، ٨مِنْ لَحمِها لا تأكلوا، ولا تَمَسُّوها مَيّتةً، فهيَ نَجِسةٌ لكُم[2].

والمعروف عند النّصارى الآخرين غير من ذكرناهم أنّهم يجوّزون أكل

← نسمة، وفي إسرائيل ما بين ١٠٠٠٠-١٥٠٠٠ نسمة. (موقع ويكيبيديا، مادة: اليهود المسيانيين).

(١) الكتاب المقدّس/ العهد القديم: ٢٣٢ (الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية).

(٢) الكتاب المقدّس/ العهد القديم: ١٣٤ (الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية).

راجع أيضاً: https://www.openbible.info/topics/eating_pig.

لحم الخنزير، إلا أنّ البابا شنودة بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية في ١ أغسطس ٢٠٠٧م نصح أتباع كنيسته بعدم تناول لحم الخنزير، قائلاً: نحن لا نحرّمه، لكن نحرّم كلّ ما فيه ضرر، وربُّنا في العهد الجديد لم يحرّم أكل لحم الخنزير، لكن إذا كان مضرًّا فلا يؤكل... نحن لا نأكل لحم الخنزير أبداً[١].

إذن لا غرابة في أن يحرّم الإسلام أكل لحم الخنزير كما هو الحال في الديانة اليهودية، وبعض الطوائف المسيحية.

٥- أنّ الخنزير بيئة خصبة لتكاثر الميكروبات: فإنّ الكثير من البحوث والدراسات والإحصائيّات العلمية والصحّية المهمّة تدلّ على أنّ لحم الخنزير بيئة خصبة لتكاثر الميكروبات، وهذا وحده كافٍ في جعل كلّ إنسان عاقل يمتنع عن أكل لحم الخنزير حتى لو لم يكن مسلماً أو متديّناً.

ومن تلك البحوث: ما ورد في موقع منظّمة الصحّة العالمية حول الإصابة بداء الشريطيات Cysticercosis، حيث ذُكر ما يلي:

- داء الشريطيات هو عدوى معويّة تسبِّبها شريطيّات كاملة النضوج.
- يُصاب الإنسان بداء الشريطيّات عن طريق ابتلاع كيسات يرقات الشريطيّات (الكيسات المذنّبة) الموجودة في لحم الخنزير أو البقر الذي لم يُطبخ طبخاً كافياً...
- يمكن أن تسبّب الكيسات التي تتطوّر في الجهاز العصبي المركزي شكلاً من الصرع يمكن الوقاية منه، يُسمّى داء الكيسات المذنّبة العصبي.
- يقيم أكثر من ٨٠٪ من ٥٠ مليون شخص من سكان العالم مصاب بالصرع في البلدان المنخفضة الدخل وبلدان الشريحة الدنيا من الدخل المتوسط.

---

(١) https://www.youtube.com/watch?v=Kqo1-oEMV2c.

- تسبب الشريطيّة الوحيدة ٣٠٪ من حالات الصرع في عدّة مناطق يتوطّنها المرض، حيث يقيم الأشخاص والخنازير المتجوّلة في محيط شديد التقارب[(١)].

وفي تقرير آخر حول ستّة أشخاص في الفلبّين كانوا يتعاملون يوميًّا مع الخنازير أصيبوا بڤيروس إيبولا، ورد ما يلي:

أعلنت الحكومة الفلبّينية في ١٦ شباط، فبراير ٢٠٠٩، أنّ الفحوص التي أُجريت على شخص كان يعمل في أحد المذابح، ويتعامل يوميًّا مع الخنازير خلصت إلى نتائج إيجابية فيما يخصّ أضداد ڤيروس إيبولا ريستون.

وبالتّالي يصبح عدد الذين أظهروا نتائج إيجابية فيما يخصّ أضداد ڤيروس إيبولا ريستون ستّة أشخاص من أصل ١٤١ شخصاً تمَّ إخضاعهم للفحوص في الفلبّين منذ كانون الأوّل، ديسمبر ٢٠٠٨. وأبلغ جميع الأشخاص الستّة عن تعرّضهم للخنازير في أماكن عملهم.

وأفادت وزارة الصحّة الفلبّينية بأنّ الأشخاص الستّة يبدون جميعاً في صحّة جيّدة. ومن الأرجح تعرّض أولئك الأفراد للڤيروس نتيجة تعامل مباشر مع خنازير مريضة[(٢)].

وفي تقرير آخر حول التهاب الدماغ الياباني، ورد أنّ الخنازير بيئة مضخِّمة لڤيروس هذا المرض، فقد جاء في التقرير ما يلي:

يسري الڤيروس المسبِّب لالتهاب الدماغ الياباني عن طريق البعوض الذي ينتمي إلى فئة الباعضة شريطية الأنف Culex tritaeniorhynchus، وفئة الباعضة فيشنوي Vishnui Culex،

---

(١) http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs376/ar/.

(٢) http://www.who.int/csr/don/2009_03_31/ar/.

والتي تتكاثر - بشكل خاصّ - في حقول الأرز المغمورة بالمياه، ويجول الڤيروس في طيور الـ ardeid (مالك الحزين والبلشون الأبيض). وتعتبر الخنازير مضيفات مضخِّمة، حيث إنّ الڤيروس يُستنسخ في الخنازير، ويعدي البعوض الذي يأخذ منها وجبات الدّم، لكنّه لا يسبّب لها المرض(١).

كما أنّ شركة (تقارير المستهلك Consumer Reports) قامت بفحص وتحليل عيّنات من لحم الخنزير المفروم والمقطع فكانت النتائج مذهلة، فقد جاء في تقرير هذه الشركة ما يلي:

في تحليلنا لعيِّنات من قطع لحم الخنزير ومن لحم الخنزير المفروم المأخوذ من مختلف أنحاء الولايات المتّحدة تمَّ العثور على يرسينيا القولون Yersinia enterocolitica، وهو نوع من البكتيريا التي يمكن أن تسبِّب على نطاق واسع: الحُمَّى، والإسهال، وآلام في البطن. كما اشتملت بعض العيّنات على ما يُحتمل أنّه بكتيريا ضارّة، بما في ذلك السالمونيلا Salmonella. وهناك المزيد من الأسباب التي تدعو إلى القلق بشأن (اللحم الأبيض الآخر).

بعض البكتيريا التي عثرنا عليها في ١٩٨ عيّنة، قد ثبت أنّها تقاوم المضادّات الحيوية التي تستعمل في العلاج بشكل واسع.

لقد كانت بكتيريا يرسينيا القولون في ٦٩٪ من العيّنات التي تمَّ فحصها، وهذه البكتيريا تصيب حوالي ١٠٠٠٠٠ أمريكي في كلّ عام خصوصاً الأطفال، ووجدنا في ٣-٧٪ من العيّنات: السالمونيلا، وستافيلوكوكس Staphylococcus aureus، أو ليستريا مونوسيتوجينز Listeria monocytogenes، وهي أكثر الأسباب شيوعاً للأمراض التي تنقلها الأغذية. وفي ١١٪ من العيّنات وجدنا

(١) http://www.who.int/water_sanitation_health/diseases/encephalitis/ar/.

انتروكوكس Enterococcus، التي يمكن أن تشير إلى تلوّث البراز، ويمكن أن تسبِّب مشاكل مثل إصابة المسالك البولية.

وبعض البكتيريا التي وجدناها في لحم الخنزير تقاوم أدوية متعدّدة أو أصنافاً من الأدوية، وهذا يثير القلق؛ لأنّه إذا كانت تلك الجراثيم تجعلك مريضاً، فإنّ طبيبك قد يحتاج أن يصف لك أقوى المضادّات الحيوية وأكثرها كلفة[١].

والنتيجة: أنّ جميع هذه التقارير وغيرها تدلّ على أنّ لحم الخنزير بيئة خصبة لتكاثر الميكروبات والبكتيريا، وأنّ أكله من دون طهي جيّد لا يخلو من مخاطر صحّية متعدّدة، وهذا وحده كافٍ في الامتناع عن أكله بغضّ النظر عن كونه محرّماً دينيًّا أم لا.

---

(١) http://www.consumerreports.org/cro/magazine/2013/01/what-s-in-that-pork/index.htm.

منع غير المسلم من دخول مكة!

السؤال (٥٠): لمَ لا يدخل مكّة إلا المسلمون فقط؟

والجواب:

١- أنّ هذا الحكم لم يتّفق عليه المسلمون: فإنّ حرمة دخول الكفّار إلى مكّة ليس حكماً إجماعيًّا عند المسلمين، وإنّما هو مختلف فيه؛ حيث أجاز الأحناف دخول الكافر الذمّي - وهو غير المحارب - إلى مكّة ولو بدون إذن المسلم.

وفي الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة بعد أن ذُكر أنّ جملة من أئمّة المذاهب يفتون بحرمة دخول الكافر إلى مكّة، ورد ما يلي:

وقال الحنفيّة: لا يُمنع الذّمي من دخول الحرم، ولا يتوقّف جواز دخوله على إذن مسلم ولو كان المسجد الحرام.

يقول الجصّاص في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [التوبة: ٢٨]: يجوز للذّمي دخول سائر المساجد، وإنّما معنى الآية على أحد الوجهين: إمّا أن يكون النّهي خاصًّا في المشركين الذين كانوا ممنوعين من دخول مكّة وسائر المساجد؛ لأنّهم لم تكن لهم ذمّة، وكان لا يُقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، وهم مشركو العرب. أو أن يكون المراد منعهم من دخول مكّة للحجّ، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ الآية، وإنّما كانت خشية العيلة لانقطاع تلك المواسم بمنعهم من الحجّ؛ لأنّهم كانوا ينتفعون بالتّجارات التي كانت في مواسم الحجّ[1].

---

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/ ١٨٩.

نعم، إنّ القول بحرمة دخول الكفار إلى مكّة هو القول المشهور المعروف عند علماء الشيعة وأهل السُّنّة، وهو المعتمد عند عامّة فقهاء المسلمين.

إذا عُلم ذلك نقول: إنَّ الحكم بمنع غير المسلمين من دخول مكّة حكم شرعي بلّغه رسول الله ﷺ الذي ثبت عندنا بالأدلّة القطعيّة أنّه نبيٌّ مرسَل من قِبَل الله تعالى، وأنّ كلّ ما يبلّغه للنّاس إنّما يبلّغه عن الله جلّ وعلا، فلا شكّ حينئذ في أنّ هذا الحكم له مصالحه التي ربّما تخفى علينا، ونحن - المسلمين - يجب علينا الالتزام به حتى لو لم نعلم وجه المصلحة فيه، ثقةً بالله تعالى أنّه لا يأمر بشيء إلا إذا كانت فيه مصلحة مهمّة، ولا ينهى عن شيء إلا إذا كانت فيه مفسدة ثابتة.

٢- **أنّ المسلمين لهم الحقّ في وضع قانون لدخول مكّة**: فإنّه بغض النظر عن الحكم الشرعي وعن مصلحته التي ربّما تكون مجهولة كما قلنا، فإنّ مكّة المكرّمة مدينةٌ من مدن المسلمين، وللمسلمين الحقّ في وضع قانون يمنع غيرهم من دخولها حذراً من المساس بقدسيّتها، أو للحيلولة دون إشغال قاصديها للعبادة بأمور أخرى تُبعدهم عن الجوّ الروحاني الذي أراد الله تعالى توفيره لمن دخل مكّة للحجّ أو العمرة، أو من أجل إبعاد مكّة عن أن تكون محلًّا للمعاصي التي يرتكبها غير المسلمين فيها.

وبتعبير آخر نقول: كما أنّ غير المسلمين جعلوا لهم الحقّ في سنّ قوانين لتأشيرات الدخول إلى بلادهم بما يتوافق مع مبادئهم وعاداتهم وأديانهم وغير ذلك، ولم يأخذوا في الاعتبار قناعة غيرهم بتلك القوانين التي وضعوها هم بأنفسهم، فإنّ المسلمين أيضاً لهم الحقّ في جعل قوانين لتأشيرات الدخول إلى بلادهم: مكّة أو غيرها، بما يتوافق مع مبادئهم، وبحسب ما يرونه من المصلحة، وليس من الضروري أن يقتنع غيرهم بما يضعونه من قوانين.

٣- **أنّه لا يجوز دخول مكّة إلا للحجّ أو العمرة**: فإنّ الله تعالى لم يجعل

مكّة المكرّمة كغيرها من البلاد الأخرى، وإنّما اختصّها من دون سائر البلدان بخصوصيّات متعدّدة، منها: أنّه سبحانه وتعالى جعلها مكاناً لعبادته، وأمر عباده بقصدها لأداء أعمال الحجّ أو العمرة، فقال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ﴾[الحج: ٢٧].

وقال سبحانه مخاطباً لنبيّيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[البقرة: ١٢٥].

ولأجل ذلك فإنّه سبحانه حرّم على غير سكّان مكّة المكرّمة أن يدخلوها لأيّ أمر آخر غير العبادة المخصوصة، وهي الحجّ أو العمرة، وأحلّ لهم الدخول إليها للعبادة بالطريقة التي أرادها الله سبحانه.

وعليه، فإنْ أراد المسلم أن يدخل مكّة للعبادة المذكورة فإنّه يجوز له ذلك، وأمّا إذا أراد أن يدخلها لأمر آخر غير العبادة فإنّ دخولها حينئذ محرّم عليه إلا بعد أداء العبادة المخصوصة حجًّا أو عمرة.

وهذا الحكم يجري على غير المسلمين أيضاً من دون فرق، فإنّهم إذا أرادوا دخول مكّة لغير العبادة المخصوصة فلا يجوز لهم ذلك، وعلى المسلمين منعهم من دخولها، وأمّا إذا أرادوا دخولها للحجّ أو العمرة فلا مانع من ذلك، إلا أنّ غير المسلم لا يمكنه أن يعبد الله تعالى بحجٍّ أو عمرة إلا إذا جاء بهما بالطريقة الصحيحة التي يريدها الله تعالى، والإتيان بهما كذلك لا يكون إلا إذا تقرّب بهما إليه سبحانه، وتقرّبه إلى الله بالحجّ أو العمرة متوقِّف على دخوله في الإسلام؛ لأنّه ما دام غير معتقد بالإسلام، فإنّه من الطبيعي ألّا يعتقد بأنّ الحجّ أو العمرة يمكن التقرّب بهما إلى الله تعالى، وبالتالي فإنّ دخول غير المسلم إلى مكّة يتوقّف على إسلامه؛ لأنّه إذا أسلم سيكون حينئذ قادراً على الإتيان بالحجّ أو العمرة الصحيحين متقرِّباً بهما إلى الله سبحانه.

٤- وجوب تطهير مكّة من الكفر ونحوه: فإنّ الله تعالى أمر نبيَّيْه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بأن يُطهِّرا بيته الحرام للطائفين والمعتكفين والمتعبِّدين كما قلنا آنفاً، والتطهير شامل لجميع أنواع النّجاسات الحسِّيّة والمعنوية، ولا شكّ في أنّ الإعراض عن الحقّ والكفر بالله أو برسوله صلى الله عليه وآله، وفعل المعاصي الكبيرة، من أعظم الملوِّثات المعنوية التي أمر الله نبيّيه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بتطهير البيت الحرام منها، ولهذا قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]، وليس المراد بالمسجد الحرام هنا خصوص المسجد المعروف الذي تقع الكعبة المشرَّفة في وسطه، وإنّما هو منطقة الحَرَم، وهي مكّة المكرّمة وما حولها، وهذه المنطقة لها أحكام خاصّة مذكورة في كتب الفقه، منها: أنّه من دخلها كان آمناً، ولا يجوز قتل الصيد فيها، ولا قلع شجرها على تفصيل مذكور في كتب الفقهاء.

ومنطقة الحَرَم لها علامات تحدّدها منصوبة من زمن نبيّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد جُدّدت بعد ذلك مراراً، وهي موجودة إلى الآن، ويحدّها من جهة المدينة المنورة: التنعيم، ويبعد عن المسجد الحرام حوالي ٦,١٢٨ كيلو متراً، ومن طريق اليمن: أَضاة لِبْن، وتبعد عن المسجد الحرام حوالي ١٦ كيلومتراً، وتسمّى الآن العكيشية، ومن طريق الطائف: بطن نمرة من جبل عرفات، ويسمّى الآن ذات السليم، ويبعد عن المسجد الحرام حوالي ٢٢ كيلومتراً، ومن طريق العراق من الجهة الشمالية الشرقية لمكّة: ثنية جبل بالمُقَطَّع، وتبعد عن المسجد الحرام حوالي ١٣,٧٠٠ كيلومتراً، ومن طريق نجد من الجهة الشمالية الشرقية لمكة: الجِعْرَانة، وتبعد ٢٥ كيلومتراً عن المسجد الحرام، وتسمّى المستوفرة، ومن طريق جدّة: الحديبية، وتسمّى الآن (الشميسي)، وتبعد عن المسجد الحرام حوالي ٢٥ كيلومتراً.

ولأجل ذلك وجب على المسلمين منع كلّ مشرك من دخول مكّة؛ لما

قلناه من أنّ دخوله فيها يتنافى مع التطهير الحسّي والمعنوي الذي أراده الله سبحانه.

٥- **سهولة الدخول إلى مكّة:** فإنّ كلّ شخص غير مسلم يسهل عليه أن يدخل إلى مكّة إذا نطق بشهادة ألّا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، ولا يتطلّب الأمر منه شيئاً أكثر من ذلك، وهذا لا يكلّفه شيئاً، وهو ليس بالأمر الصعب، وبالتالي فإنّ منع غير المسلم من دخول مكّة ليس منعاً نهائيًّا، وإنّما هو منع مشروط، فكما أنّ كلّ دولة غربية أو غيرها إذا أراد المسلم أن يدخلها تشترط عليه أن يأخذ تأشيرة دخول، وتُلزمه بأمور أخرى مالية أو صحّية أو غيرها، فإنّ المسلمين أيضاً لهم الحقّ في أن يشترطوا النطق بالشهادتين لدخول مكّة أو غير مكّة من بلادهم.

خاتمة

بعد هذه الجولة الطويلة آمل أن أكون قد وُفّقت في إجابتي على الإشكالات المذكورة في هذا الكتاب، وأن تكون إجاباتي كافية وواضحة ومقنعة، فإن كان الأمر كما آمل فإنّه من توفيق الله سبحانه لي ومن نِعَمه التي تترى عليَّ بلا انقطاع، وإن أخطأتُ في بعضها فبسبب جهلي وغفلتي وضعف بياني، لا لأنّها إشكالات صحيحة في نفسها.

وإنّي أرجو من كلّ من يقرأ كتابي هذا أن يثري ثقافته أيضاً بالاطلاع على ما كتبه علماء المسلمين في الإجابة على مسائل الذين لا يعتقدون بالأديان كلّها، سواء كانت من المسائل المذكورة في هذا الكتاب أم غيرها، فإنّ جميع الإشكالات التي هي من هذا القبيل والتي صار لها رواج في هذا العصر لها إجابات شافية ووافية، ولا ينبغي للشابّ قليل الثقافة أن يظنّ أنّ عدم قناعته بجواب عن إشكال من أمثال هذه الإشكالات دليل على أنّ المسلمين عاجزون عن الإجابة عليه، فإنّ أقصى ما يدلّ ذلك هو أنّ هذا الجواب الذي لم يقتنع به هذا الشابّ غير تامّ بنظره، لا أنّ هذا الإشكال وارد على الدين عامّة أو على الإسلام خاصّة.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أنبّه الشابّ المسلم إلى أنّه لا ينبغي له أن يطالع الكتب التي تحتوي على أمثال هذه الشبهات إلا بعد أن يتزوّد بالثقافة الدينية الكاملة التي تؤهّله لكشف وجه الضعف أو المغالطة فيها ونحوها، أي أنّه لا بدّ أن يكون متسلّحاً بسلاح العلم أولاً قبل أن يخوض معركة فكريّة خطيرة من دون التزوّد بسلاح فعّال يواجه به أعداءه، أو تِرْسٍ صلب يقي به نفسه، فإنّ معارك الفكر لا تقلّ خطورة عن معارك ساحات القتال.

ولكي لا يُفاجَأ الشابّ المسلم بإشكالات ربّما تُحدِث عنده تشكيكاً في دينه فإنّ عليه أن يبحث عن جواب كلّ سؤال يُطرح عليه ممّا يتعلّق بالإشكال على الدين عامّة أو على الإسلام بخصوصه، ولا يحسن منه أن يتهاون في هذا الأمر، أو يتجاهل البحث عن الإجابات الصحيحة، فإنّ تهاونه ربّما يُرسِّخ فيه الشكّ في الدين شيئاً فشيئاً، ويقوده في النّهاية إلى إنكار الدين كلّيّة، ولا سيّما أنّه صار الآن من السهولة بمكان على كلّ شابّ أن يبحث عن الإجابات في مواقع الإنترنت من دون أيّ عناء، مضافاً إلى توفّر الكتب الكثيرة التي يستطيع بها أن يثري ثقافته العامّة، ويقوّي قناعاته بالدين، وبالإسلام بالخصوص.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل كتابي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم فقري وفاقتي، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١- الاحتجاج: أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، شركة الكتبي للطباعة والنشر، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٢- الاختصاص: الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

٣- إرشاد القلوب: الحسن بن محمد الديلمي، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدسة، ١٤١٥-١٩٩٥م.

٤- أصل الأنواع: تشالز داروين، ترجمة إسماعيل مظهر، بيروت، ١٩٧١، وطبعة أخرى ترجمة مجدي محمود المليجي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤.

٥- أعلام الدين في صفات المؤمنين: الحسن بن أبي الحسن الديلمي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٦- إقبال الأعمال: رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٧- الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٨- أمالي الشيخ الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٩- إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث: ٢٣-٣٨.

١٠- الإنسان بين الخلق والتطور: الشيخ محمد حسن آل ياسين، المكتب العالمي للطباعة والنشر، بيروت.

١١- بحار الأنوار: الشيخ محمد باقر المجلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

١٢- البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع القرشي، المعروف بابن كثير الدمشقي، تحقيق: الدكتور أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

١٣- تاريخ الكتاب المقدَّس منذ التكوين وحتى اليوم: ستيفن م. ميلر، وروبرت ف. هوبر، ترجمة: وليم وهبة، ووجدي وهبة، دار الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨م.

١٤- تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥- تأمل في الكتاب: وليم ماكدونالد (من مواقع النصارى في الإنترنت).

١٦- التبيان في تفسير القرآن: الشيخ محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧- تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: داود بن عمر الأنطاكي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٨- تفسير إنجيل متّى: وليم ماكدونالد (طبعة إلكترونية).

١٩- تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٠- تفسير القمي: علي بن إبراهيم القمي، تحقيق: السيد طيب الموسوي

الجزائري، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، قم المقدسة، ١٤٠٤هـ.

٢١- التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن بن علي العسكري عليه السلام، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي، قم المقدّسة، ١٤٠٩هـ.

٢٢- تهذيب الأحكام: الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار صعب، ودار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٢٣- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: جمال الدين أبو الحجّاج يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي المِزِّي الكلبي، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٥م.

٢٤- التوحيد: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، دار المعرفة، بيروت.

٢٥- ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٢٦- الجامع لمفردات الأدوية والأغذية: ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، المعروف بابن البيطار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

٢٧- خزانة الأدب وغاية الأرب: تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال ودار البحار، بيروت، ٢٠٠٤م.

٢٨- دائرة المعارف الكتابية: دكتور القس صموئيل حبيب، دكتور القس فايز فارس، القس منيس عبد النور، جوزيف صابر، دار الثقافة، القاهرة.

٢٩- دعائم الإسلام: القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد التميمي المغربي، تحقيق: آصف بن علي أصغر فيضي، دار الأضواء، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣٠- ديوان أبي العتاهية: إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان المعروف بأبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٣١- رحلة عقل: الدكتور عمرو شريف، دار الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

٣٢- روضة الواعظين: محمد بن الفتال النيسابوري، منشورات الشريف الرضي، قم المقدسة.

٣٣- الزهد: الحسين بن سعيد الكوفي الأهوازي، تحقيق: ميرزا غلام رضا عرفانيان، المطبعة العلمية، قم المقدّسة، ١٣٩٩هـ.

٣٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٣٥- سنن ابن ماجة: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٦- سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧- سنن النسائي بشرح السيوطي: أحمد بن شعيب النسائي، دار القلم، بيروت، طبعة مرقمة طبع دار المعرفة، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

٣٨- سير أعلام النبلاء: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٣٩- شرح أصول الكافي: المولى محمد صالح المازندراني، تحقيق: السيد علي

عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

٤٠- شرح نهج البلاغة: عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبي الحديد المدائني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بمصر، ١٣٨٥هـ-١٩٦٥م.

٤١- صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، مطابع الشعب، مصر، ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م، وط مرقمة، تحقيق: الشيخ محمد علي القطب والشيخ هشام البخاري، المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٤٢- صحيح سنن ابن ماجة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٣- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مصورة دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٤- صحيح مسلم بشرح النووي: محيي الدين بن شرف النووي، مصورة دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.

٤٥- طب الأئمّة: الحسين وعبد الله ابني بسطام بن سابور الزيات، انتشارات الشريف الرضي، قم المقدّسة، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٤٦- علل الشرائع: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

٤٧- العلم والحكمة في الكتاب والسنة: محمد الري شهري، دار الحديث، قم المقدّسة.

٤٨- عوالم العلوم والمعارف والأحوال من الآيات والأخبار والأقوال: الشيخ عبد الله بن نور الله البحراني الأصفهاني، نشر وتحقيق: مدرسة الإمام

المهدي عليه السلام، قم المقدّسة، ١٤٠٧هـ.

٤٩- عوالي اللئالي العزيزية: محمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي المعروف بابن أبي جمهور، تحقيق: الشيخ مجتبى العراقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.

٥٠- عيون أخبار الرضا عليه السلام: الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٥١- عيون المعجزات: الشيخ حسين بن عبد الوهاب (من أعلام القرن الخامس)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٥٢- الفصول المختارة من العيون والمحاسن: الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي المعروف بالشيخ المفيد، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

٥٣- القرآن في الإسلام: السيد محمد حسين الطباطبائي، تعريب: السيد أحمد الحسيني.

٥٤- قرب الإسناد: أبو العباس عبد الله بن جعفر الحميري، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٥٥- قصص الأنبياء: قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي، تحقيق: غلام رضا عرفانيان اليزدي، مؤسسة المفيد للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٥٦- قصة الإنسان: الدكتور جورج حنا، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.

٥٧- قصة الحضارة: ول وايريل ديورانت، دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.

٥٨- الكافي: محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الأضواء، بيروت ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
٥٩- كتاب الأسماء والصفات: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله بن موسى البيهقي النيسابوري الخسروجردي الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٠- الكتاب المقدَّس (الترجمة العربية المشتركة): دار الكتاب المقدَّس في الشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٦م.
٦١- الكتاب المقدّس (الترجمة اليسوعية): مطبعة المرسلين اليسوعيين، بيروت، ١٨٩٧م.
٦٢- كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر المعروف بالعلامة الحلي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٦٣- كيف بدأ الخلق: الدكتور عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م.
٦٤- اللهوف في قتلى الطفوف:
٦٥- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٩هـ.
٦٦- المحاسن: أبو جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني المشتهر بالمحدّث، دار الكتاب الإسلامي، بيروت.
٦٧- مخطوطات الكتاب المقدّس بلغاته الأصلية: الدكتور إيميل ماهر إسحاق، طبع مصر.
٦٨- مرآة العقول: الشيخ محمد باقر المجلسي، دار الكتب الإسلامية، طهران،

١٤٠٤هـ.

٦٩- مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام: محمد الجواد بن سعد بن جواد الكاظمي المعروف بالفاضل الجواد، تصحيح: السيد محمد تقي الكشفي، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، طهران.

٧٠- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: ميرزا حسين النوري الطبرسي، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

٧١- مسند أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل. المطبعة الميمنية بمصر، ١٣١٣هـ-١٨٩٥م، طبعة أخرى: تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر، طبعة ثالثة، ١٣٦٨هـ-١٩٤٨م، وتكملة هذه الطبعة طبعتها مؤسسة قرطبة بمصر، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

٧٢- المصباح المنير: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

٧٣- المعتمد في الأدوية المفردة: يوسف بن عمر بن علي بن رسول الغساني التركماني، تحقيق: مصطفى السقا، دار القلم، بيروت.

٧٤- المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل بالعراق، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م.

٧٥- معدن الجواهر ورياضة الخواطر: أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مطبعة مهر استوار، قم المقدّسة، ١٣٩٤هـ.

٧٦- من لا يحضره الفقيه: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، المعروف بالشيخ الصدوق، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدّسة، ١٤٢٩هـ.

٧٧- مناقب الإمام أحمد بن حنبل: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٧٨- الموسوعة الفقهية الكويتية: صادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دارالسلاسل، الكويت، ١٤٢٧هـ.

٧٩- النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٨٠- نهج البلاغة: السيّد محمد بن الحسين بن موسى الموسوي المعروف بالشريف الرضي، تحقيق: السيد هاشم الميلاني، منشورات العتبة العلوية المقدّسة، النجف الأشرف، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م.

٨١- نور الثقلين: الشيخ عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدّسة، ١٤١٢هـ.

٨٢- الوافي: الشيخ محمد محسن المشتهر بالفيض الكاشاني، تحقيق: السيد ضياء الدين حسيني، نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام العامّة، أصفهان، ١٤٣٠هـ.

٨٣- وسائل الشيعة: الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، تحقيق: الشيخ عبد الرحيم الرباني الشيرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

مواقع الانترنت:

1. http://edition.cnn.com/arabic/2008/world/5/12/earthquake. c-hina/index.html
2. http://www.gafrd.org/posts/636003
3. http://www.pewforum.org/2011/01/27/the-future-of-the-global -muslim-population/
4. http://english.pravda.ru/russia/history/105837-russia-islam-0
5. http://www.islam-love.com/ar/topic/97
6. http://islamonline.net/2690
7. http://investigate-islam.com/al5las/showthread.php?t=2996
8. Charles Darwin,The Autobiography of Charles Darwin1809-1882 ed. Nora Barlow (London: Collins, 1958), 92-3.
9. https://en.wikipedia.org/wiki/David_Berlinski
10. https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Denton
11. https://en.wikipedia.org/wiki/Jonathan_Wells_ (intelligent_ design_advocate)
12. https://en.wikipedia.org/wiki/William_A._Dembski
13. https://en.wikipedia.org/wiki/Georges_Cuvier
14. https://dennisdjones.wordpress.com/2011/02/24/id-peer-re-viewed-research -published-in-science-journals/
15. http://www.reviewevolution.com/press/pressRelease_100S-cientists.php
16. http://www.discovery.org/scripts/viewDB/filesDB-download. php ?command =do wnload&id=660.
17. http://canadafreepress.com/article/almost-a-thousand-maj-or-scientists-dissent-from-darwin
18. http://www.rae.org/pdf/darwinskeptics.pdf
19. https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D9%82%D8%AF-_%D8% A7%D9%84% D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1
20. https://www.youtube.com/watch?v=zc5G1WEuvrc
21. https://www.youtube.com/watch?v=QHj_bsrYkrY
22. https://www.youtube.com/watch?v=Kqo1-oEMV2c
23. http://www.who.int/mediacentre/factsheets/fs376/ar/
24. http://www.who.int/csr/don/2009_03_31/ar /
25. http://www.who.int/water_sanitation_health/diseases/ ence-phalitis/ar /
26. http://www.consumerreports.org/cro/magazine/2013/01/wh-at-s-in-that-pork/index.htm.

وغيرها كثير.

محتويات الكتاب